دراسات تاريخية

دورية محكمة تصدر عن مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعلمية- الجزائر

العدد الرابع(04) ديسمبر 2014م/صفر 1436ه

السيرة الذاتية لشيخ المؤرخين الجزائريين الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد اللّه
د.الحاج عيفه

مواقف إنسانية مع شيخ المؤرخين الجزائريين الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد اللّه رحمه اللّه
أ.د محمد الأمين بلغيث

بدايات الدكتور أبي القاسم سعد اللّه في عالم الصحافة
أ.د مولود عويمر

الكتابة التاريخية عند شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد اللّه بين العاطفة الذاتية و الحقيقة التاريخية
د.محمد بليل

الدكتور أبو القاسم سعد اللّه...الأيام الأخيرة في جنازة الدكتور أبو القاسم سعد اللّه رحمه اللّه
د.محمد العربي معريش

شهادة من الجيل الاخير من الطلبة في حق الدكتور أبي القاسم سعد اللّه
أ.أمينة سليمة صاري

السلام في الحضارة الإسلامية و دوره في التعايش بين الشعوب قراءة في ترتيب قواعد تعامل الذات مع الآخر
د.إبراهيم القادري بوتشيش

ترميم المخطوطات إحياء للثراث وصيانة لكنوز العلم والتاريخ
أ.سهيل جمال

حج النخب في السودان الغربي ودوره الثقافي مع العالم العربي من خلال حجتي منساموسى وصالح الفلاني
د.محمد المختار ولد السعد

الرقم الدولي ISSN 1112 - 2008

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسات تاريخية

دورية فصلية محكمة تصدر عن:

مركز البصيرة

للبحوث والاستشارات والخدمات التعلّمية

العدد الرابع

04

أوت 2015

رئيس التحرير:

أ.د. الحاج عيفة

elhadjaifa@yahoo.fr

نائب رئيس التحرير

أ. نوار نسيم

noor_histoire@yahoo.fr

المراسلات باسم مدير مركز البصيرة

حي ماكودي 02 رقم 13 واد السمار – الجزائر

ها: 023.75.75.81

النقال: 0550.54.83.05

البريد الإلكتروني:

bacera.studies@gmail.com

markaz_bassira@yahoo.fr

الموقع الإلكتروني:

www. albasseera.net

حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع القانوني : 2013-6056

ردم د : 2352-9741

التوزيع

دار الخلدونية للنشر والتوزيع

05، شارع محمد مسعودي القبة الجزائر.

ها/فا: 021.68.86.48

قواعد النشر

دراسات تاريخية دورية فصلية محكمة تعنى بنشر المواضيع العلمية المبتكرة والمقالات الأكاديمية الجديدة في مجال الدراسات التاريخية، وترحب بإسهامات الأساتذة الأفاضل والباحثين الأكارم على أن يراعى في تلك الأعمال قواعد النشر التالية:

1) أن يكون الموضوع المطروق متميزا بالجدة والأصالة والموضوعية والإثراء المعرفي.

2) تقبل المقالات باللغات: العربية والفرنسية والإنجليزية، على ألا يقل عدد صفحات المقال عن 15 صفحة ولا يزيد عن 25 صفحة، وألا يزيد عدد الأشكال والملاحق عن 15 بالمائة من حجم المقال.

3) أن يكتب المقال ببرنامج (Word) مع مراعاة التقيد بنوع الخط والحجم، فالمقالات المكتوبة باللغة العربية يجب أن تكتب بخط: (Arabic Transparent) حجم 14 بالنسبة إلى المتن وحجم 10 بالنسبة إلى الهامش؛ أما المقالات المكتوبة باللغة الأجنبية فيجب أن تكتب بخط: (Times New Roman) حجم 12 بالنسبة إلى المتن وحجم 10 بالنسبة إلى الهامش.

4) ترسل المقالات مرفقة بملخص باللغة الفرنسية أو الإنجليزية في حدود (150-200 كلمة).

5) يجب أن يلتزم أصحاب المقالات المقدمة للنشر بالأمانة العلمية من حيث نقل المعلومات، واقتباس النصوص والأفكار وعزوها إلى أصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها منهجيا.

6) ضرورة اتباع القواعد العلمية المتعارف عليها في الإحالة والتوثيق والاعتماد على المصادر والمراجع (لقب واسم المؤلف، عنوان المصدر أو المرجع، دار النشر، مكان النشر، سنة النشر، الطبعة، الجزء، الصفحة).

7) يجب إدراج الهوامش على شكل أرقام متسلسلة بصيغة أوتوماتيكية في نهاية المقال.

8) تخضع المقالات المقدمة للنشر للتقييم من قبل الأساتذة الخبراء، في حين يحتفظ القائمون على الدورية بحق نشر الأعمال المقبولة حسب التوقيت الذي يرونه مناسبا، وعلى هذا الأساس تقوم الدورية بإخطار الباحثين بالقرار النهائي المتعلق بالقبول أو التعديل، على أن الدورية غير ملزمة بإبداء الأسباب حول الرفض وعدم النشر.

9) لا تتحمل الهيئة العلمية أي مسؤولية عن الموضوعات التي يتم نشرها في الدورية ويتحمل بالتالي صاحب المقال كامل المسؤولية عن كتاباته التي تنتهك حقوق الملكية الفكرية أو حقوق الآخرين.

10) لا تتبنى الدورية اتجاها إيديولوجيا معينا، ولا تخضع لقيود غير العلمية منها والمعايير الأخلاقية، لذلك فالمقالات المنشورة في الدورية لا تعبر إلا عن آراء أصحابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدورية أو مركز البصيرة ولا تلزم القائمين عليهما.

مركز البصيرة يرحب بأبحاثكم واقتراحاتكم ونصائحكم.

آراء الباحثين لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المركز

الهيئـة العلميـة

أ.د/ عبد القادر أيت الغازي	جامعة السلطان مولاي سليمان - المغرب
أ.د/ عبد القادر بوباية	جامعة وهران
أ.د/ علاوة عمارة	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة
أ.د/ محمد الأمين بلغيث	جامعة الجزائر 1
أ.د/ مولود عويمر	جامعة الجزائر 2
د/ توفيق مزاري عبد الصمد	جامعة الدكتور يحيى فارس - المدية
د/ متعب القثامي	جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية
د/ محمد المختار ولد السعد	جامعة نواكشوط - موريتانيا
د/ مدني بشير	جامعة الدكتور يحيى فارس - المدية
د/ موسى هيصام	جامعة الدكتور يحيى فارس - المدية
أة/ دلال لواتي	جامعة الجزائر 2
أ/ عبد القادر بوعقادة	جامعة البليدة
/ علي نجم	جامعة المدينة العالمية - المغرب
أ/ نوار نسيم	المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

ترسل المقالات مرفقة بملخص بلغة غير لغة نص المقال (فرنسية-إنجليزية) في حدود (150-200 كلمة) بالإضافة إلى نبذة مختصرة عن السيرة الذاتية للباحث على بريد الدورية الإلكتروني: m_bassira.histoire@yahoo.fr

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا
يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

يوسف 111

أمة تتعلم، أمة

دورية دراسات تاريخية فصلية محكمة تصدر عن مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعلّمية ـ الجزائر

العدد الرابع- أوت 2015م- شوال 1436هـ

فهرس المحتويات

الافتتاحية	د/ الحاج عيفه رئيس التحرير	07
ندوة تاريخية وفكرية عن الدكتور أبي القاسم سعد الله	أ.د/ مولود عويمر جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله	09
السيرة الذاتية لشيخ المؤرخين الجزائريين الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله	د/ الحاج عيفه رئيس التحرير	11
مواقف إنسانية مع شيخ المؤرخين الجزائريين الأستاذ الدكتور أبي القاسم سعد الله رحمه الله	أ.د/ محمد الأمين بلغيث جامعة الجزائر 1	27
بدايات الدكتور أبي القاسم سعد الله في عالم الصحافة	أ.د/ مولود عويمر جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله	47
الكتابة التاريخية عند شيخ المؤرخين أبي القاسم سعد الله بين العاطفة الذاتية والحقيقة التاريخية	د/ محمد بليل جامعة ابن خلدون تيارت –الجزائر	51
الدكتور أبو القاسم سعد الله... الأيام الأخيرة	د/ محمد العربي معريش جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله	65
في جنازة الدكتور سعد الله	د/ محمد العربي معريش جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله	69
شهادة من الجيل الأخير من الطّلبة في حق الدّكتور أبي القاسم سعد الله	أة/ أمينة سليمة صاري جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله	75
السلام في الحضارة الإسلامية ودوره في التعايش بين الشعوب قراءة في ترتيب قواعد تعامل الذات مع الآخر	د/ إبراهيم القادري بوتشيش جامعة مولاي إسماعيل مكناس –المغرب	81
ترميم المخطوطات إحياءٌ للتراث وصيانةٌ لكنوز العِلم والتأريخ	أ/ سهيل جمال جامعة الدكتور يحيى فارس –المدية	95
حج النخب في السودان الغربي ودوره في التواصل الثقافي مع العالم العربي من خلال حجتي منسا موسى وصالح الفلاني	د/ محمد المختار ولد السعد جامعة نواكشوط –موريتانيا	103

لا خير في أمة لا تعرف قدر رجالها الذين بذلوا قصارى جهودهم في سبيل كتابة تاريخ أحداثها وتأصيل ثوابتها الحضارية، وبذروا البذور الوطنية الحقة في نفوس أبنائها، من أجل ترسيخ هويتنا الدينية والثقافية، وتثبيت قيمنا وأصالتنا الحضارية.

وارتباطا بما لنا من ماض مجيد في التعلق بأعلامنا ورموزنا الوطنية يسرني بل يشرفني أن نقدم لقرائنا الأعزاء عددا جديد من دورية دراسات تاريخية أردنا له أن يكون بمثابة باقة من الأعمال المهداة إلى شيخ المؤرخين الجزائريين الدكتور أبو القاسم سعد الله . طيب الله ثراه . إحياء لذكرى وفاته الأولى يوم السبت 14 ديسمبر 2013م الموافق لـ 11 صفر 1435هـ.

يعتبر الشيخ رحمه الله من الشخصيات المؤثرة في المشهد الثقافي بالجزائر، كان ولا يزال يملك حضورا واضحا في الوسط العلمي الوطني والدولي من خلال أعماله العلمية وبحوثه الأكاديمية، ذلك بما حباه الله به من العلم الغزير والمعارف الواسعة حيث تكون على يديه جيل من الطلبة والأساتذة الباحثين الذين يحملون مشعله العلمي وطموحاته الفكرية، وهذا ما جعله يستقطب جميع المثقفين بما كتبه عن الجزائر وتاريخها الثقافي.

لقد استطاع أبو القاسم سعد الله بمرونته العالية وذكائه الحاد ودماثة أخلاقه ومثله السامية أن يكون ملهما لكل من عمل معه، فكان بحق صنفا نادرا من الرجال، ذلك أنه يجيد بعث الثقة في الآخرين واستثارتهم لبذل أقصى جهودهم واستفراغ منتهى وسعهم، فقد كان دؤوبا بصورة مدهشة على العمل، دون أن يبدي تعبا أو يظهر ملا أو حتى تشكيا، بجانب هدوئه وضبط النفس وقلة الكلام، وهو الصبور على تحمل الأذى وقلما يقابل الإساءة بمثلها، بل كثيرا ما يقابل الإساءة بالإحسان والأذى بالصفح.

لقد وجدت في الدكتور أبو القاسم سعد الله وأنا على رئاسة قسم التاريخ الأستاذ والرفيق الذي يجدر أن يمضي المرء معه رحلة البناء، والأهم من ذلك هو كونه كان مؤمنا بالمبادئ التي كنت أحملها، فربط بيننا نوع خاص من العلاقة قلما تجمع بين شخصيين، عشنا هموم الجزائر، وعانينا معا كل حسب ظروفه تقلبات الزمان وصروفه.

عرف فقيد الجزائر أبو القاسم سعد الله بخصاله الراقية وسماحته السامية وشديد تواضعه، كما اشتهر بين كل الناس بعشرته الطيبة، حيث كان بشهادة كل من عرفه وبخاصة في الوسط العلمي قامة علمية راسخة من قامات الثقافة الجزائرية، ورجلا نذر نفسه طوال حياته للمعرفة والعلم والثقافة حتى عد بحق ذاكرة تاريخية صادقة للوطن، إذ إليه يعود الفضل في تكوين وتأهيل آلاف الطلبة –تدريسا وإشرافا– الذين أصبحوا إطارات في كل المستويات، الذين سيقع على عاتقهم مسؤولية المضي قدما، حاملين معهم رسالة الشيخ مستمرين على نهجه مقتفيين أثره.

إن أشد ما يمكن أن تصاب به أي أمة هو فقدان علم من أعلامها، ذلك أنه إن انطفأت شمعة أحدهم فكأنما سقط جزء من أركان البيت الذي عليه يقوم البنيان كله. يا له من مصاب جلل ذلك الذي أصيب به الوطن من جراء فقد هذا الأستاذ الفاضل والدكتور العالم، والواجب الذي يقع على الأجيال الصاعدة أن تجعل من هؤلاء الأعلام قدوة وأنموذجا في طلب العلم والاجتهاد في العمل والصبر والمثابرة على ذلك، ومثلا يحتذى به في باب التربية والتعليم، والمرابطة في ثغور المعرفة والعلم وجهاد الكلمة.

لا تسعنا الكلمات ولا تسعفنا العبارات في ذكر خصال الشيخ وما عاش عليه، وإنما الذي يشد على أيدينا وينور طريقنا ويسدد خطانا أن نكون –إن شاء الله– خير خلف لخير سلف، وأن يكون شيخنا الجليل رائدنا في العمل الصالح والقول الطيب، والرأي الحصيف السديد والقول

والفعل البناء، وأن نسارع إلى ما فيه خير البلاد وصلاح العباد كما كان يسارع، على أن نرفع جميعا أكف الضراعة إلى الله تعالى أن يورث من طلبة الشيخ من يخلفه في مقامه، لأننا أصبحنا اليوم أحوج ما نكون إلى أمثال الشيخ أبو القاسم سعد الله في التضحية والعطاء.

وفي الأخير لا يسعنا في مثل هذا المقام إلا أن نتوجه بخالص دعائنا وصادق تضرعنا إلى المولى تبارك وتعالى أن يتغمد الفقيد برحمته الواسعة، وأن يجازيه عنا خير الجزاء، وأن يلحقنا به غير مبدلين ولا مغيرين، يقول جل جلاله في محكم التنزيل:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

الفجر: ٢٧ –٣٠

ندوة تاريخية وفكرية عن الدكتور أبي القاسم سعد الله

نظمت مجلة "دراسات تاريخية" بالتعاون مع مركز البصيرة ندوة فكرية وتاريخية يوم الخميس 29 جانفي 2015 حول موضوع: " الدكتور أبو القاسم سعد الله إنسانا ومؤرخا". وبعد الكلمة الافتتاحية التي قدمها الدكتور الحاج العيفة رئيس التحرير. تحدث الأستاذ محمد الهادي الحسني عن علاقته بالمحتفى به الذي اكتشفه للمرة الأولى من خلال مقال نشره الدكتور سعد الله في مجلة المعرفة التي كانت تصدرها وزارة الأوقاف الجزائرية. ثم درس عليه التاريخ في جامعة الجزائر وبقي على اتصال به إلى غاية وفاته في ديسمبر 2013.

وتحدث الدكتور محمد الأمين بلغيث عن مشروعه المتمثل في جمع كل ما كتب عن الدكتور سعد الله. بينما تكلم الدكتور مولود عويمر عن طموحات الطالب سعد الله وتضحيته في سبيل تجسيدها على أرض الواقع وقد نجح فعلا في تحقيقها في مساره العلمي الطويل والغني بالانجازات. وتحدث الأستاذ عبد الله عثامنية عن ذكرياته مع الدكتور سعد الله وخاصة التي لها صلة بمرضه وصبره على ذلك من أجل إتمام مشاريعه العلمية.

وفي الجلسة الثانية تكلم الأستاذ بشير مديني عن جوانب إنسانية في حياة الدكتور سعد الله مركزا على بساطته في العيش وزهده في مطامع الدنيا.

وتطرق الدكتور محمد الصالح بكوش لجهود الدكتور سعد الله في مجال الترجمة مؤكدا على حرص هذا الأخير على تعريب كل ما يراه مفيدا لتاريخ الجزائر. وقد ترجم كتاب تشرشل حول "حياة الأمير عبد القادر". وكتاب " الجزائر وأوروبا" لجون وولف بالإضافة إلى ترجمة عشرات من البحوث والمقالات من اللغة الانجليزية والفرنسية.

كما تحدثت الأستاذة لطيفة حمصي عن تجربتها مع الدكتور سعد الله الذي درست عليه وأشرف على رسالتها الجامعية حول الجامع الأعظم ورسالته العلمية. وتكلم الأستاذ سليم أوفة عن منهج الدكتور سعد الله في كتابة تراجم علماء الجزائر.

ولابد أن أشير في الأخير إلى أن مجلة "دراسات تاريخية" أصدرت عددا خاصا عن الدكتور أبي القاسم سعد الله. كما تعتزم تنظيم ملتقى دوليا في العام القادم يحول الله عن حياته وتراثه الغزير

م ع

جريدة البصائر - العدد: 741 - الاثنين 12 -
18 ربيع الأول 1436هـ/02 - 08 فيفري 2015م

السيرة الذاتية لشيخ المؤرخين الجزائريين
الدكتور أبو القاسم سعد الله

رئيس التحرير الدكتور الحاج عيفه

الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله من مواليد 1930م بضواحي قمار (وادي سوف)، الجزائر، باحث ومؤرخ، حفظ القرآن الكريم، وتلقى مبادئ العلوم من لغة وفقه ودين... وهو من رجالات الفكر البارزين، ومن أعلام الإصلاح الاجتماعي والديني.

له سجل علمي حافل بالإنجازات: من وظائف، ومؤلفات، وترجمات... وهذه السيرة الذاتية المفصلة، ننشرها بمناسبة تكريمه في معهد المناهج، عربون وفاء، ودليل حب وتقدير، لمن وهب عمره لخدمة العلم والمعرفة: حتّى غدا قدوة لكل باحث، وعرف بلقب شيخ المؤرخين الجزائريين.

التّعليم:

-جامعة منيوستا، قسم التاريخ (أمريكا)، الماجستير (AM) 1962، الدّكتوراه (PHD) 1965.

-جامعة القاهرة (مصر)، كلية دار العلوم 1959.

-إضافة إلى اللّغة العربية، يتقن اللّغة الفرنسية، والإنجليزية، ودرس الفارسية والألمانية.

التّخصّص:

-تاريخ أوربا الحديث والمعاصر.

-تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر.

-تاريخ النّهضة الإسلامية الحديثة.

-الدّولة العثمانية منذ 1300م.

مواد قام بتدريسها منذ 1996:

-انتشار الإسلام إلى الوقت الحاضر.

-تاريخ الأوقاف والنّظم المتصلة بها.

-تاريخ العالم المعاصر.

-التاريخ المعاصر للعالم الإسلامي (القرون 16-19).

-تاريخ أوربا الحديث.

-تاريخ أوربا في عصر النّهضة.

-التّطوّر الفكري في المجتمعات الإسلامية الحديثة (لطلبة الدراسات العليا).

-تطور ملكية الأرض والضرائب في العالم الإسلامي (لطلبة الدراسات العليا).

-التّغلغل الأوربي في العالم الإسلامي الحديث 1800-1920.

-التّنظيمات الأهلية والحركات العامة المؤثرة في المجتمعات الإسلامية.

-الحج والرحلة في العالم الإسلامي.

-الحركات الاستقلالية والتحرر الوطني في العالم الإسلامي الحديث.

-الحركة الإصلاحية في الدّول الإسلامية الحديثة (لطلبة الدراسات العليا).

-دراسات نقديّة للمصادر الأصلية والوثائق الحديثة للعالم الإسلامي (لطلبة الدراسات العليا).

-الدّول الإسلامية الحديثة (القرون 16-19).

-العلاقات الخارجية للعالم الإسلامي إلى القرن 18م.

-الفرق والمذاهب الإسلامية.

-المؤسّسة العسكرية في التاريخ الإسلامي (لطلبة الدراسات العليا).

-مدخل إلى التاريخ الإسلامي.

-ملكية الأرض والاستثمار في العصر الإسلامي (القسم الثاني)، من القرن 13.

-مناهج البحث الحديث في التاريخ (لطلبة الدراسات العليا).

-النّهضة الإسلامية الحديثة (1800-1924).

الوظائف العلمية والإدارية:

-أستاذ التاريخ، جامعة آل البيت الأردن، 1996-2002.

-أستاذ التاريخ، جامعة الجزائر منذ 1971م.

-أستاذ مشارك في التاريخ، جامعة الجزائر 1967-1971.

-أستاذ مساعد في التاريخ، جامعة ويسكنسن، أوكلير (أمريكا) 1960-1976.

-وكيل كلية الآداب، جامعة الجزائر، 1968-1972.

-رئيس قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الجزائر 1969-1971.

أستاذ زائر:

-جامعة منيسوتا، أمريكا التاريخ، 1994- 1996، 2001.

-جامعة ميشيقان (أمريكا)، 1987- 1988، دورات متوالية سنوية.

-جامعة الملك عبد العزيز (السعودية)، قسم التاريخ، 1985.

-جامعة دمشق (سورية)، 1977.

-جامعة عين شمس (مصر)، 1976.

-معهد البحوث والدراسات العربية (مصر)، 1970، 1975، 1989.

-جامعة سان دياغو (كاليفورنيا)، 2007، 2011.

تقدير وتشريف:

-منح "وسام المقاوم" على المساهمة النشطة في الثورة الجزائرية، الجزائر، 1984م.

-كرمه رئيس الجمهورية بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لاستقلال الجزائر 1987م.

-ضيف الشرف عند توزيع جوائز الدولة التقديرية، السعودية، الرياض، 1984م.

-الرئيس الشرفي لاتّحاد الكتاب الجزائريين منذ 1989م.

-منح جائزة الإمام ابن باديس من قبل مركز دراسات المستقبل الإسلامي الموجودة في لندن 1991م.

-منحة فولبرايت (Fulbright) كأستاذ باحث، جامعة منيسوتا، 1993-1994.

-كرمته نخبة من الأساتذة والأدباء بمناسبة صدور الطبعة الأولى من كتاب الحركة الوطنية الجزائرية، في مدرج جامعة الجزائر، 04 جويلية 1969م.

-كرمه أدباء وهران، ربيع 1987.

-ضيف شرف في احتفال الجنادرية الثقافي (السعودية) سنة 1992م.

-منح الدّرع المغربي في مؤتمر قيم المواطنة وتحالف الحضارات الرباط (المغرب)، يوم 27 أفريل 2011.

دراسات وشهادات:

كتاب تكريم وتقدير مهدى إلى الأستاذ الدّكتور أبو القاسم سعد الله، تحرير أ.د/ ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000 (ساهمت فيه مجموعة من الأساتذة).

المؤتمرات والمحاضرات:

-محاضرة عن الثّورة الجزائرية في ذكراها الثالثة، في نادي طلبة المغرب العربي بالقاهرة، نوفمبر 1957م.

-محاضرة عن الأديب الشّهيد أحمد رضا حوحو، بدعوة من اللّجنة الثّقافية لاتحاد طلبة المغرب العربي في القاهرة، في نادي طلبة المغرب العربي، مارس 1960م.

-محاضرة عن الجزائر والقومية العربية، جامعة الجزائر، 1966م.

-ندوة عن الثّورة في العالم الثالث، جامعة ويسكنسن، أوكلير، أمريكا، 1967م.

-محاضرة في جامعة الجزائر عن النيقريتود أو الزنوجية، 1968م.

-كتاب المغرب العربي، طرابلس، 1969م.

-اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 1971م.

-اتّحاد الكتّاب العرب، تونس، 1973م، 1990م.

-تاريخ وحضارة المغرب العربي، تونس، 1974م.

-أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، تونس، 1974م.

-النّدوة العالمية الأولى لمصادر تاريخ، الجزيرة العربية، الرياض، 1977م.

-المؤتمر الأول لكتابة تاريخ الثورة الجزائرية، الجزائر، 1981م.

-محاضرة في جامعة الجزائر، بمناسبة ذكرى الأمير عبد القادر، 04 ماي 1983م.

-الحياة الاجتماعية والثقافية للدولة العثمانية، تونس، 1986م.

-محاضرة عن العنصرية عند افتتاح السنة الدراسية الجامعية بالجزائر بدعوة من رئاسة الجامعة في 05/ 10/ 1986م.

-محاضرة عن تاريخ العلوم في الجزائر خلال العهد العثماني، المدرسة الوطنية العليا للأساتذة، ديسمبر، 1986م.

-الذكرى الخمسينية لإنشاء نجم إفريقية الشمالية (أليس من المفروض: نجم شمال إفريقيا)، باريس، 1987م.

-ملتقى نجم شمال إفريقيا، بدعوة من المركز الثّقافي الجزائري بباريس، فيفري، 1987م.

-محاضرة عن نظرة الأمريكيين إلى التاريخ الجزائري، جامعة الجزائر، ربيع 1987م.

-محاضرة في جامعة الجزائر عن قيمة التاريخ، بدعوة من قسم الفلسفة 29/ 12/ 1987م.

-محاضرة عن معنى التاريخ في جامعة الجزائر، 29/ 12/ 1987م.

-تاريخ الرياضيات العربية، الجزائر، 1988م.

-التّراث الفلسطيني، القاهرة، 1989م.

-مؤتمرات المستشرقين الأمريكيين في سان فرنسيسكو، 1966، ميشيغان، 1978، كارولينا الشمالية، 1993م، أريزونا، 1994م.

-مؤتمر مجمع اللّغة العربية بالقاهرة، 1989م.

-المؤتمر الثالث لتاريخ الرياضيات العربية، الجزائر، 1990م.

-محاضرة عن جمعية العلماء والسياسة، في المركز الثقافي الإسلامي بالعاصمة، 24 جانفي، 1990م.

-محاضرة عن إشكالية الكتابة التاريخية بجامعة الجزائر في 02/ 04/ 1990م.

-الملتقى الثّاني للثّورة الجزائرية، باتنة، 11- 14 نوفمبر، 1990م.

-ندوة أسبوع المغرب العربي، تنظيم رابطة الطلاب الإسلاميين بفرنسا باريس، 28 أكتوبر 1991م.

-محاضرة عن الجزائر في منتدى جامعة هاملين مينيابولس، أمريكا، 1994م.

-ندوة خير الدّين باشا التونسي، تونس، 1995م.

-محاضرة عن حياة الرّسول ﷺ في سمنار معهد لوثر مينيالوس، أمريكا، 1996م.

-محاضرة في سيمنار قسم التاريخ، جامعة آل البيت، نساء أوروبيات في مواجهة مجتمع عربي، خريف 1996م.

-محاضرة في جامعة اليرموك بدعوة من قسم التاريخ عن الاستعمار والاندماج في الجزائر، شتاء 1996م.

-كيف تعلم الفرنسيون اللّغة العربية في الجزائر، محاضرة في سيمنار قسم التاريخ، جامعة آل البيت (الأردن)، خريف 1997م.

-مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الرياض، 1997م.

-الملتقى الثقافي الثاني عن أدب السيرة والمذكرات في الأردن، جامعة آل البيت، ماي، 1998م.

-ملتقى الدّولة العثمانية، بدايات ونهايات، تنظيم جامعة آل البيت، سنة 1999م.

-الملتقى العماني الأول بإشراف جامعة آل البيت والسفارة العمانية في عمان سنة 2000م.

-الملتقى العلمي حول الحركة الثقافية والفنية والإبداعية في اليمن إشراف جامعة آل البيت والسفارة اليمنية في عمان، ربيع 2000م.

-محاضرتان في مسقط (عمان) خلال رمضان 1422هـ/ 2001م، وزارة الأوقاف العمانية.

-ملتقى الحركة الثّقافيّة والفنية والإبداعية في الجزائر، تنظيم جامعة آل البيت والسفارة الجزائرية، بعمان ماي، 2001م.

النشاط الأكاديمي:

-مبعوث عدّة مرات من وزارة التعليم العالي الجزائرية إلى الجامعات العربية في مصر وسورية والعراق لتوظيف الأساتذة.

-ممثل جامعة الجزائر في مؤتمر اتحاد الجامعات العربية، الكويت، 1971م.

-عضو لجنة إصلاح التعليم العالي-الجزائر، 1972-1974م.

-عضو اللّجنة العلمية للكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية، إشراف المنظمة العربية (ALECSO)، منذ 1998م.

-محرر المجلد الخامس من الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية، (ALECSO)، منذ 1998م.

-عضو اللّجنة العلمية في كتابة موسوعة العلماء العرب والمسلمين، المنظمة العربية (ALECSO).

-كتابة مداخل عديدة في موسوعة العلماء العرب والمسلمين، المنظمة (ALECSO).

-عضو هيئة تحرير (مجلة المنارة) المحكمة، جامعة آل البيت، الأردن، من 1997-2002.

-رئيس لجنة العلوم الإنسانية لمعادلة الشهادات الأجنبية، الجزائر، 1990-1993.

-رئيس لجنة ترقية الأساتذة المشاركين إلى رتبة أستاذ، في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية، الجزائر، 1990-1993.

-الإشراف على مجموعة من رسائل الدّكتوراه والماجستير والمشاركة في مناقشاتها في الجزائر والأردن وأمريكا والسعودية.

-عضو معتمد في الإشراف على الأطروحات من الجامعة الإسلامية -لندن-

-عضو مجمع اللّغة العربية، القاهرة منذ 1989.

-عضو مجمع اللّغة العربية، دمشق، منذ 1990.

-رئيس المجلس العلمي لدائرة التاريخ ثم معهد التاريخ بالجزائر، سنوات 1972، 1980، 1984، 1986، 1993.

-عضو المجلس الوطني للبحث العلمي، الجزائر، 1992.

-عضو مجلس البحث العلمي، لجامعة آل البيت، الأردن، منذ 1998.

-تنشيط ندوة الأساتذة الثقافية بجامعة الجزائر، 1967-1968.

-إدارة ندوة حول التعريب في الجزائر اشترك فيها مجموعة من الأساتذة في المنهل، السعودية، أغسطس، 1990 (أوت).

المؤلفات:

التّحقيق:

-تاريخ العدواني، تأليف محمّد بن عمر العدواني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996.

-حكاية العشاق في الحب والاشتياق، تأليف الأمير مصطفى بن إبراهيم باشا، ط2، الجزائر، 1982.

-رحلة ابن حمادوش (لسان المقال)، تأليف عبد الرزاق بن حمادوش، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1982.

-رسالة الغريب إلى الحبيب، تأليف أحمد بن أبي عصيدة البجائي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.

-مختارات من الشعر العربي، جمع المفتي أحمد بن عمار، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1991.

-منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية، تأليف عبد الكريم الفكون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.

-أعيان من المشارقة والمغاربة (تاريخ عبد الحميد بيك)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.

-اتحاف القارئ بسيرة خليفة بن حسن القماري، تأليف الشيخ الطاهر التليلي، إصدارات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، 2007.

-رسائل في التراث والثقافة للشيخ المهدي البوعبدلي، إصدارات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، 2007.

-ديوان الدّموع السوداء، نظم الشّيخ محمّد الطاهر التليلي، إصدار عالم المعرفة، 2012.

التّرجمة:

-شعوب وقوميات، الجزائر، 1985، (Peoples and Nationalisms).

-الجزائر وأوروبا، جون ب. وولف (John B. Wolf)، الجزائر، 1986.

-الجزائر في العهد العثماني (Algiers Under the Turks).

-حياة الأمير عبد القادر، تأليف هنري تشرشل (CH.H. Churchill)، ط2، الجزائر، تونس، 1982م (The Life of Abdelkader).

-مع الأمير عبد القادر في الونوغة، ترجمة رحلة أدريان بيربروجر وآخرين إلى معسكر الأمير في الونوغة وبرج حمزة سنة 1838-1839، المركز الوطني لتاريخ الثورة، الجزائر، 2004.

-بحوث في تاريخ الجزائر في جامعات أمريكا... المركز الوطني د.ب.ح.و.ث. 54، الجزائر، 2004.

التاريخ:

-تاريخ الجزائر الثقافي، في 10 أجزاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2007. وطبع مرة أخرى من طرف: دار البصائر للنّشر والتّوزيع، حسين داي-الجزائر، 2009.

-أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، في خمسة أجزاء، صدر في سنوات مختلفة، آخرها 1993، 1996، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2011.

-الحركة الوطنية الجزائرية، في أربعة أجزاء، صدر الأوّل منها سنة 1969، صدرت الأجزاء الأخرى في 1992، 1997 عن دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2011.

-محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، ط1، مصر، 1970م، ط3، الجزائر، 1982.

-(La Montée du Nationalisme Algérie) وهو ترجمة من الإنكليزية إلى الفرنسية لأطروحة المؤلف (ظهور الحركة الوطنية)، ط2، المؤسسة الوطنية، الجزائر، 1985.

-خلاصة تاريخ الجزائر: المقاومة والتحرير (1830-1962)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2007.

-بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.

-مسار قلم (يوميات)، 06 أجزاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2011.

أعلام ودراسات:

-رائد التّجديد الإسلامي، ابن العنابي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.

-شاعر الجزائر، محمّد العيد آل خليفة، عدة طبعات، مصر، وتونس، وليبيا، آخرها عن الدار العربية للكتاب، 1984.

-شيخ الإسلام داعية السلفية، عبد الكريم الفكون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

-الطبيب الرحالة، ابن حمادوش، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982.

-القاضي الأديب، الشاذلي الفلسطيني (أليس القسنطيني؟!)، ط2، الشركة الوطنية، الجزائر، 1984.

-باحث مغمور: نور الدين عبد القادر.

إبداعات وتأملات:

-أفكار جامحة، الجزائر، 1988.

-تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية، الجزائر، 1986.

-دراسات في الأدب الجزائري الحديث، عدة طبعات، أولها في دار الآداب، بيروت، 1966، وآخرها دار الرائد، بيروت-الجزائر، 2007.

-الزمن الأخضر-ديوان سعد الله، المؤسسة الوطنية، الجزائر، 1985.

-سعفة خضراء (قصص)، المؤسسة الوطنية، الجزائر، 1986.

-في الجدل الثقافي، دار المعارف، تونس، 1993.

-قضايا شائكة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1989.

-منطلقات فكرية، ط2، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، 1982.

-هموم حضارية، دار الأمة، الجزائر، 1993.

-حوارات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006.

-مجادلة الآخر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2007.

-خارج السرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.

البحوث:

-المترجمون الجزائريون وإفريقيا، بحث نشر في مجلة الثقافة، العدد 113، 1996.

-أوّل بيان فرنسي إلى الجزائريين، في مجلة المعرفة، 17 مارس 1960.

-العلاقات الجزائرية الأمريكية 1776- 1830، في مجلة المعرفة، 15 سبتمبر أكتوبر 1964، نوفمبر 1964.

-العلاقات الدبلوماسية بين أمريكا ودول المغرب العربي 1776-1816، في مجلة المجاهد الثقافي، العدد 9، 1969، ترجمها السيد كاوش إلى الفرنسية ونشرتها الجمهورية (وهران)، 17 يناير 1970.

-المستشرقون الفرنسيون وتعلم اللغة العربية للأوروبيين، في مجلة مجمع اللّغة العربية بالقاهرة، العدد 64، مايو 1989، ونشرها الشعب في حلقات أولها 32؟! مايو 1989.

-صدى دعوة خير الدين باشا التونسي في الجزائر، ورقة لندوة خير الدين باشا التونسي، تونس، خريف 1990.

-رسالة في الكرة الفلكية لابن حمادوش (القرن 18م)، ورقة للمؤتمر الثالث لتاريخ الرياضيات العربية، الجزائر، ديسمبر 1990، نشرت في وقائع المؤتمر.

-آخر الأعيان أو نهاية الأرستقراطية العربية في الجزائر، في مجلة المنارة، العدد 2، 1997.

-تقريظ للمفتي أحمد بن عمارة (هو أحمد بن عمار وليس بن عمارة؟!)، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني.

-الثورة الجزائرية، في مجلة الآداب، ديسمبر 1977.

-أربع رسائل بين باشوات الجزائر وعلماء عنابة، الثقافة، العدد 51، 1979.

-إجازة أحمد بن عمارة (نفس الملاحظة السابقة)، لمحمد خليل المرادي، الثقافة، العدد 45، 1978.

-قصيدة سياسية لابن ميمون، في الثقافة، العدد 51، 1973.

-قصيدة في رثاء المفتي مصطفى الكبابطي، الثقافة، العدد 44، 1978.

-بين ابن شنب ومحمد كرد علي، الثقافة، العدد 53، 1979.

-مقامة لأحمد البوني (إعلام الأحبار)، الثقافة، العدد 58، 1980.

-الشاعر المفتي ابن الشاهد واحتلال الجزائر، الثقافة، العدد 61، 1981.

-قضية ثقافية بين الجزائر وفرنسا سنة 1843، في مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد 16، 1985.

-عريضة الأمير خالد إلى الرئيس ويلسون (W. Wilson) سنة 1919، في مجلة التاريخ، نصف السنة الثاني، 1981.

-أزمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سبتمبر 1954، في مجلة التاريخ، نصف السنة الثاني، 1980.

-العثور على النسخة المسروقة من مخطوط تحفة الزائر، في مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، 1984.

-مشروع كتاب تاريخ زواوة لأبي بعلى الزواوي، في المجلة التاريخية المغربية، العدد 27-28، 1982.

-رحلة في سورية منسوبة إلى الأمير عبد القادر سنة 1880، في مجلة التاريخ النصف الثاني، 1983.

-مؤلفات أبي حامد المشرقي المعسكري، في مجلة الثقافة (عدد خاص بالأمير عبد القادر)، العدد 75، 1983.

-دراسة اجتماعية من دفتر محكمة المدية أواخر العهد العثماني، 1821، 1839، في الثقافة، العدد 81، 1984.

-الحملة الفرنسية على مصر والشام في رأي المؤرخ أبي راس الناصري، في المجلة التاريخية المغربية، 21- 22، 1981.

-في النشاط العسكري والسياسي والتجاري للجزائر خلال القرن الثامن عشر، في المجلة التاريخية المغربية، العدد 34-33، 1984.

-من أخبار شعبان باشا داي الجزائر، سنة 1695، من كتاب الشهب المحرقة لمصطفى برناز.

-وثيقة عن التجانية وبوعمامة والفرنسيين، في مجلة أوّل نوفمبر، العدد 50، 1981.

-وثيقة تونسية لابن مرزوق التلمساني، في المجلة التاريخية المغربية، العدد 17- 18، 1980.

-كتاب ري الغليل، مخطوط لرحالة ليبي، في مجلة البحوث التاريخية (ليبيا)، العدد 2، 1979.

-العامل الديني في الحركة الوطنية الجزائرية خلال العشرينيات، في وقائع ندوة نجم شمال إفريقيا، باريس، 1987، وأيضا في مجلة الفيصل (السعودية)، 28 ذي الحجة 1408هـ.

-الشيخ البشير الإبراهيمي في تلمسان من خلال الوثائق الإدارية الفرنسية 1933- 1940، في ندوة الذكرى الخمسين لتأسيس دار الحديث، سبتمبر 1987، في مجلة الثقافة.

-صورة الملك محمد الخامس في بعض الصحف الوطنية الجزائرية، 1951- 1956، ورقة لندوة محمد الخامس، الرباط، نوفمبر 1987، لم يتم السفر ولكن الورقة أرسلت وقرئت في الندوة، ونشرت في وقائعها.

-معركة غوط شيكة بوادي سوف، شهر أوت 1955، في مجلة أوّل نوفمبر، العدد 84، 1987.

-نظرة الأمريكيين إلى التاريخ الجزائري، في الشعب، 22 مارس 1987.

-بعض الممارسات العلمية في الجزائر في عصر التخلف العلمي (القرن 15- 18)، ورقة للملتقى الدولي لتاريخ الرياضيات عند العرب، تنظيم المدرسة الوطنية العليا للأساتذة، ديسمبر 1986، في وقائع الملتقى مع ترجمة فرنسية.

-بين علماء الجزائر وعلماء إسطنبول، ورقة لملتقى حقيقة الوجود العثماني بجامعة قسنطينة (الجزائر)، أبريل 1988.

-الجديد عن كتاب (كعبة الطائفين)، أو الجزائر في القرن 17م، ورقة لملتقى الحضارة الإسلامية، تلمسان، جوان 1987.

-بين ابن خميس وابن هدية من مخطوط العلق النفيس، ورقة للمساهمة بها في ملتقى لابن رشيق، تنظيم اتحاد كتاب تونس والجزائر في القيروان، أبريل 1987.

-رسالة من الشيخ العنتري القسنطيني إلى المترجم الفرنسي شارل فيرو (Ch. Feraud)، في مجلة الدراسات التاريخية، العدد 1، 1986.

-من رسائل علماء الجزائر في القرن الماضي، (التاسع عشر)، في مجلة الرسالة (حلقات)، 1987.

-منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر، في مجلة الأصالة، 1514- 1973.

-الأستاذ جوليان (Julien, Ch.A) والتاريخ الجزائري، في مجلة المعرفة، العدد 19، 1965.

-مؤرخ جزائري معاصر للجبرتي، أبو راس الناصري، ورقة لندوة الجبرتي، القاهرة، 1974. ونشرت في وقائع الندوة، القاهرة، 1976، وفي مجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد 12، 1974.

-وثائق جديدة عن ثورة الأمير عبد المالك الجزائري بالمغرب (1914- 1924)، في المجلة التاريخية المغربية، العدد 1، 1974.

-بعض التحولات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني 1518- 1830، في بحوث المؤتمر الدّولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، إسطنبول، 2000، وفي جريدة البصائر، أعداد يناير 2002.

-أشعار ومقامات ابن حمادوش، في الثقافة، العدد 49، 1979.

-مساهمة بعض الجزائريين في الحضارة الإسلامية، ورقة لمؤتمر الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972، وهي منشورة مع المناقشة في وقائع المؤتمر.

-أثر الجزائر في الأدب الأمريكي، في مجلة الثقافة، العدد 86، مارس- أبريل 1985.

-رسالة الثعالبي في الجهاد، نشرت ضمن كتاب بحوث في الحضارة الإسلامية بمناسبة ذكرى وفاة الأستاذ الدّكتور أحمد فكري، الإسكندرية، 1976، نشرت في وقائع الندوة سنة 1983 (وهي منشورة أيضا في كتاب أبحاث وآراء).

-عبد الرزاق بن حمادوش ورحلته، ورقة للمؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، تونس في 24- 29 ديسمبر 1974. نشرت في وقائع أشغال المؤتمر الأوّل لتاريخ المغرب العربي وحضارته، ومنشورات الجامعة التونسية، ج2، تونس، 1974. منشور أيضا في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد 5، أبريل 1975.

-الجزائر والحملة الفرنسية سنة 1830، في مجلة الجيش، أكتوبر، نوفمبر 1970.

-وثائق عن الجزائر في مكتبة جامعة منيسوتا، في مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، العدد 4، 1988.

-الرحلات الجزائرية الحجازية، نشرت بالعربية والإنجليزية في وقائع الندوة العالمية الأولى لمصادر تاريخ الجزيرة العربية، الرياض، 1978.

-الاتجاهات الفكرية للحركة الوطنية، في الشعب، أوّل نوفمبر، 1981، ومجلة أوّل نوفمبر في نفس الشهر، وترجمتها المجاهد اليومية (النسخة الفرنسية)، ونشرتها في حلقات أولها 10/ 11/ 1981.

-مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي (1830- 1954)، في مجلة الثقافة، 79، فبراير 1984، وفي مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، 09، 1978، القاهرة.

-مظاهر الحضارة الغربية في مذكرات مالك بني نبي، ضمن كتاب أدب السيرة والمذكرات في الأردن، منشورات جامعة آل البيت، 1999.

-الشرق والغرب في ثقافة الجزائر الحديثة، في وقائع ملتقى الحركة الثقافية والفنية والإبداعية في الجزائر، منشورات جامعة آل البيت، الأردن، 2002.

-وسائل الاتصال والتواصل بين المسلمين، فصل في كتاب المدخل إلى التاريخ الإسلامي، منشورات جامعة آل البيت، الأردن، 2001.

-صورة مدينة الجزائر في القرن السادس عشر، في وقائع ملتقى الدولة العثمانية، بدايات ونهايات، منشورات جامعة آل البيت، 2001.

-قضايا القدس في مجلة العالم الإسلامي الفرنسية (Revue du monde Musulman)، في مجلة البيان، جامعة آل البيت، 1998.

-أدب الرحلة عند المغاربة، ضمن كتاب تاريخ العرب الحديث، منشورات جامعة آل البيت، 1997.

-نصوص تاريخية عن الثورة العربية في الحجاز، مترجمة ومحققة من مجلة العالم الإسلامي الفرنسية (Revue du Monde Musulman)، في مجلة الندوة (الأردن 2000م).

-فرنسيان في الحجاز في القرن التاسع عشر (ليون روش وجيرفي كورتيلمون)، في مجلة المنهل، السعودية، أغسطس 1996، أعادت نشرها البصائر، الجزائر، في عدة حلقات ديسمبر 2001.

-ثلاث نساء أوربيات في مواجهات مجتمع عربي (حالة الجزائر)، في مجلة البيان، العدد 4، جامعة آل البيت، 1998.

-مع الرحالة العياشي في رحلته إلى القدس، في مجلة التاريخ، أبو ظبي، 2000.

-التصريحات الفرنسية المؤيدة للصهيونية خلال الحرب العالمية الأولى، في مجلة التاريخ، أبو ظبي، 2000.

-الأمير شكيب أرسلان والقضية الجزائرية، في كتاب أوراق في التاريخ والأدب، المهدى إلى الدّكتور نقولا زيادة، لندن 1992.

-سليمان الباروني أضواء وملاحظات، في مجلة الثقافة، العدد 110- 111، 1995.

-الأديب المصلح، محمد المولود الزريبي، 1887-1925، أرسل إلى أمريكا إلى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 1994.

-مجاهد من نوع آخر، حياة الشيخ عبد القادر الياجوري، الثقافة، نوفمبر- فبراير 1995.

-مولود قاسم، ظاهرة فذة، في كتاب رمز كفاح أمة، دار الأمة، الجزائر، 1993.

-كتاب علاج السفينة في بحر قسنطينة تأليف الألبيري، في مجلة كلية الآداب، العدد2، الجزائر، 1972.

-تأثير دعوة مجلة المنار والشيخ رشيد رضا في المغرب العربي، ورقة للدورة ذكرى الشيخ رشيد رضا، عقدت في جامعة آل البيت بالتنسيق مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي، صيف 1999، قرئت في غيابي (في غياب الدّكتور سعد الله)، نشرت في وقائع الندوة.

-قصيدة عربية منسية عن الثورة الجزائرية (للشاعر الحوماني)، في الشعب، 23/ 02/ 1986.

-الجزائر في القرن الحادي عشر الهجري حسب مخطوط (كعبة الطائفين)، في المجلة التاريخية المغربية، 7- 8، يناير 1978.

-التعامل مع اللغة العربية بالجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي، مجلة مجمع اللغة العربة، القاهرة، ج83، نوفمبر 1998.

-تصميم للشعر الجزائري الحديث، في مجلة الآداب، 12، 1957.

-الغزل في الأدب الجزائري، في مجلة الآداب، العدد 5، 1958.

-شخصية البطل في الأدب الجزائري، في مجلة الآداب، العدد 5، 1959.

-محاولاتنا في النقد الادبي، في مجلة الآداب، 9، 1960.

-رضا حوحو ونضال الكلمة، في مجلة الآداب، 12، 1960.

-الجزائر في مؤلف إنجليزي قديم، 1731، في مجلة الأصالة، 8، 1972. ونشر أيضا في كتاب عبد الرحمن الجيلالي (تاريخ المدن الثلاث، الجزائر وملياناة، والمدية)، الجزائر، 1973.

-الاستيطان والاندماج في الجزائر، في مجلة الندوة، العدد 2، 1997.

-الأدب الجزائري مؤثراته وتياراته، في مجلة الرسالة (العراق)، 5- 6، 1960. (هنا الرقم مختلط مع بعضه البعض وخمنت أنه يكون بهذا الشكل)

-رحلة البجائي إلى الحجاز في القرن 9هـ/15م، في مجلة العرب (السعودية)، أكتوبر- نوفمبر 1990.

المقالات:

-أخبار الحاج ديكارت، في الشعب، 6/8/ 1989.

-الأدب الجزائري الحديث، في المجاهد الثقافي، فصلية 1968.

-أرض الملاحم، في مجلة الآداب، 4، 1954.

-أزمة المثقف الثوري في الوطن العربي، في مجلة الآداب، 1966.

-أشباه الرجال، في الشعب، 11 يوليو 1982.

-إشكالية الكتابة التاريخية، في الشعب، 31 مارس 1991.

-الأفعول في الحميرية والبربرية، في الشعب، 15 يونيو 1989.

-إنجلز واحتلال الجزائر، أرسلت سنة 1967 من أمريكا إلى جريدة الشعب.

-الأندلس، ذكرى وعبرة، في مجلة الدراسات التاريخية، 8، 1993-1994.

-اهتمامات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقضايا المغرب العربي، في مجلة الإنسان (باريس)، 7 مارس / أبريل 1992.

-تأملات في مسار الثورة، نشرت في كتاب الثورة الجزائرية أحداث وتأملات جمعية أوّل نوفمبر، باتنة، 1994.

-تساؤلات عن المنظومة التربوية، في الشعب، 13/ 05/ 1989 (حلقتان).

-تكريم الأدب في جزيرة العرب، في الشعب (حلقات)، 9 أبريل 1986.

-تهويمات الأستاذ حسين آيت أحمد، في الشعب، 02/19/ 1990.

-الثورة الجزائرية في الفكر العربي، في مجلة أوّل نوفمبر، العدد 87، 1987. والجدار العربي، في الشعب، 11/ 1989.

-الجريدة الكنز، تصدير لمجموعة البصائر بطلب من محمد الحسين فضلاء كتب 12/ 03/ 1988.

-الجزائر والقومية العربية، في مجلة الآداب، 1967.

-جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والسياسة، في جريدة المنقذ، 1991.

-الحاج (ديكارت) الجزائري، في الشعب، 24/ 05/ 1988. (هذا المقال هو نفسه رقم 1 في هذه القائمة، لكن تاريخ النشر يختلف)

-حدثونا عن الوحدة، في المجاهد الأسبوعي، 26 جوان 1981.

-الحوض، كتاب بالبربرية والحروف العربية، 23 ديسمبر 1989.

-حول أرض الملاحم (باسم إبراهيم الحمداني)، في البصائر، العدد 264، 1954.

-حول أسطورة المروحة، في مجلة الآداب، يوليو 1956.

-حول الجامعة الإسلامية بالجزائر، في الشعب، 15/ 07/ 1982.

-حول المروحة أيضا، في مجلة الآداب، سبتمبر 1956.

-حول النهضة الأدبية في الجزائر، في البصائر، العدد 275، 1954.

-حول رحلة ابن طوير الجنة، في مجلة مجمع اللّغة العربية بمدمشق، المجلد 54، الجزء 3.

-حول صراحة المركز الثقافي، في الشعب، 01/12/ 1988.

-حول كتابة تاريخ الثورة التحريرية، في مجلة الجيش، جوان 1982.

-خطر الدخيل على الفصحى والعامية معا، في وقائع ندوة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دورة 1998، وكذلك في مجلة المجلس الأعلى للغة العربية (الجزائر)، 2000.

-الخوف من التاريخ، في الشعب، 01/19/ 1988.

-ذكريات مغاربية عن اليمن، في مجلة البيان، جامعة آل البيت، 2001.

-ذكرياتي عن أستاذنا عمر الدسوقي، في مجلة الثقافة، 70، يوليو- أغسطس 1982.

-رحلتي إلى الجزيرة العربية، نشرت في كتاب تجارب في الأدب والرّحلة، الجزائر، 1983.

-رحلتي إلى المغرب، في مجلة الثقافة، 18، 1973.

-رسالة القاهرة، في البصائر، بين خريف 1955 وشتاء 1956.

-زيارة لحلقة سيدي ناجي، في مجلة سيرتا، 3 مايو 1980.

-صديق العدو، في الشعب، 22/ 03/ 1988، وأيضا في النصر (قسنطينة) في نفس الفترة.

-صوت الأوراس، العربي، في المساء، 05/ 03/ 1987.

-صيف في سوف، في الشعب، 30- 31/ 10/ 1989.

-ضد الحضارة العنصرية، في الشعب، أكتوبر 1986.

-عن الكتابة التاريخية، في الثقافة، 66، 1981.

-عن تدوين تاريخ الثورة وتنظيرها، في مجلة الجيش، نوفمبر 1972، منشورة أيضا في الطبعة الفرنسية من نفس المجلة بعد الترجمة، جوان 1973.

-عن فوضى اللغات، في الشعب، 04/11/ 1989.

-عندما لبست العمامة، في البصائر، 03/ 12/ 1954.

-فلسطين في مصر، في الشعب، 16/ 01/ 1989.

-في أعماق الأوراس، في الشعب، نوفمبر 1989.

-في التجربة التاريخية، في المجاهد الثقافي، 9، 1973.

-في مجمع اللغة العربية، في الشعب (حلقات)، 05/28/ 1989.

-في ملتقى النجم بباريس، في الشعب، 1987/06/18، ترجمت إلى الفرنسية ونشرت في مجلة أحداث الهجرة، عدد 98، 1987، ومعها رد المركز الثقافي علي.

-في ندوة المجلات الثقافية بالكويت، في أضواء 31، 30 جوان 1984.

-كتاب الشعر والتواصل، في الشعب، 21/ 02/ 1989.

-كلمة باسم الطلبة الجزائريين بالقاهرة في الذكرى الثالثة للثورة الجزائرية، 1957، في مجلة الثقافة، 88، 1984.

-لعنة ميزانت، في المجاهد الأسبوعي، 27 مايو 1983.

-اللغة العربية في الخطاب الرسمي، ضمن وقائع ندوة مجمع اللغة العربية للعام 2001، نشرت أيضا في جريدة الشروق 09 أبريل 2001.

-مؤتمر عربي- عثماني، في تونس، في الشعب، 06/17/ 1986.

-محمد العيد كبير شعراء الجزائر، الآداب، مايو 1960.

-محمّد بن يوسف أطفيش ودوره الثقافي، في وقائع ملتقى عمان الأول، منشورات جامعة آل البيت، 2002.

-المدرسة الوطنية في الشرق (الجزائر)، سنة 2001.

-مراسلة غريبة بين ابن باديس والطاهر العبيدي، الشعب، 1980.

-مرض ابن خلدون وأثره على تأليفه، في المجاهد الأسبوعي، 20/ 04/ 1990.

-مساهمة الصحراء في الثقافة الوطنية، في نشرة المنبر (قمار)، كتبت في 31 أوت 1981.

-مع أديب الخلود، في البصائر، 05/29/ 1953.

-ملاحظات حول التعريب في الجزائر، ورقة لدورة مجمع اللغة العربية في القاهرة، ج 85، مايو 1999.

-من أجل أحفادنا، في المساء، 18/ 06/ 1990.

-من الكرام، أرسلت من أمريكا إلى الشعب، سنة 1995.

-مهمة موتيلانسكي في سوف سنة 1903، في الثقافة، مارس- أبريل 1975.

-نحو جامعة وطنية، في المجاهد الأسبوعي، 17 جوان 1983.

-نظرات في وحدة المغرب العربي، في مجلة المسار المغربي، (ملف خاص)، جوان 1989.

-نكبة ثقافية، في الشعب، 09/15/ 1988.

-وحدة المغرب العربي، مقدمة لورقة ملتقى (وحدة المغرب العربي)، تونس، حوالي 1984.

المقابلات:

-آفاق الأدب في المغرب العربي، في مجلة القبس، مارس 1969.

-تعاملي مع اللغة، في الجمهورية (وهران)، 06/09/ 1986.

-حديث لجريدة الشورى الأردنية، جامعة آل البيت، 10/ 11/ 1998.

-حول الأدب أيضا، في الشعب، 01/28/ 1972.

-حول وحدة المغرب العربي، حديث لنشره في مجلة المسار المغربي، جوان 1989.

-دور المثقفين في بناء وحدة المغرب العربي، في جريدة الجمهورية (وهران)، 12/06/ 1987.

-عن الأدب والثقافة، في مجلة الجيش، فبراير 1972.

-في الجدل الفكلاي، في مارس 1989، جوابا عن سؤال لجريدة الشرق الأوسط.

-في اللغة والثقافة، في مجلة المسار المغربي، ترجمة فرنسية، 1989/06/29.

-مع التضامن (لندن)، 1988.

-مع الجزائر- الأحداث الفرنسية، 08- 10/14/ 1981.

-مع الدستور (لندن)، 1985/06/17.

-مع الشعب، 1982/11/01.

-مع العرب (لندن)، 1985/02/08.

-مع المساء (الجزائر)، 12/09/ 1985.

-مع النصر (الجزائر)، 1989.

-مع مجلة الحوار (باريس)، 1987.

-مع مجلة الفيصل (السعودية)، 12/29/ 1985.

-مع مجلة الكفاح العربي (بيروت)، 1980 نشرت أيضا في كتاب أصوات من الغرب العربي لأحمد فرحات.

-مع مجلة المسار المغربي، 1989/06/29.

-مع مجلة الوحدة، في ثلاث حلقات، 526، 527، 528، 1991.

-مع مجلة الوطن العربي (باريس)، 1985/05/26.

-مقابلة مع الشعب (الجزائر)، 1980/12/24.

-من قضايا الأدب العربي، في الشعب، 11/27/ 1971.

مراجعات كتب:

-أحمد رضا حوحو في الحجاز، لصالح خرفي، في مجلة المنهل (السعودية)، 1992.

-الأسطول البحري الجزائري، كتاب مولاي بلحميسي، في مجلة الندوة (الأردن)، سنة 2002.

-أعزفوا ألحان الفتوة، في البصائر، 299، 1954.

-أناشيد للوطن، كتاب الأمين بشيشي، في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق سنة 2002.

-بحيرة الزيتون، في الشعب، 01/13/ 1968.

-بلاد البربر في عصر الأنوار، مراجعة لكتاب آن تومسون (A. Thomson)، في مجلة الدراسات التاريخية، 10، 1997.

-بين الاوراس والجريد وورقلة من كتاب جوليا كلنسي-سميث (Julia Clincy Smith) ثائر وقديس (1880-1904)، 1994.

-بين العربية والإسبانية، لبوعلام بن حمودة، في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج2، مجلد 73، أبريل 1998.

-الحجاز في كتاب العقيد بريمون (Le Hedjaz dans la Guerre Ed Bremond) في مجلة الندوة، 2000.

-حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792)، تأليف أحمد توفيق المدني، في المجاهد الثقافي، 8، 1969.

-حرب وحشية للسلام، الجزائر 1945-1962، كتاب أ. هورن (A. Horne)، في مجلة التاريخ، النصف الأول، 1982.

-الدولة والمجتمع في إفريقيا الشمالية، تحرير ليون براون (L. Brown)، في مجلة الدراسات الإفريقية الحديثة (Journal of Modern African Studies)، 4، 1967، نشرت ترجمتها العربية في المجاهد الثقافي، 4، 1968.

-الرصيف النائم، في مجلة القبس، 9-10، 1968.

-سياسات البحر الأبيض المتوسط، لريتشارد غيلسباي (R. Gillespie) (محرر) في (Modern Greek Studies Yearbook 12-13 University of Minnesota)، 1996-1997.

-السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، كتاب أ. كوران، ترجمة ع. التميمي، في مجلة كلية الأدب (الجزائر)، 2، 1972.

-شعر المقاومة الجزائرية، في المجاهد الثقافي، مارس 1968.

-فرنسا وبريطانيا واحتلال الجزائر، عن كتاب جيمس سوين (J. Swain)، في مجلة الجيش، 53، يوليو 1968.

-القصة الجزائرية القصيرة، في المجاهد الثقافي، 5، 1967.

-كتاب التحولات الثقافية في الشرق الأوسط، لشريف ماردين (Sherif Mardin) في (Modern Greek Studies Yearbook, 10-11 University of Minnesota, 1995-1996 vol)، ونشرت أيضا في مجلة الندوة، 1997.

-كتاب جغرافية الجزائر، تأليف ع. حليمي، في المجاهد الثقافي، 7، 1968.

-المحاكم الإسلامية والسلطة الاستعمارية، كتاب آلان كريستلو (A. Christelow)، في الشعب، 06/29/ 1989.

-مصرع الطغاة (مسرحية)، في المجاهد الثقافي، 1967.

-مع حمار الحكيم، في البصائر، 250، 1953.

-الموسوعة الأوراسية، أطروحة عبد الحميد زوزو، في مجلة الدراسات التاريخية، 8، 1993.

تصدر كتب:

-آثار الإمام الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي، ج5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997. وأيضا في قلب المعركة، دار الأمة، الجزائر، 1994.

-تحفة الأدب، لمحمد بن شنب، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.

-تقديم قصيدة (يا شمس)، للشيخ التليلي، في مجلة الثقافة، 88 يوليو-أغسطس 1985.

-جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مازن مطبقاتي، بيروت، 1986.

-دور المهجرين الجزائريين في بلاد الشام، لسهيل الخالدي، بيروت، 1995.

-ذكريات المعتقلين، لمحمد الطاهر عزوي، باتنة، 1994.

-رحلة الباي محمّد الكبير، باي وهران، تأليف أحمد بن هطال، تحقيق محمّد بن عبد الكريم، القاهرة، 1969.

-زمن الحصار، ديوان السيد أم سهام، 1988.

-السير الذاتية للأمير عبد القادر الجزائري، تحقيق مجموعة من الأساتذة، دار الأمة، الجزائر، 1993.

-الشعر الجزائري وملحمة الثورة، لبلقاسم بن عبد الله، الجزائر، 1988.

-علج علي والدّولة العثمانية، لمحمّد سي يوسف، الجزائر، 1992.

-فتح الإله لأبي راس الناصري، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الجزائر، 1990.

-كتاب موجز تاريخ الجزائر، لعثمان الكعاك، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002.

-مذكرات الحاج أحمد باي قسنطينة، مع مذكرات حمدان خوجة وأحمد بوضربة، ترجمة محمد العربي الزبيري، الجزائر، 1973.

-مسائل قرآنية، للشيخ محمد الطاهر التليلي، المؤسسة الوطنية، الجزائر، 1986.

-المغرب العربي، تاريخه وثقافته، رابح بونار، الجزائر، 1968 (لم ينشر).

-من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، لناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999.

-من ديوان الدموع السوداء، للشيخ التليلي، في الثقافة، 55، يناير-فبراير 1980.

-نصوص ووثائق جزائرية، لعبد الحميد زوزو، الجزائر، 1984.

-الفقه والتاريخ في الغرب الإسلامي مقاربات منهجية، للخضر بولطيف، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013.

ترجمات:

-الاستعمار والثقافة الشعبية في الجزائر، ترجمة بحث كتبه إيمانويل سيفان (E. Sivan) ونشر في السلام على حلقات، أولها إبريل 1991.

-انتفاضة 8 مايو 1945 بالجزائر، ترجمة لبحث كتبه مانفريد هيلبون (M. Halpern)، نشر في المجاهد الأسبوعي، مايو 1990.

-تدهور النظام القبلي في سوف، مترجم عن بحث نيكو كيلسترا من مجلة الغرب الإسلامي، 45، 1987، في مجلة الدراسات التاريخية.

-الثورة الثقافية في الصين، ترجمة منشورة في المجاهد الثقافي، 1968.

-الجزائريون في إيسلاندا سنة 1627، مترجم عن كتاب الإسلام في تاريخ لبيرنارد لويس (B. Lewis).

-الجمعيات والنوادي في الجزائر، في مجلة الآداب، 11، 1959.

-الحركة الوطنية الجزائرية، ترجمة لخلاصة أطروحة الدكتوراه، في مجلة تاريخ وحضارة المغرب، 4 يناير 1968. وكذلك في المجاهد، 19/ 02/ 1967.

-رأي أوربي (توماس كامبل Thomas Campbell) في الأدب الجزائري في القرن التاسع عشر، في مجلة المعرفة، 7، 1963.

-رحلة الأغواطي في شمال إفريقيا والسودان والدرعية، حوالي سنة 1842، في مجلة التاريخ، النصف الثاني، 1982.

-رحلة الامير الألماني بوكلر موسكاو (P. Muskau) إلى عنابة، في مجلة الثقافة، 38- 39، 1977.

-رحلة إلى معسكر الأمير عبد القادر في الونوغة والبويرة، 1837- 1838، دراسة وترجمة لرحلة أدريان بيربروجر (A. Berbrugger)، في مجلة الذاكرة، أغسطس، 1998.

-زيارة الداي حسين باشا لباريس، 1831، في مجلة الشرطة (حلقات)، 43، 1987.

-علاقة الحركة الصهيونية بجماعة تركيا الفتاة، ترجمة لبحث روبرت أولسون شيكاغو (R. Olson) في الشعب، 04/ 05/ 1989.

-كتاب الجزائر باللغة الفرنسية، بحث مترجم عن جورج جوايو (G. Joyeux)، منشور في كتابه دراسات في الأدب الجزائري الحديث.

-موقف أمريكا والجامعة العربية من حوادث 8 مايو 1945، في مجلة التربية، وزارة التعليم الأساسي، الجزائر، 4، 1982.

-نجم الشمال الإفريقي وجذور الحركة الوطنية، (حلقات)، الشعب، 29/ 12/ 1987.

بعض أعمال كتبت عن الأستاذ:

-أبو العيد دودو، مقدمة للمجموعة القصصية، سعفة خضراء، الجزائر، 1986.

-أحمد توفيق المدني، مقدمة النصر للجزائر، دار الفكر، القاهرة، 1957.

-تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، سنة 1981، ج1ح 2، مراجعة الأستاذ بطرس فان سيفر (Peter von Siver)، جامعة يوتا. في المجلة التاريخية الأمريكية (American Historical Review)، أبريل 1985.

-تاريخ الجزائر الثقافي، مراجعة الأستاذ الدّكتور ناصر الدين سعيدوني، في جريدة الوطن (Elwatan) بالفرنسية، سبتمبر 1999، وقام بترجمة المراجعة إلى الإنجليزية الأستاذان (Armand and Madeeine Renaud)، ونشرتا معا ضمن كتاب التكريم المذكور.

-تاريخ الجزائر بنظارات سعد الله، تأليف د. جورج سالم حجاز، فصل منه نشر في مجلة آمال، 57 مايو- حزيران 1989.

-الدّكتور أبو القاسم سعد الله ونقده للشعر الجزائري، بقلم شريبط، في مجلة التواصل، نشرية جامعة عنابة، 1996.

-شاعر وثورة، تأليف د. حسين فتح الباب عن الزمن الأخضر، ديوان سعد الله، دار المعارف (تونس)، 1991.

-الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي، مقدمة كتابي (ربما تستبدل بمقدمة كتاب الدّكتور سعد الله) محمّد العيد آل خليفة الشعر الجزائري الحديث، دار المعارف، القاهرة، 1961.

-كراميوف، مقدمة للطبعة الروسية لمجموعة النصر للجزائر، في مجلة الثقافة، 32.

-لملمة تاريخ الجزائر الثقافي، مراجعة لهذا الكتاب كتبها د. آلان كريستلو (A. Christelow) من جامعة آداهو بأمريكا، في نشرة (ISIM) الّتي تصدر بهولندا، عدد 05، سنة 2000، أعادت نشرها بالإنجليزية مجلة الزهراء، جامعة آل البيت (الأردن)، رقم 33، 1432هـ/ ديسمبر 2001م، وترجمتها إلى العربية محمد الصالح بكوش، ونشرها في البصائر، على حلقتين، 7- 14 يناير 2002.

-مقدمة محمود أمين العالم لديوان أغاني الجزائر، سنة 1958، منشورة في مجلة الثقافة، 68، مارس-أبريل 1983.

مواقف إنسانية مع شيخ المؤرخين الجزائريين (1)
الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله

الأستاذ الدكتور محمد الأمين بلغيث
كلية العلوم الإسلامية -جامعة الجزائر 1

من أجل أحفادنا بقلم شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله [2]:

لقد اطلعت باهتمام على جهودكم من أجل إعادة الاعتبار للإنسان الجزائري، الذي عانى من إرهاق وعنصرية الاستعمار الفرنسي عبر قرن وربع، وإني كمواطن وكأستاذ في التاريخ أبارك جهودكم وأتمنى لها النجاح. بهذه المناسبة أود أن أشير إلى أن تاريخ الجزائر خلال العهد الاستعماري مليء بالشواهد على معاناة شعبنا من الجرائم التي ارتكبت في حقه. ومن الممكن ذكر بعضها فيما يلي:

1-الإبادة الجماعية [3]: وقد وقعت في العديد من المناسبات نذكر منها [أ] مجزرة غار الظهرة 1845، حيث اختنق أثناءها بالدخان أكثر من ألف شخص في ذلك الغار على يدي الجنرال بيليسيي، عن عمد وسبق إصرار[ب]. مجزرة الزعاطشة 1849، التي احترقت بمن فيها من السكان عن طريق نسف المنازل، على يدي الجنرال [هيربيون] [ج]. إحراق القرى والمداشر بمن فيها من القبائل سنة 1857، لا سيما في ناحية الأربعاء ناث إيراثن، وكذلك تخريب البيض سيدي الشيخ على سكانه خلال ثورة 1864 [د]. إبادة جماعات كاملة من سكان سطيف وخراطة وقالمة سنة 1945.

2-النفى الجماعى: تشهد السجلات على إجبار الجزائريين رجالاً ونساءً على مغادرة وطنهم والعيش في جزر نائية مثل سان مارغريت، وكالدونيا الجديدة، وكيان وغيرها. وقد نفي آخرون، فطلبوا العيش في بلاد عربية وإسلامية مثل الإسكندرية والحجاز وبلاد الشام. وهناك من غيبته المنافي، فلم يسمح له بالرجوع إلى وطنه أبدًا. وهناك أطفال أُخِذوا كرهائن لإجبار آبائهم على الاستسلام مثل أولاد ابن رويلة، وابن علال إلخ... بعد حادثة الزمالة الشهيرة 1843.

3-مصادرة الأراضى والمنازل والممتلكات: وذلك بالنسبة إلى من دافع عن وطنه أو عائلته أو دينه. وهذه نقطة يمكن التوسع فيها، وعليها شواهد كثيرة، إذ أُعطيت الأراضي والممتلكات المصادرة إلى الأوروبيين المجلوبين بطريق الإغراء للعيش في الجزائر.

4-الحكم بالإعدام أو النفي أو بالسجن المؤبد والأشغال الشاقة والغرامة الثقيلة: على من دافع عن وطنه أو دينه أو عرضه. ولا سبيل إلى حصر حالات كهذه الآن، لكن يمكن ذكر مصير الشيخ بوزيان وابنه وأبي موسى الدرقاوي في الزعاطشة، ولالة فاطمة في بلاد القبائل، والشريف بوشوشة، وشريف ورقلة، والحاج الصادق في الأوراس.

5-الاعتداء على حرمات الموتى: فقد ثبت أن مقابر المسلمين قد جرفتها الآلات وسويت بالأرض وأقيمت عليها طرق ومبان، مثل ما حدث في السنوات الأولى للاحتلال للمقبرة التي كانت في باب الوادي. كما وقع نبش القبور والتجارة بعظام الموتى مع عملاء بمرسيليا لصناعة المساحيق وأنواع من السكر.

6-إن ذاكرة الشعب لا تزال واعية لما حدث أثناء الثورة التحريرية من تعذيب وتقتيل وخطف وحشد وتخريب للمنازل واعتداء على الحرمات. ويكفي الرجوع إلى الوثائق والشهادات الوطنية وإلى ما كتبه بعض الفرنسيين والأجانب لكي يعرف شعبنا حقوقه التي لا يمكن التفريط فيها.

7-إن عسكريين من أمثال كلوزيل وبوجو وبيليسيي ويوسف وسان طارنو وكاروبيي [الذي أحرق ناره] وهيربيون، ثم دي غيدون، وبيجار، وماسو وسلان إلخ... وكذلك فرقة اللفيف الأجنبي، ومنظمة الجيش السري وغيرهما، جدير بالجزائريين ألا يتسامحوا معهم وألا ينسوا أفعالهم أبدًا، وأن

يلتمسوا مل الطرق للحصول منهم على حقوقهم المعنوية والمادية. هذا عن الجرائم في حق الأفراد والجماعات.

أما الجرائم في حق الدولة فتتمثل في الاعتداء على السيادة والاستيلاء على خزائنها وانتهاب ما فيها من أموال ومجوهرات، وعلى أملاك الجيش، من ثكنات وقلاع وحصون وسفن حربية وتجارية وذخائر وثروات. وهناك جرائم ضد مقدساتنا ومقوماتنا وأخلاقنا مثل:

أ–هدم المساجد والمؤسسات الدينية وتحويلها إلى أغراض دينية غير إسلامية أو إلى مصالح عسكرية وتجارية.

ب–الاستيلاء على الأوقاف والأحباس الإسلامية الكثيرة، التي كانت مصدرًا لنشر العلم وإعانة الفقراء وتوفير التكافل الاجتماعي.

ج–فرض التجهيل المقصود الذي دام عشرات السنين.

د–المعاملة غير الإنسانية بتسليط [قانون الأهالي] الاستثنائي.

هـ–إجبار الشباب على التجنيد في حروب دولية لا تخدم وطنهم في شيء.

و–نشر إرهاب "ثقافي" يعتمد على نظرية التفوق العنصري والإساءة إلى كل ما هو عربي من لغة وتراث وتاريخ وجنس، وإشاعة كلمات وتعابير بذيئة لوصف شعبنا مثل (البيكو) و(الراطون) و(الموكيرة).

ز–الاعتماد على سياسة "فرق تسد" في الهيمنة والتسلط على السكان.

ح–نهب الوثائق الأرشيف والمخطوطات الوطنية.

إن الشعب الذي يتسامح في حقه شعب بليد، فاقد للحس التاريخي، وحاشا شعبنا أن يكون كذلك. إني على يقين من أنه حتى ولو تسامح جيلنا نحن الآن، فسيأتي جيل آخر، يطالب بهذا الحق كما يحاسبنا نحن الذين تسامحنا في حقه، في وقت يعد فيه التسامح بلادة وإهدارًا للوعي التاريخي، بل قد يكون خيانة.

فمن أجل الأبرياء الذين اختنقت أصواتهم في السجون والمنافي البعيدة، وهم في أحر الشوق إلى ذويهم ووطنهم، ومن أجل المواطنين الذين استشهدوا دفاعًا عن الشرف والأرض والدين، ومن أجل الجزائريين الذين افتقروا بعد غنى وذلوا بعد عز نتيجة مشاركتهم في تحرير بلادهم خلال العهد الاستعماري، أضم صوتي إلى صوتكم وأضع يدي في يدكم وفي يد كل من يعمل على نشر الوعي بالحقوق المنسية بين المواطنين، حتى لا تحاسبنا الأجيال القادمة على أننا كنا جبلا بليدًا أو غبيا، أو فاقدًا للذاكرة التاريخية. "وما ضاع حق وراءه طالب".

أبو القاسم سعد الله الجزائر في 13 جوان 1990م

المقدمة العامة:

كتبت دراسة مطولة حول الإمام عبد الحميد بن باديس في العدد الخاص لمجلة الموافقات الغراء التي كان يصدرها المعهد الوطني العالي لأصول الدين، كلية العلوم الإسلامية حاليا، وختمتها بقولي وخلاصة القول: إن الإمام عبد الحميد بن باديس المسلم الثائر والرجل القرآني شخصية ملتزمة بخطها الفكري، وهو مصلح، صاحب نظرة مستقبلية تنبئ عن إخلاصه لدينه وعروبته، وجزائريته وانتمائه إلى أمة شريفة تعيش في عصره السقوط الحضاري، والغزو الفكري، والاستلاب الطرقي والتخلف الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، وهو ذلك "الرجل الذي مد الجسور ومتن الحبال التي ربطت بين جيل عصر الإصلاح والتنوير، وجيل النصر والتمكين ولكن بعد استقلال بلاده الجزائر كعبة المجاهدين قُطعت الحبال ونُسفت الجسور"[4].

فهل نقدر في هذا الزمن الرديء أن ننصف الرجل، ونقرأ دوره العلمي في بناء هذه الأمة، أم علينا أن نسكت، سكوت الجبناء عبيد الدرهم والدينار، الذين ركنوا إلى الأرض، واستسلموا للعبودية، أين نحن من أشواق ابن باديس إلى الحرية، وأين نحن من هذا الرجل الرسالي وقضايا العرب والمسلمين؟

كانت هذه هي الخلاصة، التي ضمنتها فكرة شيخ المؤرخين وكشفه عن المفارقة الكبيرة بين جيل الإمام الشاهد عبد الحميد بن باديس وجيل التمكين، واليوم يغادرنا هذا

العملاق الذي هو الخبير بأبناء فرنسا الاستعمارية والأوفياء من الخدم الذين ساروا في ركاب الاستعمار [5].

ولقد تعدد المتعاونون مع رجال الاحتلال من حيث المهمات التي تكفلوا بإنجازها فقد ساروا في ركاب الاحتلال مسيرة طويلة فكان منهم المترجم من الدارجة الجزائرية إلى اللغة الفرنسية، ومنهم من كان يترجم لأسياده زفرات وتنهدات أبناء قومه ومنهم من تكفل بنقل الكتب والمخطوطات العربية إلى اللغة الفرنسية، بل منهم من أرّخ لوطنه بطلب من بعض ضباط المكاتب العربية التي كانت تمثل رواد الدراسات الأنثروبولوجية أو رواد علم الاجتماع الاستعماري، ومن هؤلاء الرواد الذين ساروا في ركاب الاستعمار الفرنسي، تكون جيل من النخبة الجزائرية[6].

ومن الأهمية ذكر الدمار الشامل الذي عرفته الجزائر، وهذا من خلال احتلال ونهب المدن الجزائرية التاريخية، كقسنطينة وعنابة، وبجاية، والجزائر العاصمة ووهران وتلمسان ومعسكر، إلى غاية 1848 أي عند انتهاء المقاومة الرسمية وجهاد الشعب الجزائري في العقدين الماضيين قبل السنة المذكورة، فقدت الجزائر ما يزيد عن 100/10 أي 300 ألف من سكانها كما ذهب إلى ذلك شيخ المؤرخين الجزائريين [7].

ولعل من حبَّبَ إلينا الجزائر والتدوين في أَدَقِّ خصوصياتنا الشخصية، هو المحتفى به شيخ المؤرخين الدكتور **أبو القاسم سعد الله** حفظه الله.

لقد كان يشجعنا ولا يزال على الكتابة ونحن في مرحلة الطلب، وقد لا أفي بحق الرجل فهو بموسوعته الراقية "تاريخ الجزائر الثقافي" قد بنى للجزائر هرمًا تفتخر به الأجيال، فقد تمثل لي الدكتور سعد الله في همة الرجال الكبار، وحدس المؤرخ الرسالي كهمم إخواننا المصريين، فكل واحد فيهم يرى نفسه قادرًا على أن يكون هرمًا جديدًا يضاف إلى أهرامات مصر الخالدة.

هذه الهمة العالية هل هي التي تدفع شيخ المؤرخين إلى العمل والمشاركة في إعادة عصر التدوين من جديد إلى وطنه الصغير الجزائر خاصة وعالمه العربي والإسلامي عامة. لأنه يدرك حقيقة التاريخ، فنحن نتساءل معه كيف انتصرت علينا قوة "التقدم" كما يسميها الدكتور فارنييه في عمله "الجزائر أمام الإمبراطور"[1].

لعلني لا أبالغ فأرى من خلال تجربتنا التي تزيد عن ربع قرن ونحن نقرأ ما ينتج الأستاذ الكبير سعد الله فأقول إنه المؤرخ الموسوعي، متعدد المشارب والاهتمامات، فقد قرأنا له ما كتب في مجلة الآداب وقد كان شابًّا يافعًا يشارك في التأسيس للقصيدة الحرة، فهو بحسب النقاد من أوائل الشعراء الجزائريين الذين كتبوا القصيدة الجديدة، خارج دائرة القصيدة التقليدية العمودية، كما شاهدنا همته وهو يقوم بتدوين تاريخ الجزائر بداية من **1830** إلى غاية **1945م**، بوعي نادر يسابق به الزمن وهذا في عمله الموسوعي "**الحركة الوطنية الجزائرية**" كما ساهم مساهمة بالغة في تسجيل وتدوين تاريخ الجزائر الثقافي بداية من القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن العشرين **(1954م)**.

ولعل المصاب الجلل، والعملاق الذي هوى ستتذكره الجزائر في حولياتها، لأنه قام بواجبه كأي رجل شريف خدم أمته.

لهذا أقدم هذه المواقف الإنسانية التي عرفتها وأنا أتعامل مع شيخ المؤرخين الجزائريين من بعيد، حتى لا أقول إنني من أصفياء المؤرخ أو المقربين منه، لكن التاريخ شاهد علينا والأيام ابتلاء، والله خير الحاكمين.

هذه شهادتي وهذه مواقفي التي عرفت فيها شيخ المؤرخين وقدوة الباحثين ومؤرخ الأجيال خلال ثلاث وثلاثين سنة خلت، لعل القارئ والمحب واللدود معًا جميعًا يقرؤون زفرات قلب جريح فقد سندًا عظيمًا والعظمة لله سبحانه وتعالى، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، ولنا في آثار هذا العملاق الذي هوى المواساة من الموت والموت حق.

الجزائر المحروسة في 03 ربيع الأول 1435هـ/05 يناير، جانفي 2014م

الموقف الأول: تسمع بالمعيدي:

بعد نجاحنا في مسابقة الدخول إلى نظام الماجستير في شهر نوفمبر **1980**م انتظرت أنا القادم من قسنطينة مع زملائي لأرى شكل المؤرخ الكبير، وهذا في أول حصة

بالخروبة، فلما وصل إلينا قلت لهم هل هذا هو سعد الله، وبصوت خافت، وكنت أنتظر أن أرى عملاقًا في جسده أشبه بالصورة الضخمة التي رسمتها في خيالي قبل وصولي إلى العاصمة، فكان قد سمع ما قلت فكان رده على الفور وبابتسامة الواثق من نفسه: "**تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تره**" فقلت على الفور معاذ الله يا أستاذ.

أذكر للتاريخ أن المسابقة الوطنية التي أشرف عليها خيرة أساتذة التاريخ في الجزائر، قد أفرزت أحسن مجموعة من الباحثين على المستوى الوطني[هامش]، وكان أغلب الناجحين في المسابقة من جامعة الجزائر، وأذكر أنه لم ينجح طلاب جامعة وهران، وأما جامعة قسنطينة فقد نجح العبد الضعيف[**محمد الأمين بلغيث**] وجئت في الترتيب الثاني بعد **الأستاذ أحمد شريفي**، وأما الثاني من قسنطينة فهو **الأستاذ عبد الحميد خالدي**[8]، الذي نجح بالإنقاذ، ولكنه التحق بجامعة بغداد بالعراق الشقيق بمعية [محمد لحسن زغيدي، ومسعود خرنان، وإبراهيم بحاز] ولم ينتظم معنا، فكان الدكتور سعد الله المتخلق الصارم هو المكلف بغيابات الطلبة، وفي السداسي الأول أقصى ثلاثة من سبعة وعشرين طالبًا على ما أذكر ومنهم **الأستاذ نور الدين ميهوبي** من المدية رغم أنه تغيب بعذر شرعي، لكن سعد الله كان يعلم تحايل الطلبة على القانون وهذا بغيابهم حصتين في كل مادة، وكانت مقبولة عند بعض الأساتذة لكن شيخ المؤرخين قال لنا إن هذه يجب أن ينساها الطلبة فثلاث غيابات في كامل السداسي وفي كل المواد تقصي الطالب نهائيا وعليه أن يفكر في إعادة المسابقة من جديد.

الموقف الثاني: الدفعة الأولى لقسم الماجستير على المستوى الوطني[9]:

بدأنا ندرس عند شيخ المؤرخين مجموعة متكاملة متكونة من حوالي سبعة وعشرين طالبًا كما ذكرت آنفًا، ونحن نمثل أول مجموعة في أول دفعة لنظام الماجستير الذي عوض نظام الدراسات العليا القديم بالجامعات الجزائرية، كان يدرسنا من النسخة المخطوطة بقسميها الأول والثاني من موسوعته تاريخ الجزائر الثقافي الذي سيظهر في مجلدين على مطابع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع عام 1982م، ورأى المدرس الحاذق عدم استجابتنا للمحور الخاص بالتصوف الذي درسه لنا في الحصص الأولى، فكانت الأسماء والعناوين الأولى عن دور الشيخ زروق، و"رسالة في التصفيق"، فقال لنا على الفور اعتقد أن موضوع التصوف لا يروق لكم، هل ترغبون في الاستماع إلى التاريخ في العهد العثماني، فبدأ يحدثنا عن التاريخ والمؤرخين، فرأى تجهُّمًا وقلة راحة بل ربما فهم الأستاذ أنهم أخطأوا التقدير في انتخابنا لنكون مشروع مجموعة من المؤرخين، قال لنا على الفور وبدارجة جزائرية "**الظاهر يا جماعة ما هناش**"[10].

فرغم سلطة شيخ المؤرخين والمكانة التي يجدها في نفوسنا، أعجبتنا ردود الفعل الأولى عن جهلنا، فضحكنا بصوت واحد وابتسم معنا ثم واصل بعد ذلك يدرسنا في أسلوب الحكيم المتبصر بمسؤولية المؤرخ التي يحس بها وهو يدخل علينا كل أسبوع ولمدة أربع ساعات كاملة من الساعة التاسعة صباحًا إلى غاية الواحدة تقريبًا وهو يصول ويجول دون كلل أو ملل مما يدعونا إليه في مادة المنهجية وتاريخ الجزائر في العهد العثماني.

الموقف الثالث: قصة التخلي عن إشراف سعد الله:

أما الموقف الذي أتذكره جيدًا فيتعلق باختيار التخصص، فبعد اقتراب السنة التمهيدية من الانتهاء، وفي حدود بداية السداسي الثاني اتجه معظم الطلبة للتسجيل مع الدكتور سعد الله، فرأى أنه ينوء بحمل كل هذه الأبحاث، وكنت من بين الأوائل الذين قبل الأستاذ الإشراف عليهم وتأطيرهم، فكان أول ما سألني: ما اسمك؟ ، قلت له: **بلغيث محمد الأمين فقال لي من هذا اليوم أنت اسمك محمد الأمين بلغيث**، لأن العرب يبدأون بالخصوص وينتهون عند العموم المشترك بين الأفراد في العائلة الواحدة، ثم قال: هل تعرف أبو الغيث القشاش، أو بلغيث القشاش، قلت أنا لا أعرف عالمًا أو علمًا بهذا الاسم، وتركني لحالي، ثم قال ابحث عن **حياة وآثار الجنرال يوسف**، فتوكلت على الله سبحانه وتعالى، وكان رفيقي المتزن والهادئ في البحث، هو **يوسف مناصرية**، الذي يشتغل على كتب بول آزان [**Paul Azan**][11] الخاصة بتاريخ الجيش الفرنسي زمن الاحتلال، فقد كنا لا نترك المكتبة الجامعية إلا أوقات الصلاة والأكل

في مطعم الحي الجامعي بشارع عميروش، أو باجي مسعودة، وبعد حوالي شهر من المحاولة وجدت أن معظم أو قل كل ما هو مكتوب عن الجنرال يوسف الذي يسميه سعد الله صراحة يوسف اللقيط مكتوب باللغة الفرنسية[12]، وكنت أولا قد عرفت مستواي الحقيقي في اللغة الفرنسية والأمر الثاني كنت أجد حرجًا كبيرًا في أن ترتبط حياتي بلقيط خائن، وفي أول فرصة طالب سعد الله رحمه الله من بعضنا التوجه إلى تخصصات أخرى نظرًا للعدد الكثير للذين رغبوا في التسجيل معه، فكنت من الأوائل الذين استجابوا لهذا النداء، لأنني في حقيقة الأمر لم أجد نفسي قادرًا على مواصلة العمل بهذه الفرنسية البسيطة التي لا تزيد عن **مستوى الماصوات** [البناؤون عندنا]، لهذا سيرتبط مصيري في التخصص الدقيق بالدراسات الأندلسية ومع المؤرخ الكبير عبد الحميد حاجيات حفظه الله.

الموقف الرابع: لقاء الباحث السعودي مازن صلاح مطبقاني:

هذا الموقف وقع لنا في حدود نهاية 1982م.

هذا الموقف شريكي فيه الأستاذ الباحث مسعود كواتي المتخصص في تاريخ الأقليات، واليهود بصفة أخص، كنا نمشي في بداية شارع الشهيد محمد العربي بن مهيدي بالجزائر العاصمة، في الاتجاه نحو مكتبة العالم الثالث، ومكتبة النهضة لميموني عبد القادر، ودار الكتاب، فإذا بنا نشاهد الدكتور سعد الله، وهذا طبعًا بعد حوالي شهر من تسجيل أبحاثنا مع الدكتور عبد الحميد حاجيات، فذهبنا إليه مباشرة، فوجدنا معه شخصية مشرقية، فقلنا له نساعدك يا أستاذ فرفض بإصرار فقلنا له معًا يا أستاذنا نساعدك فقط لأنك أولا لست مشرفنا ولن تناقشنا مستقبلا، وهذه طبيعة خاصة في الدكتور سعد الله، فهو لا يكلف طلابه بحمل حقيبته حتى لا يحسسهم أنه يستغلهم كبعض الأساتذة غفر الله لهم، وحينما وصلته الرسالة وفهم المنطلق قال: ساعدا الأستاذ، وتوجهنا رأسًا لحمل معظم أثقال الضيف المشرقي، وجلسنا نتبادل الحديث مع الدكتور سعد الله، وعرفنا بضيفه الكريم فقال هذا باحث سعودي، اسمه **مازن صلاح مطبقاني**[13] وأعجبت الدكتور سعد الله صراحتنا وبقينا معهما لوقت قصير للتعارف ببهو **نزل ألبير الأول**، بالجزائر العاصمة، ثم غادرنا المكان، ومنذ ذلك الحين تتبعنا نشاط هذا الباحث السعودي، الذي كلمته وعزيته في رحيل شيخ المؤرخين صباح اليوم الثاني من شهر يناير للعام الجديد **2014** ووعدني بإرسال صور ضوئية لمراسلاته مع شيخ المؤرخين لإتمام المشروع الذي اتفقت فيه مع واحد من أصفياء المغفور له بإذن الله شيخ المؤرخين وقدوة الباحثين أبو القاسم سعد الله طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه، من أجل نشر رسائله إلى أحبابه[14].

الموقف الخامس: المؤتمر الدولي الأول للحضارة الإسلامية بتلمسان:

حدث هذا الموقف في شهر ماي من عام 1987م، حيث نظمت وزارة الثقافة مؤتمرًا دوليا كبيرًا تحت عنوان الحضارة الإسلامية بمدينة تلمسان عاصمة الزيانيين، وكنت قد أتممت رسالتي للماجستير منذ مدة طويلة وانتظرت موعد المناقشة، فجاءت فرصة التقاء أعضاء اللجنة بتلمسان وهم: الأستاذ إبراهيم فخار من جامعة وهران، الأستاذ المشرف عبد الحميد حاجيات، الأستاذ محمد الصالح مرمول من جامعة قسنطينة، والدكتور موسى لقبال من العاصمة، فكنت أسعى من أجل اتفاقهم النهائي على موعد واحد للمناقشة، وأثناء تحركي بسرعة بين الأساتذة اصطدمت بواجهة زجاجية داخلية ليلا بفندق الزيانيين، فجرح الزجاج خاصري الأيسر، وشجَّ رأسي فكان أول من حملني إلى كرسي لإسعافي عند مقصف الفندق هو شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله، فطلب من النادل كحولا، فجاءه بزجاجة، وبدأ يضمد جرحي بما في الزجاجة من كحول ثم سأله فجاءة ما هذا قال له" **يا الشيخ هذا ويسكي**"، سلمه الزجاجة، وقال شيخ المؤرخين بنرفزة، هل تعلم أن هذا الإنسان الموجود أمامي لم يذق في حياته خمرًا فتقوم بإسعافه بزجاجة خمر، فاعتذر النادل، وهو يتعجب من هذا السلوك الذي رآه غريبًا، ثم حملني زميلي مسعود كواتي بمساعدة سعد الله إلى سيارة سياحية من أجل الكشف علي وحقني بحقنة مسكنة ومذهبة للخوف كما قالوا[15]، ثم عدت بعد ساعة من زمن من مستشفى تلمسان، وتناولنا طعام العشاء، ثم برمجت وزارة الثقافة والسياحة ليلة موسيقية أندلسية، وصادف وجود فرقة تونسية فولكلورية،

فتمتع جمهور الأساتذة والمؤرخين **برقصة القَلَّة**، وكانت الراقصة فاتنة، فلما بدأت وصلتها رأيت وجوم معظم الأساتذة أما شيخ المؤرخين فقد انسحب من هذا المشهد الخادش للحياء، دون أن يلتفت إليه أحد، ثم خرجت بعده إلى غرفتي من شدة الألم، ولن أنسى هذا الموقف أبدًا وعلى الخصوص ثقته في أن هذا العبد الضعيف كاتب هذه المواقف لم تعرف الخمرة طريقًا إلى فمه، فانزعج شيخ المؤرخين أن يتذوقها جسمه عن طريق الأوردة المجروحة.

الموقف السادس: دور المركز الوطني للدراسات والبحث في النشاط العلمي:

عرفت نهاية تسعينيات القرن الماضي نشاطًا معتبرًا مع تأسيس المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر **1954**م، ووزارة المجاهدين وعلى الخصوص في عهد الوزير السابق الأمين العام الحالي لمنظمة المجاهدين السيد **السعيد عبادو**، فكان ملتقى اتحاد المؤرخين بعين صالح مشهودًا وهذا بحضور عينة نوعية من الشخصيات والإطارات والمؤرخين الشباب، وفي هذا الملتقى قدمت مداخلة نوعية ولا أزكي نفسي على الله "والله أعلم بمن اتقى" وكانت المداخلة بعنوان" **نماذج من سياسة فرنسا للتوغل في الجنوب الغربي الجزائري وبلاد السنغال، من خلال فتوى قورارة 22 جوان 1893م** وهذه مداخلة قدمتها في الملتقى الوطني الذي نظمه اتحاد المؤرخين الجزائريين بالتعاون مع المركز ووزارة المجاهدين بمدينة عين صالح ولاية تمنراست بين 21-23 ديسمبر 1997م. ثم نشرت المداخلة بالعدد الرابع من مجلة المصادر، ولما أخبرني الدكتور يوسف مناصرية بسفره القريب لزيارة الدكتور سعد الله بالأردن، أرسلت معه هدية إلى شيخ المؤرخين تتمثل في مجموعة مجلات وكتب تصورت أنها مقدمة لإعادة مد الجسور مع شيخ المؤرخين بعد طول غربة بالولايات المتحدة الأمريكية، وبعد عودة يوسف مناصرية حمل إلي رسالة ثمينة هي إجابة عن كل ما بثثته في رسالتي إلى شيخ المؤرخين، فكان مما جاء فيها[16].

الأستاذ المحترم محمد الأمين بلغيث أبقاه الله ورعاه، وبعد

فقد سعدت بالرسالة التي حملها إلى **الابن البار يوسف مناصرية**، وسعدت بما جاء فيها من أخبار شخصية وعلمية، وكان سروري عظيمًا عندما اكتشفت أنك تشد طريق البحث والتنقيب في الأرشيفات والوثائق الوطنية والأجنبية، فبلادنا في حاجة ماسة إلى أمثالك من الذين يعملون ويبحثون ويوصلون المعرفة إلى الجيل، بل الأجيال الصاعدة التي تتلاعب بها الزعانف الذين لا ذمة لهم ولا عهد. وقد ذكرتم شيئًا عن الفتوى التي سعى [جول كامبون] إلى إذاعتها عن طريق [كورتلمون جيرفي] كما أذاع بوجو الفتوى التي حصل عليها-كما قال-من مشايخ بعض الزوايا، وجامع القيروان والأزهر والحرمين الشريفين، وقد تحصلت على نسخة من رحلة[كورتلمون] إلى الحجاز، وكان كتاب **ديبون وكوبولاني** قد نشر خلاصة هذه الفتوى، ولكني لم أطلع عليها [في نصها العربي] [17] فإذا كان لا يزعجك فإني سأكون ممنونًا أن تطلعني على نسخة منها.

أظن أن إبراهيم سراج كان شاعرًا أيضًا، وأذكر إذا لم تخني الذاكرة أنه قرظ كتاب [أقوم المسالك] لخير الدين التونسي، وقد أشرت إلى ذلك في دراسة قصيرة عن أثر هذا الكتاب في الجزائر، وهي منشورة في أبحاث وآراء [ج3، أو ج4] [18] لكني لم أطلع على حياته في الجزائر والشرق، ودوره، لماذا لا تكتب أنت عنه دراسة تعريفية [19]، سيما إذا كانت حياته تهم الجزائر بالخصوص، ولعلك فعلت ذلك في **كتابك تاريخ الجزائر المعاصر**.

لا شك أن الاقتراب من التاريخ المعاصر تجعلك أكثر حيوية من الناحية الفكرية، ذلك أن أفكاره ونظرياته ما تزال غير مستقرة، ولذلك يمكن "**للجميع**"[20] أن يدلوا بدولهم فيه بخلاف الإسلامي[الوسيط]والمغاربي خاصة، ومهما كان الأمر فإن كل التاريخ مفيد وفيه عبرة ولذة وحكمة.. . إذا كان لي أن أنصحك بشي فهو أن تكتب من وحي ذاتك وبوحي ضميرك ولا تنقد للدعوات والمشاركات "**الإخوانية**" فهي أبعد ما تكون عن البحث العلمي المجرد من الأهواء، وحاشاك من ذلك. مرة أخرى تمنياتي لك بالتوفيق، ولعل الأخ مناصرية سيذكر لك طرفًا من حالي وحالتي، عصمنا

الله من الخطأ والزلل، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

[أبو القاسم سعد الله] [21] 27 ذي الحجة 1420هـ/2 أفريل 2000م

غادر الدكتور سعد الله الجزائر بعيد الأحداث المؤلمة التي عرفتها خلال ما اصطلح هو على تسميتها بزمن الفتنة، وبالمناسبة فمواقف سعد الله مما وقع للجزائر من 1992 إلى غاية المصالحة الوطنية واضحة كل الوضوح في "**مسار قلم الجزء السادس**" ولا يخفي موقفه مما يقع للبلاد وهو في أمريكا دون خوف أو مواربة، وصراحته ونزاهته وحرصه على الحق جلبت له المتاعب من السلطة السياسية العليا في الجزائر، وهذا موضوع طويل كتب فيه بعض أصفيائه [22].

وبعد ألم الغربة، عاد من جديد إلى محيطه العربي والإسلامي، حيث تعاقد مع جامعة آل البيت لمدة سبع سنوات كاملة حقق فيها المزيد من السمو الأخلاقي والتواضع، والمساهمة العلمية في الأردن، كما استقيناها من رفيقه المؤرخ ناصر الدين سعيدوني[23]، وبعد عودته إلى الجزائر مباشرة، أقام لنا وليمة وجلسة شاي رائعة حضرها من السادة العبد الضعيف [محمد الأمين بلغيث] كاتب هذه الوقفات[24]، والأستاذ مسعود كواتي، الأستاذ المغفور له بإذن الله إبراهيم مياسي والأستاذ مديني بشير وربما الأستاذ سيدي موسى محمد الشريف، والدكتور أحمد حمدي، المدير الثاني للمركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م[25]. فكان الجو رائعًا بفرحتنا بعودة شيخ المؤرخين الجزائريين، وهنا يبدأ الموقف السادس مع المؤرخ النزيه، فبعد أن أكلنا وشربنا، وتبادلنا الحديث، حدثناه عن التاريخ والمنهج، فأخذ الكلمة وقال إذا كان لي أن أنصحكم هو الكتابة بموضوعية، بعيدًا عن الانتصار للنفس والخطب السياسية العاطفية كجيل الحركة الوطنية، وكنت قد أعددت هدية لأستاذي ردًا على ما طلب مني في رسالته الموجودة أعلاه، فقلت له أنا شخصيا حينما أحس بأنني بدأت أحب الحياة العصرية، والتبرجز [من البورجوازية] أو أنسى فرنسا، أم الشرور كلها[26]، أفتح خزانتي فأبدأ في قراءة متون الدكتور سعد الله، خاصة الجزء الرابع من أبحاث وآراء، وأستثني من كتبه القسم الخاص بالدكتوراه باللغة الفرنسية، فإنني حينما أقرأ الحركة الوطنية أحس بالنار تحرق فؤادي، وبصورة أخص قلت له حينما أقرأ دراستكم المترجمة عن آداب الأقدام السوداء وبطلهم الكاريكاتوري كاقايوس [cagayous][27]، [إذ من الواجب على كل جزائري أن يطالع هذا البحث لكي يعرف كيف كانت "الثقافة الشعبية الاستعمارية تعامل آباءنا وأجدادنا، ونعرف من خلال هذا الأدب الساخر وأهم مصادره هي القصص الرخيصة ذات التوزيع الجماهيري الواسع، وهي المسماة روايات زوج سوردي]"، نظرًا للطريقة التي تصورون بها فرنسا الاستعمارية وما فعلت بأسلافنا، ثم قلت له هذا هو ما طلبت مني منذ مدة قليلة في رسالتكم التي جاء بها مناصرية فقلت له: هذه دراسة هادئة كما طلبت منا وقدمت له بحثًا متكاملا مستفيضًا عن الحركة السنوسية وهي عبارة عن دراسة وترجمة لوثيقة أصلية حول مراقبة الطرق الصوفية والحركة السنوسية في الجزائر تحديدًا وأما الثانية، فهي ما طلبت مني في رسالتكم الأخيرة من الأردن حول النص العربي لفتوى قورارة الشهيرة المؤرخة بتاريخ 22 جوان 1893م[28]. ثم طلب في نهاية الحديث من الدكتور حمدي العنوان الإلكتروني للمركز، فقال له بفرنسية سين أش، نون وأخيرًا ختمها بشعار الجزائر العالمي، نقطة دز [DZ] فقال له شيخ المؤرخين بدعابة عفوية. [هاذيك دز معاهم كلنا نعرفوها]. وغادرنا المجلس الطيب لشيخ المؤرخين وهي ثالث مرة على ما أذكر أدخل بيته بحي [les asphodèles] ليزاسفودال ببن عكنون [بالجزائر العاصمة] [29].

الموقف السابع: قصة تحلية المؤرخ "أبو القاسم سعد الله بشيخ المؤرخين الجزائريين":

يعود الفضل إلى تنبيهي إلى أهمية تسجيل هذه المواقف مع شيخ المؤرخين الجزائريين الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعدالله إلى زميلي **الأستاذ محمد رحاي** من جامعة سكيكدة الذي يحضر أطروحة دكتوراه بإشراف الأستاذ عبد الكريم بوصفصاف، ومن ضمن محاور أطروحته خصص بابًا كاملا للحديث عن سعد الله المؤرخ، فقال لي يوم التقيته بسكيكدة: [يوم الجمعة **27** ديسمبر **2013م**] لماذا لا تكتب مواقفك الشخصية مع الدكتور سعد الله شيخ المؤرخين الجزائريين، لأنني أحتاج إلى معرفة الجانب الإنساني في حياة سعد الله، فقلت له: لمن أراد أن يعرف أدق تفاصيل حياة سعد الله الباحث والشاعر

والإنسان والوطني الصادق فعليه أن يقرأ "**موسوعة لسان قلم**" **[اليوميات]** التي تشرف الآن على صدور الجزء السابع منها، ثم التقيت الباحث الخلوق **لحسن بن علجية**[30] في المعرض الوطني للكتاب يوم تكريم الشيخ **محمد الصالح الصديق**، فقال لي: هل تذكر إنك الوحيد الذي استمع إليه وهو يقرن تحلية اسم سعد الله **بشيخ المؤرخين الجزائريين**، ثم سألت أصحابي، مسعود كواتي، بشير مديني، فأكدوا لي هده النسبة، والحقيقة التي لا أنساها أنني كنت أسمع منذ عام 1980 الأستاذ الدكتور موسى لقبال رحمه الله إذا حدثنا عن تونس يقول وجاء في **خلاصة تاريخ تونس لأستاذ الجيل حسن حسني عبد الوهاب**، يرددها بحنية خالصة، رغم تحفظي من شخصية أستاذ الجيل هذا وهو قامة عالية في الدراسات التاريخية في الإذاعة التونسية، وغيرها من المؤسسات[31].

ومنذ ذلك الزمن، وأنا في ذهني مكانة روحية عالية للدور الذي يقوم به المؤرخ النزيه سعد الله فبدأت تحليته بهذه الصفة بداية من **1997**م، ولم تجد الكلمة صداها بشكل كبير إلا أثناء رحيله عن هذه الدنيا الفانية، وأول نص مكتوب فيه ارتباط اسم المؤرخ النزيه بتحلية شيخ المؤرخين تعود إلى كتابي "**تاريخ الجزائر المعاصر**"، الذي طبع عام **2001**م بدار البلاغ الجزائرية، ودار ابن كثير البيروتية، ومقدمة الكتاب الأولى مؤرخة في الجزائر، يوم الجمعة 17 رمضان **1421**هـ/ الموافق لـ **13** ديسمبر **2000**م. ثم أهديت كتابي حول المؤرخ محمد بن عمر العدواني كما يلي" إلى شيخ المؤرخين الدكتور أبو القاسم سعد الله أُهدي هذا الكتاب المتواضع" وطبع الكتاب في مارس **2002**م/ 1423هـ، كما ظهر الإهداء في الطبعة الجديدة من كتابي الشيخ محمد بن عمر العدواني مؤرخ سوف والطريقة الشابية، ووقع تغيير بسيط في الإهداء وهو: "**إلى شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله أُهدي هذا الكتاب عربون تواصل بين جيلكم المؤسس وجيلنا الطموح للسير على الدرب السليم**"، طبع الكتاب طبعة راقية بدار كتاب الغد بجيجل لصاحبها الفاضل **الأستاذ محمود ميراجي**، كما ظهرت التحلية في دراستي في الكتاب التكريمي الذي أصدره مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، ولم أجد من حلاه بهذه التحلية، والله شاهد على ما أقول، وسعد الله أهل لكل خير لأنه من بنى للجزائر هذه الأهرامات الخالدة، تاريخ الجزائر الثقافي، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، وعشرات الكتب المحققة والمترجمة إضافة إلى إبداعاته منذ بدأ يكتب القصيدة الحرة بتونس عام 1947م. هذا التحلية مع وصف فرنسا[يمغول القرن التاسع عشر والقرن العشرين] لصيقة بي في أعمالي وحصصي الإذاعية، ولن أتركها حتى ألقى الله سبحانه وتعالى وأنا أقول أن المواطن رقم واحد في هذه البلاد من أيام إنسان تيعنيف، أي من عشرة ألاف سنة قبل الميلاد إلى إنسان الطاسيلي **وجدتهم الخرافية تينهينان** إلى اليوم، هو المواطن المؤرخ النزيه الذي حبب لنا الجزائر وكره لنا العودة إلى الجاهلية، مهما كان زخرفها هو مؤرخ الأجيال كما قال صديقي المرحوم إبراهيم مياسي وشيخ المؤرخين، وقدوة الباحثين الدكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه، وجعل قبره روضة من رياض الجنة امتدادها على امتداد بصره يوم كان شابًّا يافعًا.

الموقف الثامن: في ملتقى مؤرخ سوف مانعة الهارب الشيخ محمد بن عمر العدواني:

يعود هذا الموقف إلى عام **1999**م، فقد ذهبنا كعادتنا في عطلة الشتاء إلى بلدة الزقم ببلدية حساني عبد الكريم بوادي سوف، وكنت إلى جانب الدكتور إبراهيم لونيسي فحدثني عن رسائله إلى شيخ المؤرخين إلى الأردن، وأنه قد وصلته في هذا الأسبوع رسالة هامة فكان يحدثني بشوق كيف كان ينقل للدكتور وهو في غربته بأمريكا أو الأردن أخبار الجزائر في رسائل خطية، وفعلا أشار الدكتور سعد الله إلى جانب من هذه الرسائل مرة بالإشارة، ومرات أخرى بذكر أصحابها[32] كنا نتذكر شيخ المؤرخين، ثم ذهبنا إلى رمال قمار وجربنا صعود هذا الجبال الكبيرة من الرمال الناعمة فقال لي لونيسي، هنا كان يلعب سعد الله في أيام طفولته وشبابه، ثم قال سأذكر شيئًا للدكتور عن زيارتنا هذه إلى قمار وسأذكر له تحديدًا من كان معي في لعبة الصعود والهبوط في تلال ورمال قمار الناعمة. ثم اقترح علينا الأستاذ مسعود كواتي والأستاذ مديني بشير زيارة قمار، بلدة شيخ المؤرخين وآل سعد الله، الأول لزيارة شقيقته، والثاني ليلقي نظرة على أهله وخاصة خاله أستاذ الفلسفة الذي

نعرفه جمعًيا من كثرة زيارتنا إلى قمار، وفي أحيان أخرى كنا نزور الأستاذ الفاضل الذي حببه لنا الدكتور سعد الله خِلَّهٌ الوفي الشاعر الأديب الموسوعي محمد الطاهر التليلي [33].

لقد كان يقرأ لنا بعض أعماله، كما كان يستشيره في كثير من غرائب المصطلحات وأسماء أعلام وهو يحقق تاريخ الشيخ محمد بن عمر العدواني [34]، ثم عدنا إلى ديارنا بعد هذا الملتقى الخاص بالشيخ محمد بن عمر العدواني، وبالمناسبة فشيخ المؤرخين لا يحبذ هذه المشاركات الإخوانية [35].

الموقف التاسع: سعد اللهِ الإنسان... وقصة إرسال نسخة من أطروحتي للدكتوراه إلى تلمسان:

يعود هذا الموقف إلى شهر ديسمبر **2002**م، حينما جئت إلى المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، لأقدم النسخة النهائية من أطروحة الدكتوراه إلى الأستاذ الدكتور **عبد المجيد بوجلة** ليحملها إلى تلمسان ومن هناك إلى أستاذي **الخلوق الفاضل عبد الحميد حاجيات**، ولما اقترب شيخ المؤرخين مني ليسلم علي في مكتب الكاتبات بالمركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، سقط المجلد الأول فقال سعد الله رحمه الله: وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا [36].

ثم قام الشيخ المتواضع برفع الجزء الذي سقط أرضًا وطلب ورقًا من الكاتبة، ثم ساعدني في لفه وتسليمه إلى الأستاذ بوجلة، فحمل المجلدين معه إلى تلمسان.

الموقف العاشر: أستاذ فامم ياسر [37] يسخر مني بعد مناقشة الدكتوراه:

ناقشت أطروحة الدكتوراه يوم 15 ماي 2003م، وأكون بذلك ثالث ثلاثة من دفعتنا الذين ناقشوا تباعًا، الأول يوسف مناصرية الذي ناقش في يوم شديد البرودة، وهو الطالب الذي أشهد أمام الله أن شيخ المؤرخين سعد الله كان ينعته بصدق بالابن البار، وكان طالبًا متواضعًا فكوَّنه سعد الله تكوينًا لم أعرف أن أحدًا من الخلق قد قام به حتى مع أخلص أبنائه من صلبه، وأشهد أن الموقف الذي رأيته بأم عيني يوم المناقشة يدل على هذا الود والحب، فقد ذرف سعد الله دموعًا من أجل هذا الطالب الباحث يوم مناقشته للدكتوراه.

أما الباحث الثاني من دفعتنا فهي الدكتورة عائشة غطاس فقيدة البحث العلمي كما نعتها الدكتور سعد الله على صفحات جريدة الشروق اليومي يوم تم اغتيالها ببرودة أعصاب من طرف أحد جيرانها في 10 ماي 2011م. وكنت ثالث ثلاثة يناقش أطروحته للدكتوراه بعد أقل من سنة من أصحابي في المعاصر والحديث.

أتذكر جيدًا هذا الموقف، بعد مناقشتي لأطروحة الدكتوراه طلب مني زميلي مسعود كواتي رئيس قسم التاريخ بجامعة الجزائر، معاونته في تأطير الدراسات العليا، تخصص التاريخ الإسلامي الوسيط، وكنت قد ترقيت إلى رتبة أستاذ محاضر مرسم في دورة اللجنة الوطنية الجامعية في شهر جويلية **2003**م. وتكونت لجنة متابعة الإعداد للمسابقة في قسم التاريخ من أستاذ كرسي التاريخ الإسلامي موسى لقبال، والدكتور سعد الله شيخ المؤرخين والعبد الضعيف صاحب هذه المواقف إضافة إلى الأستاذين صابر الشريف، والأستاذ حارش محمد الهادي، الدكتور رحماني، وأشهد على نزاهتهم في هذه المسابقة، وفي صبيحة يوم من الأيام ونحن ندون قائمة الطلبة الذين دخلوا المسابقة، دخل أستاذ من الجيل الثاني، يحسب نفسه شيئًا كبيرًا، فصافحنا بعد أن سلم علينا وكنت أكتب والدكتور سعد الله يملي علي الأسماء بهدوء ورزانة، ثم قال **الدكتور الفاهم ياسر**، يا أستاذ سعد الله بلغيث أصبح دكتورًا، قال له سعد الله بانفعال، بلغيث دكتور من زمان، وتركه جانبًا وقال لي أكتب يا أستاذ، فخاب مسعاه ورجع خائبًا من نكتته البائخة.

الموقف الحادي عشر: شيخ المؤرخين الدكتور أبو القاسم سعد الله القارئ الأبدي:

وبعد حوالي ثلاثة أشهر ونصف من هذا الموقف لَبَّينَا دعوة مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية بجامعة منتوري، بقسنطينة من أجل المشاركة في أعمال الندوة التكريمية التي أقامها المخبر للدكتور سعد الله، تحت عنوان هام "الأعمال التاريخية والأدبية والفكرية للدكتور أبي القاسم سعد الله في ميزان الباحثين الجامعيين يومي 12 و13 يناير/جانفي

2004م"، وبالمناسبة وحتى لا تفوت الفرصة فندونها بعد أن كانت تتداولها الألسن شفويا أن طلبة سعد الله الذين حضروا الندوة، الأول طالبه وصفيه **الدكتور إبراهيم لونيسي**، وطالبه الأول من أيام الدفعة الأولى للماجستير رغم أنه لم يشرف على أعماله هو العبد الضعيف[محمد الأمين بلغيث]، ففي اليوم الثاني أعتقد أنه اليوم الموعود لأقدم مداخلتي الموسومة بـ"**أبو القاسم سعد الله محقق التراث الجزائري، عيِّنَة من التراث الجزائري**"[38] وفي حضرة المحتفى به، نهضت باكرًا كعادتي هيأت نفسي، أديت صلاتي، وكانت الساعة السادسة والنصف صباحًا قلت في نفسي هذا موعد الإفطار قد بدأ في نزل بانوراميك بقسنطينة، فنزلت الهوينى، فوجدت شخصًا واحدًا منعزلا يتناول إفطاره، فإذا به شيخ المؤرخين الدكتور أبو القاسم سعد الله فألقيت عليه تحية الإسلام، واستأذنته في مشاركته هذه الطاولة فرحب بي، وجلسنا مدة طويلة، تحدثنا فيها عن عديد القضايا، ثم نهضنا، ونحن في طريقنا إلى غرفنا بالنزل، قلت له بالمناسبة يا أستاذ نكمل حديثنا في غرفتكم، **قال لي لا يا سي بلغيث أنا ذاهب لأقرأ، فقلت له على سبيل النكتة وبدارجة جزائرية، نعم صحيح أنت تعرف أنني ختمت القراية [إشارة إلى مناقشتي للدكتوراه في شهر ماي 2003م]، أما أنت فلا تزال صغيرًا أقرأ على روحك؟** فتبسم وشدني من يدي وقال تعالى انظر إلى الطبعة الجديدة التي وصلتني من دار **الغرب** الإسلامي لمجلة البصائر، فجلسنا مدة وتركته يلمل أشياءه في انتظار موعد السيارات التي ستنقلنا إلى قاعة المحاضرات.

الموقف الثاني عشر: سفري إلى وهران وقصة كتاب خارج السرب:

أتذكر أيضًا أنه بعد عودتنا من قسنطينة بعد الأيام التكريمية التي أقامها مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، كنت أشاهد سعد الله من بعيد، ولكن أغلب الأوقات كنا نسلم عليه في المركز وللشهادة والأمانة ففي السنوات الأخيرة بعد عودته من الأردن، كنا نشاهد سعد الله مواظبا على مكتبه بالمركز الوطني بالأبيار [الجزائر العاصمة]، وهذه خصلة وسلوك حضاري يشكر القائمون عليها، كما خصصوا له كل وسائل الراحة لإنجاز أعماله ومنها على ما أعتقد التاريخ الثقافي للثورة الجزائرية المباركة [1962/1954م]، ومشروعه الذي أعلن عنه مرارًا وهو كتابة تاريخ الجزائر الثقافي من الفتح الإسلامي إلى غاية نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، وقد بلغني أنه أكمل عمله وسلمه إلى يد أمينة، وهو ما أشار إليه صاحب دار المعرفة، يوم الثلاثاء 17 ديسمبر **2013**م في تأبينية الشروق الجزائرية. ، كما قال أن أعماله الكاملة ستظهر بإذن الله في 63 مجلدًا بعدد سني حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. كما وجد سندًا قويّا من الشاب الخلوق مراد وزناجي الذي قال يوم تأبينه: لم يكن سعد الله عندي أستاذًا فقط، بل عوضني غياب وموت والدي، بل قال كنت أحسب نفسي خادمه، ولهذا فاز هذا الشاب بكل مكنونات شيخ المؤرخين، فحاوره في أدق تفاصيل أعماله وحياته، كان بالإمكان أن يتحول هذا العمل والاجتهاد إلى حوار معرفي شامل، لو حسنت النيات ولكن قضاء الله وقدره، أسبق من كل الأمنيات، وذهب سعد الله إلى ربه يشكو ظلم الخصوم الذين ضيقوا على مؤرخ كبير، وأفسدوا مسار بلد عملاق كالجزائر، قلت عدت بعد هذا الاستطراد، وأثناء استعدادي لمغادرة العاصمة في نهاية شهر جوان 2004م للمشاركة في مناقشة رسالة ماجستير، أو أطروحة دكتوراه بمدينة الباهية، وهران هتف لي شيخ المؤرخين ليلا، وقال لي: **يا سي بلغيث**، بلغني أنك مسافر إلى وهران، وعندي أمانة عند إنسان في وهران، فقلت له أنا سأقيم في فندق بوسط المدينة، وبعد وصولي بساعة تقريبًا جاءني شخص لم يسبق أن عرفته، وسلمني ظرفًا كبيرًا مكتوب عليه **خارج السرب**، تأليف الدكتور أبو القاسم سعد الله، يبدو أنه نسخة أخيرة[بروفة]للتصحيح النهائي جاءت من الناشر الأستاذ الحبيب اللمسي صاحب دار الغرب الإسلامي ببيروت[39].

ولما عدت إلى العاصمة سلمت الأمانة إلى صاحبها بالمركز الوطني بالأبيار، فشكرني بأدب جم كعادته.

الموقف الثالث عشر: هدية متواضعة إلى شيخ المؤرخين الجزائريين:

أول كتاب أهديته بيدي إلى شيخ المؤرخين هو الطبعة الأولى لكتابي الشيخ محمد بن عمر العدواني مؤرخ سوف والطريقة الشابية، الذي طبعته دار أنتير سينيي، في مارس

2002م، وأعتذرت له عن رداءة الطبعة، وضعه في حقيبته ولم أسمع تعليقًا، ثم جاءت الطبعة البيروتية لكتابي تاريخ الجزائر الذي أعتز به كل الاعتزاز[40]، فاخترت نسخة قشيبة، وكتبت الإهداء إلى شيخ المؤرخين وكنا في حضرته بالمركز الوطني للبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 بالأبيار بالجزائر العاصمة، وقلت له وأنا أقترب من أذنه، أهديك هذا الكتاب العزيز عليَّ، ولكن إذا وجدتني سرقت الكثير من غيري ومنكم تحديدًا فلا تقل للناس[قلتها بالدارجة الجزائرية ما تَبَيَّعش]، قال بعد ابتسامة عريضة، **يا سي بلغيث** كلنا نأخذ من هنا وهناك ولكن إياك أن يعرف الناس تجاوزك لحدود السرقة[والفاهم يفهم]، فكانت علامة الرضا بادية عليه وهو يتصفح الكتاب، أو هكذا ظهر الأمر لي وأنا أهدي إلى المؤرخ النزيه أغلى ما وصل إليه اجتهادي. [أظن أن هذا الموقف حدث في حدود **2003**م] بعد عودته من الأردن وكان قبل هذا قد سألني هل وصل كتابك تاريخ الجزائر المعاصر من بيروت، لأن البعض من الجزائريين قد تمكنوا من اقتناء الكتاب من سوريا أو لبنان قبل أن يصل إلى الجزائر. وللأمانة معظم كتبي التي طبعتها بداية من 2006م، أرسلت نسخًا منها إلى شيخ المؤرخين عن طريق الدكتور **إبراهيم مياسي** رحمه الله [41].

الموقف الرابع عشر: ملتقى عقبة بن نافع رضي الله عنه:

حضرنا الملتقى الوطني الخامس [بسكرة عبر العصور]، أيام 11، 12، 13 ديسمبر 2006م، بالمركب الإسلامي بسيدي عقبة، وكان الدكتور شيخ المؤرخين من الحضور البارزين، وكانت اللجنة العلمية للملتقى قد أجمعت على تكريم الدكتور موسى لقبال رحمه الله، وكان الحضور من مختلف البلدان العربية من لبنان والمملكة العربية السعودية وتونس وليبيا، والجزائر طبعًا، ويبدو أن مستوى الملتقى لم يرق للأستاذ سعد الله، وهو ما عبر عنه صراحة في كلمته، وللأمانة أنا من أشرف على الجلسة الختامية للملتقى، وحدث أن وقع تغيير في التكريمات فبدلاً من تكريم الدكتور لقبال، استقبلوا شيخ المؤرخين بما يليق به بحفاوة ظاهرة أثارت حفيظة مؤرخ الجيل الأستاذ الدكتور موسى لقبال[42]، فكان شيخ المؤرخين يجهل أسباب توتر الدكتور موسى لقبال، وطلب مني أعضاء الجمعية الخلدونية أن أتوسط لدى شيخ المؤرخين ليقول كلمة بالمناسبة، مناسبة التكريم، وبمناسبة اختتام الملتقى، الخاص بعقبة بن نافع رضي الله عنه.

قبل شيخ المؤرخين الأمر مكرهًا لحساسية الموضوع، وكلمته كلها واضحة في أنه لم يرض عن المداخلات التي قدمت في هذه الجلسة تمامًا، لكن للأمانة حضر شيخ المؤرخين الجلسة المسائية التي تداول على منصتها مجموعة من الباحثين ورأينا تململا من الدكتور سعد الله، [وقد ذكر لي أحدهم تبرم شيخ المؤرخين من جل المداخلات إلا مداخلتي أنا العبد الضعيف ومداخلة الدكتور مراد اليعقوبي التونسي، وقال كلامًا لا أعرف أن المؤرخ الخلوق يصدر منه]، والحقيقة للتاريخ أن شيخ المؤرخين يتعالى عن هذه المصطلحات، وقد أوردت هذا الموقف من شخصية كبيرة لا أملك إلا أن أصدقها ولكن ليس بهذه اللغة[43].

والحقيقة فعلا أن الأستاذ مراد اليعقوبي التونسي باحث متمكن من تخصصه، وباللغتين الفرنسية والعربية، تمكن من شد الحضور، بأسلوبه الجميل وبلغته العربية الجميلة، رغم أنه تخرج في جامعة السوربون، وناقش دكتوراه الدولة حول التاريخ الحربي لعصر النبي محمد ﷺ، أما العبد الضعيف فقد قدم مقاربة مقبولة حول شخصية **كسيلة بن لزم** الذي قاتل عقبة وقتل أصحابه في المعركة الشهيرة التي أدت إلى استشهاد من كان مع عقبة من الصحابة والتابعين ومن بينهم حليفه أبي المهاجر دينار.

الموقف الخامس عشر: قناة المستقلة اللندنية تصنع الخصومة بين الأقران:

هذا موقف تطول حيثياته، وتداخلت أسبابه، لهذا سأحكي وأتكلم عن الموقف ولن أنتصر لنفسي، أذكر أنه مع مطلع العام الجديد خلال سنتي **2007**م و**2008**م، اتصل بي الدكتور الهاشمي الحامدي، وقد زكاني بعض الصالحين عنده، للمشاركة في ندوة تبثها **قناة المستقلة اللندنية**، بمناسبة ما تعرض له النبي محمد صلى الله عليه وسلم بعد ظهور الرسوم الكاريكاتورية بأوروبا والسويد والنرويج خصوصًا، فكانت الحلقة الأولى حول هذا الموضوع" **لماذا نحبه**"، شارك فيها على المباشر وعن طريق الهاتف العبد

الضعيف[محمد الأمين بلغيث]، والأستاذ الدكتور عبد الرزاق قسوم. ومن المملكة العربية السعودية مدير **دار المنهاج**، وكانت الحلقة مقدمة أولى لاتصالات متعددة مع قنوات عديدة كقناة الجزيرة الوثائقية[44]، والحوار، وبعد مدة اتصلت بي سيدة إعلامية، تعيش في لندن، تخرجت من قسم الفلسفة بقسنطينة[عاصمة الشرق الجزائري] تدعى **دليلة راشي**، تقول أنها درست التاريخ على يد الدكتور **عبد الكريم بوصفصاف**، لتقول أنهم سطروا برنامجًا طويلا حول شخصية وآثار وجهاد الأمير عبد القادر، فقالت لي هل بإمكانك أن تقدم لنا الخطوط العريضة للبرنامج، وبالمناسبة، ذكرت لها أننا يجب أن نتفق أولا على أمور ثلاثة:

الأول: أنا من يعد الخطوط العريضة لحلقات الأمير عبد القادر

الثاني: يجب أن تلتزم القناة بدفع حقوقنا المادية والحفاظ على حقوقنا الأدبية

الثالث: أنا من أقترح المتحاورين، وإن بدى لكم الاستعانة بشخص غير الذي أقترحه على القناة، فعليكم أولا أن تخبروني بالأمر.

وفعلا التزمت القناة بكل هذه الشروط ما عدى حقوقنا المادية [45]

كانت الحلقات الأولى حول الأمير عبد القادر نوعًا ما بسيطة دارت بيني وبين الدكتور عبد اللطيف بالطيب[46]، ثم اقترحت على القناة اسم المؤرخ إبراهيم مياسي، فشاركنا في معظم حلقات الأمير، وفي نهاية الحلقات انضم إلينا الأستاذ والإعلامي المتميز بشير مديني، الذي كان وفيًّا لخط شيخ المؤرخين الجزائريين الدكتور أبو القاسم سعد الله ولم يتركني لوحدي ونحن نواجه التزييف والتزوير ولي الحقائق وبخس الناس أشياءهم، فكانت معركة كبيرة تُدار بين جيل شاب من المؤرخين الذين يقرؤون للخبير بمناهج الغرب، والعارف بخبايا أصحاب الذاكرة المقطوعة، وبين الذين لا يعلمون، ويزعجهم الذين يسجلون ويكتبون ويجتهدون، لأننا فهمنا من مناهج التاريخ عند سعد الله أن تاريخ حضارة ما يمثل الوحدة والاستمرارية عندها، وليس هناك قديم ووسيط وحديث في التاريخ إلا عند المتعلمين[47].

فكان الموقف الأول مع سعد الله شيخ المؤرخين الجزائريين، يتمثل في اتصال حرم الدكتور الهاشمي الحامدي التي طلبت مني هاتف المؤرخ الشخصي فكلمته من أجل الفصل في خلاف في المنهج والجوانب المعرفية بيني وبين خلدون مكي الحسني من دمشق، فقالت لي السيدة أن الدكتور المؤرخ وافق على المساهمة، وفي صبيحة يوم الحلقة، رن هاتفي المحمول وأنا أتناول قهوة الصباح، قال السلام عليكم أستاذ بلغيث، قلت: خيرًا إن شاء الله، قال بدعابة مشهورة عن شيخ المؤرخين: أنت تعرف يا أستاذ أنني من كبار السن ولا سلطان للنوم علينا، وليس كما هو حال الشباب اليوم، ثم قال لي: لخص لي ماذا تعرف عن أحمد باي، ثم ماذا قلت أو كتبت أنا شخصيا؟ فلخصت له عن ظهر قلب ما ذكر بالتفاصيل المملة عن أحمد باي، قال إذن أنت من يمثلني لدى **قناة المستقلة**، في هذا الموضوع وتحدث بهذا الكلام على لساني، إذا أحببت.

فشكرته، ثم قبل أن يتمم المكالمة، قال لي بالمناسبة لقد أرسلت إلى أخي علي وطلبت منه أن يبين لي قناة المستقلة في هذا **البرابول** [الهوائيات المقعرة] وقد فعل وأنا أسمعكم، فكانت هذه الكلمات جواز مرور لي ولأحبابي الذين يتحاورون مع الناس خاصة إذا كان البث مفتوحًا وعلى المباشر.

وفي المساء أخبرتني السيدة أن **الدكتور سعد الله** اعتذر عن التدخل نظرًا لظروفه الصحية، ولكن الحقيقة غير ذلك، لأن شيخ المؤرخين يتجنب وسائل الإعلام ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وبعد نهاية حلقات الأمير عبد القادر شرعنا في حلقات أخرى ومع أصحاب الكعب العالي من جيل الرواد ومحبي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وفي خضم هذا النجاح الإعلامي، ونظرًا لحساسية الأقران اجتمع البعض من الذين أزعجتهم حلقات قناة المستقلة اللندنية التي لم تتصل بهم، واتصلت بمؤرخ غير متخصص كما يقولون[48]، وكما يشيعونها عند مريديهم الذين لا يحسنون الأدب مع غيرهم.

التقى جمع من هؤلاء تحت وصاية إتحاد المؤرخين الجزائريين [49]، وكان شيخ المؤرخين لا يعلم ما يبرمج له أو **ما دبر بليل** من بعض "**الفراريج**" التي صاحت باكرًا وقبل الأوان كما قال أسلافنا عن ثورة الشيخ محمد المقراني رحمه الله، فروج صاح باكرًا من مجانة وبرج بوعريريج [50].

تكلم أحدهم وقال "**إن تاريخ الجزائر يّسَطَّحٌ عبر القنوات الأجنبيةٍ**"، وفهم شيخ المؤرخين الرسالة وقال لهم من العيب أن تذكروا **محمد الأمين بلغيث**، وهو غائب، وبلغيث كتب ما لم تكتبوا أنتم".

لا علينا الرواية واضحة وتدخل في حسد الأقران أو الحسَدَة كما يسميهم الإمام أبو بكر محمد بن العربي المعافري صاحب أحكام القرآن، وقانون التأويل، وتمت العملية وكنت في غفلة من أمري لأن السَّهم جاء من واحد اعتقدت فيه الخير، وبتواطؤ أو سكوت أحد رفاقي الأعزاء الذي شاركته في أفراحه وأطراحه، وبعد حوالي أسبوعين من الحادثة المشهودة بالمركز الوطني بالأبيار، ورغم اعتذارات الأمين العام لشيخ المؤرخين إلا أن سعد الله غضب لهذا الفعل غير الحضاري، ولكن أهم ما في هذا الموقف فإنني لما التقيت بشيخ المؤرخين بعد أسبوعين على مرور الحادثة قال لي: دون مقدمات "**ألم يقولوا لك أنني دافعت عنك**".

هذا موقف يغطي على كل مواقفي التي عشتها وسردتها بأمانة أمام التاريخ، ومنذ ذلك الحين، زاد تعلقي بمتون شيخ المؤرخين وبحثت عن العظمة في شخصية هذا العملاق الذي هوى ذات يوم من أيام الله تعالى تاركًا فراغًا مهولا بين أصفيائه وأحبابه ورجال المدرسة التاريخية الجزائرية.

الموقف السادس عشر: اللقاء الخالد وصراحة شيخ المؤرخين الجزائريين:

كنت على موعد يوم السبت 8 ديسمبر 2012م، مع الأستاذ بشير مديني، لما التقينا صعدنا إلى قسم التاريخ، ودخلنا مصلحة البحث العلمي فوجدنا شيخ المؤرخين مع طالبة من طلابه يقرأ ويصحح مذكرتها، لما دخلنا ترك ما كان يقرأ ورحب بنا ثم سألناه عن صحته فقال الحمد لله، وكان يبدو عليه الجهد والتعب وثقل السنوات، ثم مازحته أنا فقلت يا أستاذ أتممنا الجزء السادس من مسار قلم، ولم نجد أسماءنا، فقال مباشرة واقترب مني" هل تعرف يا سي بلغيث أن واحدًا من أبناء إخوتي قرأ أحد كتبي وحضر فهارسه، فلما طُبِع الكتاب لم يجد اسمه مع الذين ذكرتهم في المقدمة أعرض عني غاضبًا إلى اليوم.. . وأخذنا صورة تذكارية مع شيخ المؤرخين سوف تكون ملحقة في ألبوم الصور والمستندات بإذن الله[51].

الموقف السابع عشر: شيخ المؤرخين يودع الدنيا الفانية بالمستشفى العسكري:

بعين النعجة 11 صفر الخير1435هـ /14 ديسمبر 2013م:

لا أنسى هذا الموقف، وأعلم قارئ هذه المواقف أنني لم ألتق بشيخ المؤرخين منذ يوم السبت 8 ديسمبر **2012**م إلا عبر الهاتف، وكنت مع الدكتور محمد العربي معريش أول من رأى جثمانه الطاهر بعد أقرب المقربين له من أسرته، فقد دخلنا عليه بغرفة الانعاش، فنزعنا عنه الغطاء وقبله معريش أولا، ثم قبلته ثانيا ودعونا له المولى سبحانه وتعالى أن يتقبله في الصالحين، ثم أخذوه من جناح الانعاش إلى مصلحة حفظ الجثث وبقي هنالك إلى غاية إتمام الإجراءات الإدارية التي قام بها ابنه الوحيد أحمد في بلدية القبة، ثم سبقتنا سيارة الإسعاف إلى بيته دار الأردن، وهناك ألقى عليه أحبابه والمعزون النظرة الأخيرة وترحموا على روحه، وكان هذا آخر موقف مع شيخ المؤرخين رحمه الله.

لكن قبل موته وفي المرة الأولى لما بلغني دخوله إلى المستشفى أتممت أشغالي يوم الأحد 24 نوفمبر 2013م[52]، ورافقني **الدكتور محمد عبد الحليم بيشي** من كلية العلوم الإسلامية، إلى المستشفى ووجدنا صعوبة بالغة في الدخول إليه فقد منعونا وقالوا لنا ماذا يربطكم بالسيد سعد الله، ثم وصلنا أخيرًا إلى غاية السرير الذي غادره باكرًا، وكنت كل يوم أهاتفه، وهاتفه لا يرد، وقبل وفاته وبعد يومين سجلت حصة بالإذاعة الثقافية مع مرافقي مراد مسعودان، وتأخرنا إلى غاية التاسعة ليلا، فطلب مني مساعدته للوصول إلى حي شوفالييه، وحينما وصلت إلى **شارع العقيد بوقرة**، كلمني شيخ المؤرخين في الهاتف، وفهم مرافقي مراد[53] أن صاحب المكالمة من كنا نتحدث عن مساره العلمي دون أن نذكر أو

نعلم أنه كان بالمستشفى العسكري بعين النعجة وهذا للأمانة، والشريط موجود عندي، وترحمنا عليه حيًّا وميتًا وقلت لمرافقي أن الرحمة تجوز في الميت كما تجوز في الأحياء، **وقلت له يا أستاذ توحشناك**[54]، وأرغب في زيارتكم، فقال لي حتى أقول لك **يا سي بلغيث**، كلمني بالهاتف قبل الزيارة[55]، وبعد ذلك كلمت **محمد العربي معريش** فقال لي فعلا الدكتور في بيته ولكن يجد حرجًا أثناء زيارته فليس هناك في بيته من يقوم باستقبال ضيوفه، إلى أن هاتفني معريش صباحًا في حدود الثامنة والنصف من يوم السبت 14 ديسمبر 2013م، فقال لي عَظَّمَ الله أجركم في شيخنا الدكتور سعد الله، فأخذت سيارتي رأسًا من بيتي إلى المستشفى العسكري بعين النعجة ولم أجد صعوبة هذه المرة في الولوج إلى المستشفى، وانتظرت طويلا، أو هكذا بدى لي مجئ الدكتور محمد العربي معريش، ثم دخلنا بهو جناح الانعاش، فوجدنا **أم أحمد**، وأحد من أبناء أخيه وواحدًا فقط من إخوته، وسألناهم عن مكان دفنه فطلبوا منا الانتظار، ثم أخبرونا بعد ذلك أنه سينقل إلى **قمار** ليدفن هناك بوصية منه، وطلب أن يترك بسلام دون أن تتدخل أي مؤسسة في دفنه.

للتاريخ فقد كان لنا **الدكتور إبراهيم حمادة** نعم المساعد، فقد عرفته قبل أن يكون طبيبًا ماهرًا وصاحب خلق كريم، فهو على درجة عالمية في معارفه التاريخية، وقال لي ونحن ننتظر خروج سيارة الاسعاف وحملها نعش الفقيد العزيز إلى أهله بدار الأردن بضاحية دالي إبراهيم بالجزائر العاصمة، قال لي كنت هذه المدة الأخيرة أشرف على صحة شيخ المؤرخين سعد الله وأستمع لك وأنت تتكلم بعاطفة جياشة عن رائد المدرسة التاريخية الأكاديمية في القناة الثقافية الجزائرية وفي برنامج" **التاريخ يسجل**". فشكرته على إنسانيته وعلاقته الطيبة بأحمد نجل الدكتور سعد الله في هذه الفترة العصيبة.

سلام عليك يا شيخ المؤرخين في الخالدين وطيب الله ثراك فقد كنت نعم الرائد لأمته في حرصك على تنوير الذاكرة الجزائرية، وتنبيه الأهل وسادة البلد إلى ما يُدار من وراء البحر من أجل تسفيه وطمس أعمال الصالحين من العلماء والمجاهدين العاملين من أبناء هذا الشعب المعوان على الخير.

الجزائر في 05 يناير، جانفي 2014م

الهوامش

---

(1) سلمت هذه الدراسة إلى الصحفي عثماني عبد الحميد، من أجل نشر موقف أو موقفين، ثم نشرت جريدة الشروق معظم المواقف مع تصرف بسيط، كما ألغوا من المقال المنشور على حلقتين بعض المواقف التي ربما رأت الجريدة من خلالها قضايا خاصة جدًّا لا تصلح للنشر في هذا الظرف والله أعلم، لكن أنا سأنشر العمل كاملا بهوامشه وتعليقاته ومع خصوصيات الشهادة التي نالت استحسان متصفح الجريدة الإلكترونية، راجع الشروق اليومي أيام 12 و13 يناير/جانفي 2014 الأعداد 4254 و4255. أما عنوان المقال في جريدة الشروق فهو: كما يلي: الباحث محمد الأمين بلغيث يكتب عن شيخ المؤرخين الجزائريين [مواقف إنسانية عشتها مع العلامة" أبو القاسم سعد الله".

(2) جريدة المساء، تاريخ 18 يونيو 1990م. وقد أمدينا هذا الموضوع إلى الأستاذ بشير بومعزة بمناسبة تأسيسه لجمعية 8 مايو 1945م لتحاسب العدو عن جرائمه وتطالبه بحقوق الجزائريين، الأعمال الكاملة المجلد العاشر، أبحاث وآراء القسم الرابع، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2005م. ط. 2. ص ص: 21/19.

(3) لا أعرف لماذا لم يذكر شيخ المؤرخين مجزرة البليدة، ومجزر العوفية بضواحي الحراش عام 1832؟

(4) وردت هذه العبارة في مراسلة خاصة بين شيخ المؤرخين الدكتور أبو القاسم سعد الله من جامعة آل البيت بالأردن إلى الأستاذ: محمد الهادي الحسني رئيس تحرير مجلة الموافقات بتاريخ 19 ديسمبر 1996م يدعو فيها الأستاذ سعد الله إلى ترك الإمام عبد الحميد بن باديس وشأنه لأننا لا نقدر الرجل قدره وهذا طبعا حينما استكتبه ليشارك بمقال أو دراسة في الملف الرئيسي الخاص بالإمام الرسالي عبد الحميد بن باديس رحمه الله.

مجلة الموافقات العدد الخاص بالإمام عبد الحميد بن باديس، العدد السادس، عام 1998م.

(5) Les loyaux serviteurs de la France coloniale

(6) محمد الصالح بكوش، الترجمة في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي [1930/1830]، تصدير محمد الأمين بلغيث، الجزائر، دار التنوير، **2013م. ص: 5.**

(7) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2005م. ط. 2 ص: 241. راجع تعليق باحث مغربي يأكل الغلة ويسب الملة يأخذ المعلومات من مصادرها الجزائرية ويعلق عليها بما تمليه نفسه الغافلة عن الحق وشتم الجزائريين. راجع محمد أمطاط، الجزائريون في المغرب ما بين سنتي 1830-1962مساهمة في تاريخ المغرب الكبير المعاصر، تقديم محمد كنبيب، الدار البيضاء، دار أبي رقراق، 2008م. ص: 40 هامش 63.

(8) بعد فرز القائمة وانسحاب البعض التحق بنا من قسنطينة الأستاذ المغفور له **عيسى حمودة [توفي في 25 مارس 2004م]**، وقد انسحب من الدراسات العليا لظروف خاصة، وغادر مقاعد الدراسة من أجل أداء واجب الخدمة الوطنية، والتحق بنا أيضًا **الأستاذ عمار مزياني**، الذي انسحب هو الآخر، واختار الأعمال الحرة، ثم المحاماة وهو من الشخصيات المعروفة في باتنة على ما يذكر الناس في الوقت الحالي.

(9) بعد عملية الفرز وإتمامنا للسنة التمهيدية للماجستير [1981/1980] رأى المشرفون على هذه الدفعة، بعد تقسيمنا وتوجيهنا إلى التخصصات التقليدية المعروفة، رأى بعضهم إدماج طلبة الدراسات العليا، لهذا أدمجوا ضمن دفعتنا في سنتنا الأولى بعد إتمام السنة التمهيدية، إلى دفعتنا الأسماء الآتية وهم: إبراهيم العيد بيشي- [تخصص قديم]، رشيد تومي [تخصص وسيط أوروبي]، لطيفة بشاري [تاريخ إسلامي وسيط]، عائشة غطاس رحمها الله [تخصص حديث عثماني]. محمد العربي معريش [تخصص حديث ومعاصر].

(10) هذه دارجة جزائرية يقصد بها يبدو يا جماعة أنكم لستم في المستوى المطلوب.

(11) قدم يوسف مناصرية دراسات نوعية بإشراف شيخ المؤرخين الجزائريين وهي كما يلي:

أ/ مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب. طبعتان بالجزائر.

ب/ الاتجاه الثوري في الحركة الوطنية، مطبوع.

ج/ الشيخ عبد العزيز الثعالبي، حزب الدستوري التونسي مطبوع بدار الغرب الإسلامي، [ماجستير1986م].

د/ النشاط الصهيوني بالجزائر، دار البصائر [دكتوراه، وقد حضرت مناقشتها، بقسم التاريخ، بوزريعة]، تصدير بقلم شيخ المؤرخين وقدوة الباحثين أبو القاسم سعد الله، 2009م. الجزائر، دار البصائر، [التصدير بتاريخ 06 يوليو 2006م].

(12) يوسف العلج، اشتهر بيوسف العنابي، ادعى أنه ولد في جزيرة [إيلب] واختطفه وهو طفل جنود البحرية التونسية سنة 1815، نشأ بقصر- الباي، والتحق بالجيش الفرنسي وعُيِّنَ ترجمانًا في جيش إفريقيا ثم عينه كلوزيل خليفة لآغا العرب، ثم قبطانًا في جيش القناصة ثم رقي إلى رتبة رائد في نفس الجيس سنة 1833م وبايا على قسنطينة سنة 1836 أثناء الحصار الأول للمدينة، وفي سنة 1845م ارتقى إلى رتبة جنرال وقائد فيلق سنة 1865م وتوفي سنة 1866م، وسماه محمد باشا في التحفة يوسف المتنصر العنابي، لأنه بعد أن تلقى تربية إسلامية في قصر الباي تنصر، وكان معروفًا بقساوته على الجزائريين، وقد نسبه أحمد باي في مذكراته إلى أصل يهودي.

(13) مازن صلاح مطبقاني باحث سعودي مكان عمله الآن بالرياض، وقد تابعنا نشاطه الذي ارتبط أولا بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ثم بعد ذلك اختار طريقًا آخر وهو التخصص في تاريخ الاستشراق، ومن أعماله المتميزة ما يلي:

1-جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1931 - 1939 رسالة ماجستير جامعة الملك عبد العزيز، قسم التاريخ، جدة، العربية السعودية، أكتوبر 1985م. والكتاب مطبوع أكثر من طبعة ومنها طبعة عالم الأفكار، راجع مقدمة شيخ المؤرخين الجزائريين أبو القاسم سعد الله، **رأي في دور جمعية العلماء** [تأملات وأفكار] المجلد16، أفكار جامحة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2005م. ص ص: 54/47.

2-عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، دمشق، دار القلم، 1999م. ط 2. اقتنيت هذا الكتاب من دار القلم بدمشق يوم 28 ديسمبر 2002م.

3-صراعُ الغرب مع الإسلام، تأليف آصف حسين، ترجمه من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية، ونشر بدار عالم الأفكار، عام 2013م.

4-ديرليك، عبد الحميد [1358/1307هـ/1940/1889م] مفكر الإصلاح وزعيم القومية الجزائرية، ترجمة مازن صلاح مطبقاني، الجزائر، عالم الأفكار، 2014م.

(14) كان الأستاذ مازن في مستوى المسؤولية، فقد أرسل رسائله النادرة وعددها 9 رسائل من بينها رسائل أولية يشرح فيها للباحث طريقة البحث والمصادر الأولية لتاريخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

(15) كانت الواجهة الكبيرة من شدة نظافتها لا تظهر للعيان، وكان سمكها كبيرًا، ولا يوجد في وسطها إشارة أنها نافذة زجاجية كما هي عادة الفنادق السياحية الكبرى، وقد علق مدير الفندق بعد ذلك فقال لأحد زملائي [يا صاحبي معظم السكارى اصطدموا بهذا الواجهة ولم تكسر طيلة وجودي هنا، رغم البنية الضعيفة للأستاذ لكن علق فقال [**bien sur Algérien tète dur**] وهو: ما ترجمته **رأس صلبة**: كمواطنيه من الجزائريين.

(16) راجع كتابي تاريخ الجزائر المعاصر. الطبعة الرابعة والخامسة المجموعة الثامنة من وثائق وصور الكتاب.

[17] بالفعل سلمت للأستاذ الدراسة كاملة بجهاز الحاسوب قبل نشرها في مجلة المصادر التي يصدرها المركز الوطني

[18] راجع: الدراسة بعنوان صدى دعوة خير الدين باشا التونسي في الجزائر [أبحاث وآراء] المجلد العاشر من الأعمال الكاملة الجزائر دار الغرب الإسلامي، 2005م. الجزء الرابع ص: 163 وما بعدها.

[19] كتبت دراسات عديدة عن إبراهيم سراج وأدين في معرفة هذا الصحفي الثائر إلى أرشيف ما وراء البحر، بآكس، فقد تحصلت على ملفه كاملا في صورته الفرنسية، ونشرت بعض الوثائق في هذا الكتاب وفي كتابي الجديد فصول في تاريخ الجزائر المعاصر، الذي سيصدر ضمن أعمالي غير الكاملة. كما تحصلت على الصورة الثانية لشخصية إبراهيم سراج من خلال الوثائق العثمانية في دور الأرشيف الليبي التي نشرها الدكتور أحمد صدقي الدجاني رحمه الله.

[20] كم هي رائعة هذه الكلمة التي جعلها شيخ المؤرخين بين شولتين لأن الزعانف عندنا يريدون أن يحتكروا الحقيقة المحضة، ولا يشاركهم أي باحث وكأننا جئنا من جزائر الواق الواق، ولم نستوعب مناهج المؤرخين، رغم أننا فطمنا على حب الجزائر وتاريخها المعاصر عند [المحضن الأمين] على الأمة وتاريخها منذ أن وعينا الكتابة التاريخية.

[21] بعث شيخ المؤرخين الرسالة من جامعة آل البيت بالأردن.

[22] انظر على سبيل المثال لا الحصر، إبراهيم لونيسي، الكتابة السياسية عند أبي القاسم سعد الله [قراءة تحليلية لعينات من آراء ومواقف سعد الله السياسية] الأعمال التاريخية والأدبية، الكتاب التكريمي، جامعة منتوري، إعداد وتصنيف وتقديم، عبد الكريم بوصفصاف، المرجع السابق، ص: **162/173.**

[23] تعرض شيخ المؤرخين للفترة التي عاش فيها الغربة الحقيقية والألم، ألم الغربتين البعد عن الوطن، وغربته كوطني جزائر وهو يسمع أبناء الوطن الواحد يتقاتلون ويسفكون دماء بعضهم بعض، ولكن للأمانة شيخ المؤرخين حدد مواقفه من الصراع الدائر في فترة ما يسميها الإعلام الجزائري بالعشرية الدموية أو الحمراء في كتابه **مسار قلم المجلد السادس.**

[24] ذكرني بهذا الموقف وتفاصيله الأستاذ مسعود كواتي، خاصة حينما قال للأستاذ شيخ المؤرخين يا أستاذ حينما أقرأ الكتاب الشكلاطي [بلون الشوكولاطة] لا أتصور أنني سأكون موضوعيًا مع الفرنسيين.

[25] تولى رئاسة المركز السيد الفاضل محمد لخضر العلوي [توفي يوم الأربعاء 09 محرم 1435هـ/الموافق لـ 13 نوفمبر 2013م]، ثم الدكتور أحمد حمدي، ثم الأستاذ الصادق بخوش لفترة انتقالية، ثم الدكتور الشاعر عبد الله حمادي، وبعد ذلك استلم الرئاسة والمهمة الدكتور جمال يحياوي، إلى يومنا هذا [جانفي 2014م].

[26] هذه الكلمة أم الشرور كلها قالها سفير بيزنطي عن روما، وأصبحت أرددها في كتبي ومقالاتي في التاريخ الإسلامي الوسيط أو تاريخ الجزائر المعاصر، ومن بين المصطلحات التي أرددها منذ سنوات [مغول القرن التاسع عشر والعشرين] أقصد فرنسا الاستعمارية، أخذتها من مقدمة الكتاب الذي قصده زميلي كواتي حيث يقول سعد الله طيب الله ثراه" لا نعرف أن أحدًا قارن بين غزو التتار لبغداد وغزو الفرنسيين للجزائر، ويبدو أن المؤرخين السابقين لم يكونوا في حاجة إلى مثل هذه المقارنة ما داموا يعرفون مسبقًا أن التتار شعب متوحش وأن الفرنسيين شعب متحضر، وهم متأكدون مسبقًا أيضًا أن الشعب المتوحش لا يقوم إلا بالتخريب وأن الشعب المتحضر لا يقوم إلا بالبناء. فإذا أضيف إلى ذلك أن التتار قوم قد مضت عليهم القرون ولم يعودوا موجودين بذلك الوصف إلا في أحداث التاريخ وأن الفرنسيين قوم ما يزالون يعيشون بين الناس يدافعون عن أنفسهم بكل الوسائل بما في ذلك التهديد والتمويه-إذا أضيف ذلك إذن عرفنا لماذا لم يعقد المؤرخون تلك المقارنة حتى الآن بين التتار في بغداد والفرنسيين في الجزائر. وأضيف أنني أردد لازمة في التلفزة والراديو وفي الكتب مقولة أقول فيها: **[فرنسا هي: عدو الماضي والحاضر والمستقبل]**، وفي يوم من الأيام كنت قد أتممت إجراءات الدخول إلى قاعة الركوب بمطار هواري بومدين بالجزائر العاصمة، فأوقفني ضابط كبير من سلك الشرطة قال لي: **يا دكتور بلغيث واش دارتلك فرانسا [ماذا فعلت لك فرنسا]، قلت له بهدوء تام وببساطة أنا ما دارتلي فرانسا والو ولكن فرانسا هذه عدو الماضي والحاضر والمستقبل التي رددها معي يَتَّمَتني [قتلت والدي] فقط، فقال: سب جُدِّها [أي اشتم جذورها]**، وأخذ بيدي ومررت بكل المصالح إلى أن أدخلني الطائرة المتجهة إلى **فرانكفورت بألمانيا**.

[27] ظلت سلسلة كاقايوس تصدر خلال ثلاثة عقود تقريبًا[1920/1891] في إصدارات أسبوعية، انظر بحث إيمانويل سيفان [E. sivani]، **الاستعمار والثقافة الشعبية في الجزائر، الجزء الرابع من أبحاث وآراء، الأعمال الكاملة المجلد10، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2005م. ط. 2. ص ص: "96/47.**

[28] قال تعالى : وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183) الشعراء: **183**، يعترف شيخ المؤرخين أنه لم يطلع على نص فتوى جول كامبون في نصها العربي بعد اكتشافي لها في أرشيف ما وراء البحر وفي الوثائق الخصة بالسودان الغربي، ومعظم من يملك كتابي تاريخ الجزائر المطبوع عام 2001م طالع فتوى قورارة، وبعد

مضي 14 سنة على اكتشافي لهذه الفتوى يكتب **صديقي الباحث إبراميم لونيسي** في هامش رقم 2قولهو هو يشير إلى فتوى كومبون: **"لم يذكر أحد من الباحثين أنه عثر على النص الأصلي لهذه الفتوى، إلا أننا نلاحظ أثر حركة هجرة الجزائريين إلى سوريا والمشرق سنة 1893**، ثم أحال على كوبولاني، وهو مصدر شيخه سعد الله. والحقيقة أن صديقي يملك الكتاب على الأقل في طبعته الأولى.

راجع، إبراميم لونيسي، **الاستشراق الفرنسي ودراسة المجتمع الجزائري و إعادة تشكيله** [بحوث في التاريخ الاجتماعي والثقافي للجزائر إبّان الاحتلال الفرنسي]، الجزائر، دار هومة، 2013م. ص: 177. راجع المجموعة الأولى/فتوى قورارة: النص العربي الأصلي، وعلقت في الهامش على هذا النص الخطي قلت: أعتقد أنني أول من ينشر النص العربي الذي يحتمل أنه قد جاء به الصحفي جيفري كورتيلمون، صاحب رحلة إلى الحجاز الذي يشير إليه شيخ المؤرخين الدكتور أبو لقاسم سعد الله، محمد الأمين بلغيث، تاريخ الجزائر المعاصر، دراسات ووثائق، وثائق جديدة وصور نادرة تنشر لأول مرة، بيروت، دار ابن كثير، **2007**م. ص: 320.

(29) كان شيخ المؤرخين في قمة السعادة وهو يلتقي أملهو وطلابه بعد غربة طويلة ومن بين الأشياء التي أتحفنا بها، فقد أعلمنا بإصداره الجديد وهو كتابه الشهير تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول المعلم بنجمتين ليفرق بينه وبين الجزء الأول المعلم بنجمة واحدة، وكنت أجلس إلى جانبه، فتصفحت فهرس الأعلام فعثرت على اسم تبسة، فتتبعت ما يقول عنها أثناء حركة محي الدين بن الأمير عبد القادر الذي حاول اقتحامها ليجعل منها عاصمة لثورته، ووجد النصرة من أولاد خليفة والعلاونة، والبرارشة وأولاد سيدي عبيد، وأولاد رشاش، وأخذ يخطط للاستيلاء على بلدة الشريعة، وكان قد رسمها في هذه الطبعة بـ**"الشريعة"**، فقلت له إن هذه البلدة ترسم بألف التعريف، لكن لم أنتبه إلى الأخطاء وهو يترجم أسماء العائلات والقبائل والأعراش التي بقيت على حالها لعل الناشر يتدارك هذا الأمر الذي أشرت إليه ونبهت من يقوم على إعاداد الأعمال الكاملة مثل الدكتور محمد العربي معريش. راجع، سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، 1900/1860/ الأعمال الكاملة، المجلد السادس، الجزء الأول، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000م. ص: 213.

(30) تعرفت على الأستاذ لحسن بن علجية في حدود 2007م/2008 يوم كنا نتساجل مع الباحثين الجزائريين في قناة المستقلة حول الأمير عبد القادر والحركة الإصلاحية الجزائرية، ثم أرسل لي كتابه القيم الموسوم بـ "العلامة عبد السلام بن عبد الرحمن السلطاني، حياته وآثاره المطبوع عام 2013م بدار الهدى للنشر والتوزيع. التقيت مع الأستاذ لحسن بن علجية في يوم الجمعة 20 ديسمبر 2013م، وحضر معنا حفل تكريم الشيخ الأديب الأريب محمد الصالح الصديق. أثناء انعقاد نشاط المعرض الوطني للكتاب بقصر المعارض بالجزائر العاصمة.

(31) بادر رجال الإصلاح في تونس منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى تلافي النقص الموجود بعدم إدراج تاريخ تونس في برامج الجمعية الخلدونية، التي أسسوها سنة 1896م، وتدريسه باللغة العربية، وعهدوا بهذه المهمة إلى أبي النهضة التونسية الحديثة البشير صفر، الذي اضطلع بهذه المهمة من سنة 1897م إلى سنة 1908، فوجدت دروسه في التاريخ والجغرافيا الصدى البعيد، لا في تونس فحسب، بل في أقطار المغرب العربي قاطبة، وبعد وفاته جُمعت دروس التاريخ التي ألقاها في الخلدونية في كتاب مستقل بذاته أصدره ابنه مصطفى صفر سنة 1928م، بعنوان "مفتاح التاريخ"، وقد عوض البشير صفر إثر تعيينه سنة 1908م عاملا بسوسة، زميله محمد بن الخوجة، ثم واصل تلك المهمة فيما بعد حسن حسني عبد الوهاب، والصادق الزمرلي، وعثمان الكعاك سنة 1918 أصدر حسن حسني عبد الوهاب كتابًا بعنوان: "خلاصة تاريخ تونس"، نال الكتاب شهرة كبيرة، فطبع عام 1918، و 1930، و1953م، و1968، والطبعة المزيدة والمنقحة، قام بها حمادي الساحلي الذي لاحظ أن الخلاصة ينتهي باعتلاء آخر الملوك الحسينيين، محمد الأمين باي، العرش في 15 ماي 1943م، فحرص الساحلي كما يقول على تلافي هذا النقص حتى لا يبقى التأليف مبتورًا، وذلك بإضافة ملحق من إعداده يتضمن موجزًا للأحداث السياسية التي لم يذكرها المؤلف أو أشار إليها إشارة خفيفة، من تاريخ الاحتلال في سنة 1881م، إلى تاريخ الاستقلال في سنة 1956م، راجع حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، تقديم وتحقيق حمادي الساحلي، تونس، دار الجنوب، للنشر2001م. ص: 5 وما بعدها.

(32) ذكر سعد الله لونيسي قائلا: وصلتني [الجمعة 25 فبراير 1994] رسالة من أحد طلبتي وهو إبراميم لونيسي، الذي يدرس في ثانوية ذراع الميزان، أخبرني أنهم يحضرون كتابًا عني في معهد التاريخ وأنهم قد كلفوه بكتابة كلمة عني فاختارني كباحث.. . وهذه مفاجأة لا أدري إن كانت ستتم. نعم يا شيخ الكرام تمت وطبع الكتاب بعناية وتنسيق الدكتور ناصر الدين سعيدوني، ببيروت، دار الغرب الإسلامي، [دراسات وشهادات مُهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله] 598/2000 صفحة. كما أخبره لونيسي بوفاة المناضل حسين لحول وعبد الرحمن العقون وبعض المثقفين الذين تحصدهم الفتنة الحاضرة كما عبر

سـعد اللـه، راجـع لسـان قلـم، الجـزء السـادس، ص: 460/145/85/77/58/57.

(33) لن أنسى اللقاء العلمي والودي الذي جمعنا نحن الأساتذة(محمد الأمين بلغيث، مسعود كواتي، إبراهيم مياسي[رحمه الله]) بالشاعر خفيف الظل والعالم المتبصر محمد الطامر التليلي[16 رمضان 1424هـ/11نوفمبر 2003م] ببيته يوم 10 أكتوبر 2001م، [رحمه الله] وقد طلب مني (كاتب هذه السطور) قراءة ديوانه الأخير، وكلما تلعثمت في قراءة شعره إلا وأدركني بذاكرته القوية مُصَحِّحًا القواعد والنحو بصورة رائعة، وكلما طلبنا منه نسخ قصيدة أو رسالة كان دومًا يتحجج فيقول بعد موتي، أو أن نسخة أصلية عند بلقاسم (وبلقاسم في حديثه هو شيخ المؤرخين سعد الله رحمه الله). راجع حياته وآثاره/الدكتور إبراهيم رحماني، الشيخ محمد الطامر التليلي، جهوده في البحث الفقهي والإفتاء الجزائر وادي سوف، مطبعة سخري، 2011م.

(34) كان الشيخ الطامر التليلي من أصفياء شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله، يرد اسمه كثيرًا في أعماله بل قال لنا لقد نزعت من يديه نزعًا هذا الديوان "الدموع السوداء". وطبعها الدكتور في وقته فعرفنا قيمة هذا الكنز المدفون الذي عاش على الهامش لكنه أصبح مركزًا من خلال ورود اسمه كثيرًا لدى سعد الله المحقق والمؤرخ الموسوعي. كما كان سعد الله يستعين بما أشكل عليه وهذا بالاتصال بالشيخ عبد المجيد بن حبة، والشيخ المهدي البوعبدلّي والشيخ أمقران السحنوني، وكان يؤرخ لاتصاله بهم في كتبه أو في لسان قلم.

(35) للأمانة وللتاريخ وللله سبحانه وتعالى، نعم نصحني شيخ المؤرخين أن هذه الملتقيات لا تنفع، بل هي مضيعة للوقت، ولكن أنا أقول للحقيقة، أن هذه الملتقيات هي التي عرفتني أولا بهذا الوطن الكبير وهو دولة بحجم قارة، وعرفت التنوع السكاني والجغرافي وشخصية هذا الإنسان الذي قهر فرنسا الاستعمارية، كما تعلمت في هذه الملتقيات أن الناس معادن كما يكرر شيخ المؤرخين، حينما خاب ظنه في إنسان يعتبره من أعز أبنائه.

(36) لعل شيخ المؤرخين بقولاه ها قد كشفت عن ساقيها، ومي أطروحة كبيرة في مجلدين من1270 صفحة، خضراء تسر الناظرين فقال وكشفت عن ساقيها، ربما متمثلا وهو الحافظ لكتاب الله سبحانه وتعالى قولاه تعالى: قولاه تعالى: [قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ] النمل: 44.

(37) الفاهم ياسر أي مبالغة في الفهم و ياسر في الدارجة الجزائرية شديد أو كثير الفهم.

(38) طبع هذا البحث في الكتاب التكريمي، كما نُشر مرة أخرى في كتابي دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي في طبعته الأولى عام 2006م وأمديته إلى الدكتور سعد الله عن طريق الأستاذ المرحوم إبراهيم مياسي، كما طبع المقال ضمن كتابي الشيخ محمد بن عمر العدواني مؤرخ سوف والطريقة الشابية في طبعته الثانية عام 2007م.

(39) طبع آخر السرب على مطابع دار الغرب الإسلامي لصاحبها الأستاذ الحبيب اللمسي، ببيروت عام 2005م.

(40) سألني يومًا **"أبو مالك محمد علي ميستو"** حفظه الله صاحب دار ابن كثير العامرة عن عدد أولادي وكنت آنذاك مع واحد من طلبتي وهو **الأستاذ مهدي صادق**، صاحب مكتبة عبد الحميد بن باديس بالضاحية العاصمية الشهيرة "باب الواد"، ليسلمني الطبعة الثانية من كتابي المطبوع حديثًا ببيروت عام 2007م، قال يا دكتور كم عدد أولادك فقلت له، أما أولادي من صلبي فثلاثة، بنتان وولد، وأما أولادي من بنات أفكاري فعشرة [آنذاك] أَجَلُّهم عندي: **"المدخل إلى السيرة النبوية والخلافة الراشدة "**والثاني "تاريخ الجزائر المعاصر"، فأعجبه الإطراء، ووعدني بطبعة ثالثة مجلدة، يُصَحِّحُ من خلالها الأخطاء الفنية التي وقع فيها صاحب المطبعة وهذا حينما أممل فنيات برمجة المطبعة على نظام طبع الجداول الواردة في الكتاب. فقد قام الناشر بطبع الجداول وألصقها في مكانها بطريقة فنية رائعة.

(41) أرسلت إلى شيخ المؤرخين عن طريق زميلي المغفور له بإذن الله إبراهيم مياسي[1947م/2010م] كتابي تاريخ الجزائر المعاصر في طبعته الأنيقة الثانية وكتابي: " دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي" الذي احتوى على دراسات مطولة حول أعمال سعد الله نفسه، وكتابي نظرات في تاريخ الغرب الإسلامي، وأظن أنني أرسلت له فصول في التاريخ والعمران بالغرب الإسلامي، المطبوع أيضًا عند ناشري الأول الذي طبع كتابي الشيخ محمد بن عمر العدواني، في طبعة متواضعة، كما أرسلت له في وقتها في حدود نهاية 2007م، الطبعة الأنيقة لكتابي "الشيخ محمد بن عمر العدواني"و كتاب" الجزائر في باندونغ"، والكتابان مطبوعان بجيجل[الجزائر] طبعة أنيقة، كما أشرت إلى ذلك سابقًا.

(42) كانت الترتيبات تقتضي تكريم الأستاذ المؤرخ موسى لقبال، وهو ما أخبرني به في وقته كل من الدكتور رأس المال عبد العزيز مدير الثقافة الإسلامية، بوزارة الشؤون الدينية والأوقاف، سابقًا، والأستاذ مسعود كواتي، من جامعة غرداية، ومما معًا من اللجنة العلمية إضافة إلى الأساتذة المذكورين في كتاب الملتقى، وكان حضور شيخ المؤرخين قد أثار فرحة

عارمة عند المنظمين والمشرفين فكان الشخصية الأولى في الملتقى دون منازع.

(43) الدليل الذي يبرئ شيخ المؤرخين من سفاسف الأقوال قولـه: ما تزال اليوميات مستمرة، [لسان قلم]ومادة الجزء السادس بصدد الإعداد، وقد كتبتها أثناء محنة الجزائر، ولا أدري بأي تاريخ ستنتهي اليوميات كاملة وعندما تكتمل وينقضي أجل صاحبها فقد تصل إلى عشرة مجلدات، وأخيرًا أكرر ما قلته في المقدمات السابقة وهو أنني أطلب العفو ممن جاء ذكرهم في اليوميات بتعبير ظرفي وحكم قد يكون متسرعًا، وليس استنتاجًا صادرًا بعد دراسة وروية، ومن طبعي أنني لا أسئ إلى أحد حتى للذي أساء إلي، نعوذ بالله من نزعات الانتقام ومن نزغات الشيطان، قال شيخ المؤرخين هذا الكلام الجميل في مقدمة الكتاب المؤرخة في 06 مارس 2010م. طبع المجلد السادس في حياة المؤلف، والجزء السابع هو قيد الإعداد وقد أكد لنا صاحب دار المعرفة هذا الأمر.

(44) سجلت ببيتي ما يقارب الأربع ساعات لحساب قناة الجزيرة الوثائقية، مع فريقها بباريس والمتعاون معها نور الدين بزيو، هكذا قدم نفسه، واتفقت مع الفريق على أجري المادي، فوعدني الصحفي الجزائري المقيم بباريس بهذا بعد المونتاج والتسجيل وقد بثت مجموعة من الحلقات في برنامج أرشيفهم وتاريخنا، وقد حاولت الاتصال بهم مرارًا ويبدو أن حقي سقط بالتقادم، ولا تزال هذه الحلقات تُبَثُّ إلى اليوم. ، وهو ما أثار حساسية **الذين يتقولون ولا يعملون، ويزعجهم أن يعمل الآخرون،** كما قال زميلي مسعود كواتي في كتابه تاريخ الجزائر المعاصر، وقائع ورؤى، المطبوع بدار هومة للنشر، عام 2011م.

(45) أنا أدين إلى هذا القناة بانتشار اسمي بين المشاهدين على الأقل في البلدان التي وجدت فيها معارف واتصالات وتدخلات، ومنها مصر، تونس ليبيا، المغرب الأقصى، المملكة العربية السعودية، فرنسا، بلجيكا. والجزائر خاصة.

وقد قدمنا للقناة ما يزيد عن سبع وسبعين ساعة بث هي كما يلي: [أ]37 حلقة خاصة بتاريخ الأمير عبد القادر [تدخل في حلقاتها كل من العبد الضعيف [محمد الأمين بلغيث]، والدكتور عبد اللطيف بالطيب من أستوديو القناة بلندن، الدكتور المغفور له بإذن الله إبراهيم مياسي، الأستاذ **مديني بشير**، وتدخل الأستاذ [خلدون مكي الحسني] ممثل أسرة الأمير عبد القادر وفرعها العلمي بدمشق، فك الله أسره، وتدخل في 12 حلقة، وتدخل معنا واحد من ممثلي الطريقة التجانية وهو محمد الحبيب التجاني وللأمانة كان خلدون مكي إذا بدأ محمد الحبيب التيجاني يتكلم يقطع الهاتف.]؟. **[ب]**27 حلقة خاصة بالحركة الإصلاحية وإمامها العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس، وتدخل في حلقاتها عبر الهاتف الدكتور عبد الكريم بوصفصاف، والأستاذ محمد الهادي الحسني، والدكتور عبد الرزاق قسوم، والعبد الضعيف [محمد الأمين بلغيث] و[ج]13 حلقة حول الرئيس الراحل هواري بومدين، وكانت بيني وبين الدكتور إبراهيم لونيسي، وأما الحلقة الأولى فقد سجلتها وأنا بدمشق الفيحاء، وكانت معي في الحلقة وعلى المباشر السيدة حرم الرئيس. وكان المحاور مدير القناة الدكتور الهاشمي الحامدي، أما بقية الحلقات فقد أدارها الإعلامي الجزائري القدير [محمد مصدق]، ثم بعد ذلك الإعلامي [**شيخي توفيق**].

(46) الدكتور عبد اللطيف بالطيب أصيل خنقة سيدي ناجي، ولاية بسكرة، باحث متخصص في الرياضيات وعلى درجة عالية من الوعي صاحب ثقافة موسوعية، شاركنا معظم حلقات الأمير والحركة الإصلاحية من أستوديو قناة المستقلة بلندن وكان بيني وبينه انسجام كبير ورؤى مشتركة، والتقينا بعد ذلك بالجزائر العاصمة وبمدينة بسكرة، وهو أستاذ باحث في اسكتلندا، ثم انتقل العام الماضي إلى مدينة **جبيل** بالمملكة العربية السعودية. [2012م].

(47) راجع، أبو القاسم سعد الله، الخوف من التاريخ [أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الأعمال الكاملة للدكتور أبو القاسم سعد الله، رقم. 10، المجلد الثاني [3-4-5]، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2005م. ط. 2ص: 13.

(48) أُثيرت هذه القضية في ملتقى النوازل والتاريخ المنعقد بجامعة المسيلة، في 18 و19 نوفمبر 2013م [في جلسة خاصة] وكان المتحدث قد أشار إلي شخصيا، مذكرًا بأني اقتحمت مجال الرامن والتاريخ الحديث رغم تخصصي في التاريخ الإسلامي الوسيط وهذا في جلسة حميمية مع المؤرخ المغربي المتميز إبراهيم القادري بوتشيش، فقال له: التاريخ حلقات متواصلة، فمن لا يحسن تتبع هذه الحلقات، فعليه أن يترك الأمر لأهله، وهو نفس الكلام الذي كتبه شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله رحمه الله قبل هذا الموعد بثلاثة عشر سنة، كما هو ظامر في رسالته إلى كاتب هذه المواقف.

(49) حضرت ندوة المؤسسين لاتحاد المؤرخين، في زرالدة سنة **1994**م، فقد دعتني لجنة التنظيم للمشاركة في الانتخابات فجئت رأسًا من باريس وتمكنا من انتخاب اللجنة المديرة، فكان الأمين العام يوسف مناصرية، والمكلف بالثقافة والنشر والمجلات مسعود كواتي، ولكن شهر العسل لم يدم طويلاً، فأنهى من أراد لهم الأمين العام أن يساعدوه في إدارة الاتحاد الود الذي كان بين جيلنا من المؤرخين الطموحين على درب الكبار، وسلم ناصيته إلى مريديه أو من اعتقد أنهم عنصر تجميع فصدق فينا جميعًا قول الحكيم الشاعر: **علمته الرماية كل حين.. . فلما اشتد ساعده رماني.**

[50] هذا مثل قالـه أسـلافنا في وقتـه للتنبيـه إلى قاعـدة مشـهورة: " مـن استعجل الأمر قبل أوانه عوقب بحرمانه". كما أنها تسـتنكر التسرـع في اتخاذ المواقف العاطفية قبل الاستعداد لها وأخـذ الاحتيـاط الواجـب، ولا يعني هذا الموقف تردد الناس عن فعل الخير أو المبادرة به، لكن مـن جانـب آخر فقد خذلت العائلات الأرستقراطية الثوار كـما أبرزمـا المـؤرخ يحيـى بوعزيز في كتابيه، ثورة الشيخ الحـداد ومحمـد المقـراني وموقـف العـائلات الأرستقراطية.

[51] سوف يظهر هذا المقال بإذن الله ضمن كتابي قضـايا ومواقـف في الأدب والتاريخ المجلد الثاني عشر ضمن أعمالي غير الكاملة.

[52] أتذكر أن هذا اليوم كنت على موعد مع الدكتور محمد عبد الحليم بيشي للذهاب إلى المطار هواري بومدين بـالجزائر العاصـمة لاسـتقبال الدكتور عبد الكريم الماجري القادم من الشقيقة تـونس للمشـاركة في ملتقى بجامعة مستغانم، وهو صاحب الكتاب القيم، هجرة الجزائريين والطرابلسـية والمغاربـة الجوانيـة إلى تـونس، 1831/1937م، المطبـوع بتونس عام 2010م والذي تعرفـت عليـه في ملتقـى الـذكرى الخمسـين لجلاء القوات الفرنسية على ميناء بنزرت. بمركز الأرشيف الوطني التـابع للوزارة الأولى التونسية.

[53] بينما كنا نتبادل الحـديث قـال لي مرافقـي مـراد مسـعودان لمـاذا لا نخصص حلقة من هذه الحلقات الإذاعية وهذا بإجراء حوار طويل مع شيخ المؤرخين الجزائريين الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله. لكن مراد لا يعلم أن شيخ المؤرخين يتحرج كثيرًا من وسائل الإعلام، وكـان هذا كما نبهني مرافقـي يـوم 27 نـوفمبر 2013م، أي أربعـة أيـام قبـل سفري إلى بيروت للمشاركة في احتفاليـة كبـيرة أقامتهـا قنـاة الميـادين بمناسبة الذكرى التاسعة والخمسين لاندلاع الثورة الجزائرية المباركة.

[54] توحشناك يا أستاذ لهجة جزائرية دارجة عـلى ألسـنة الجزائـريين بمعنى اشتقنا لكم كثيرًا.

[55] لم أتمكن من زيارته لكنني قلت لأخي مديني بشير، قبل سـفري إلى بيروت الأستاذ بألف خير وسـوف يمـد اللـه في عمـره حتـى يسـتكمل مشروعه الثقافي، والله شامد على ما أقول.

بدايات الدكتور أبي القاسم سعد الله في عالم الصحافة

الأستاذ الدكتور مولود عويمر
قسم التاريخ -جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

كانت الصحافة بالنسبة إلى الدكتور أبي القاسم سعد الله "طريقا للشهرة الأدبية وتبليغ الأفكار". كيف كانت التجارب الأولى للطالب بلقاسم سعد الله [1] في الكتابة في الصحافة؟ ما هي أهم الجرائد والمجلات الجزائرية والعربية التي ساهم فيها في فترة التحصيل العلمي في تونس ومصر؟ ما هي مكانة الصحافة في تراث الدكتور سعد الله؟

بدايات صحفية في جريدة البصائر:

بدأت تجربة سعد الله الصحفية في تونس، التي سافر إليها في عام 1947 للدراسة في جامع الزيتونة، فتحصل على شهادة الأهلية في سنة 1951م، وشهادة التحصيل في عام 1954م[2]. في هذه الفترة أرسل الطالب الزيتوني محاولاته الأولى إلى الجرائد التونسية كالنهضة والزهرة والأسبوع ومجلة المعارف، لكنها نادرا ما تنشرها هذه الجرائد. لذلك أعتبر أن تجربته الفعلية في الكتابة الصحفية كانت مع جريدة البصائر، لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

بدأت علاقة سعد الله بجريدة البصائر مبكرا، فكان يقرأها في بلدته قمار وهو شاب لم يبلغ سبعة عشر عاما، يجد أعدادها المتسلسلة عند خاله الشيخ حفناوي هالي وهو من أحد أبرز أقلام هذه الجريدة، وكذلك في مكتبة زوج خالته، الشيخ الطاهر التليلي، وهو أيضا عضو بارز في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين [3].

وكان خلال هذه السنوات التونسية على اتصال دائم بالجريدة التي تبعته إلى تونس بفضل اشتراكه فيها بواسطة والده [4]. وليس غريبا أن ينشر محاولاته الأولى الجادة في هذه الصحيفة الإصلاحية. وهكذا، كتب مقاله الأول في العدد 165 الصادر في 30 جويلية 1951م عنوانه: "أمة المجد في الميدان"[5]. وواصل الكتابة في هذه الجريدة بعد أن لقي التشجيع من طرف أصدقائه وأساتذته. وتبرز المقالة الأولى والثانية [6] اندفاع الطالب نحو الكتابة ونقد الواقع والإقدام نحو المجد بدون تردد.

ولعل شخصيته القوية، الطموحة والجريئة هي التي نبّهت إليه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء ومدير جريدة البصائر، فعيّنه مراسلا للجريدة، وتتضمن هذه المهمة كتابة تقارير إعلامية حول نشاطات البعثة الزيتونية التي تشرف عليها هذه الجمعية الإصلاحية الجزائرية وإرسالها إلى جريدتها المعروفة. وقد رحب الطالب سعد الله بذلك كأول خطوة في طريق الشهرة الوعرة، فكتب عن نشاطاتها المتعددة [7].

ولما انتقل سعد الله إلى مصر لمواصلة دراساته العليا في عام 1955م، اتفق من جديد مع الأستاذ أحمد توفيق المدني مسؤول جريدة البصائر آنذاك خلفا للشيخ الإبراهيمي المقيم في المشرق العربي، لمراسلة الجريدة بمقالاته، وكذلك بمتابعاته للنشاطات الثقافية في القاهرة [8].

وهكذا استمر في الكتابة في هذه الجريدة التي خصصت له بابا عنوانه: "رسالة القاهرة" يطعمه كل مرة بأهم الأحداث الثقافية الحاصلة في العاصمة المصرية في الآداب والمسرح والفنون والإصدارات الجديدة، وتغطية نشاطات الشيخ الإبراهيمي في هذا البلد العربي، وكذلك تلخيص ما يقال عن الجزائر في الصحافة المشرقية [9]. وقد عزمت الجريدة في بداية عام 1956م على إعطائه مقابل هذا الجهد 5 جنيهات في الشهر [10]. لكن توقفها بعد شهرين، حرم الطالب سعد الله من مبلغ مالي كان في أمس الحاجة إليه.

وكان يحضر بنفسه إلى المهرجانات الثقافية والمجالس العلمية القائمة في الجامعات والجمعيات، لينقل بأمانة للقارئ وقائعها. ولهذا السبب دخل أول مرة إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة [11] ليغطي أشغاله، ثم يرسل التغطية إلى جريدة البصائر. وأحيانا ينشر مواضيع بعيدة عن اهتمامات الجريدة

وغريبة عن اتجاهها العام مثال على ذلك حديثه عن سهرة غنائية لأم كلثوم [12].

وكان ينشر ما جادت به قريحته من خواطر في الأدب والقصص كقصة سعفة خضراء [13] التي استوحاها من حياته الشخصية في قمار. ونزلت في الجريدة متسلسلة في ثلاث حلقات.

كما نشر عدة قصائد بتشجيع أصدقائه الجزائريين والتونسيين المنضوين في جمعية رابطة القلم الجديد [14]. وكانت من أشهر قصائده: أطياف، احتراق، وخاصة طريقي [15] التي نشرتها البصائر مرفقة لأول مرة بصورته الفوتوغرافية.

وكان يلجأ إلى حيلة طريفة لتقبل مقالاته وقصائده وقصصه خاصة التي تناولت قضايا شائكة، أو الدراسات الطويلة، فكان يهديها إلى أعضاء هيئة التحرير [16] مثل أحمد توفيق المدني وأحمد سحنون [17]... الخ،

كما كان يساهم في المناظرات الأدبية والفكرية [18] مع الأدباء والمثقفين الجزائريين المعروفين آنذاك أمثال: أحمد رضا حوحو [19]، عبد الوهاب بن منصور [20]، رابح بونار[21]... وأحيانا يثير سعد الله إشكالية أدبية أو علمية فيرد عليه كاتب، كما فعل الشيخ عمر شكيري الذي انتقد سعد الله على حديثه عن الوجودية، فهي تمثل في نظر شكيري إلحاد وانحلال ولا مجال لها في جريدة إصلاحية مثل البصائر.

ومن الطرافة أن أذكر هنا أن سعد الله كان إذا لم يتفاعل كاتب مع ما طرحه من إشكاليات، رد على نفسه باستعمال اسم مستعار: إبراهيم حمداني [22].

إسهاماته الأولى في الجرائد والمجلات العربية:

بعد هذه التجربة الناجحة في جريدة البصائر، تشجع الطالب بلقاسم على الكتابة في جرائد تونسية كالأسبوع، ومجلات معروفة في الساحة الفكرية والثقافية آنذاك كمجلة المعارف التونسية، ومجلة العالم العربي المصرية، ومجلة الرسالة العراقية، ومجلة الآداب اللبنانية.

وقد وقع المقال الأول الذي نشره في هذه المجلة الأخيرة في ربيع 1954م في قلبه موضع اعتزاز، فقال: "كان لنشر ذلك المقال في مجلة مشرقية راقية كالآداب أثر كبير في نفسي"[23].

كان الطالب سعد الله مولعا بقراءة الصحف، ومتعلقا بها، ومن يقرأ يومياته: "مسار قلم" خاصة في فترة الخمسينات، يلمس ذلك بكل سهولة، فكانت على سبيل المثال جريدة "الجمهورية" تكاد لا تفارقه يوميا خلال إقامته بالقاهرة، حتى عجز هو نفسه في تفسير تعلقه بهذه الجريدة الحكومية المصرية [24].

لقد حفزه عشقه للجرائد على دراسة الصحافة عن طريق الانتساب الحر إلى مؤسسة الصحافة المصرية، وتحصل منها على دبلوم في الإعلام في عام 1957م. وسمحت له خبرته وشهادته بالعمل في مجلة "العالم العربي" كمحرر لباب "المغرب العربي في المرآة"[25] لعدة شهور.

ورغم أنه لم يتحصل من وراء هذا العمل على مورد مالي، فإنه كسب خبرة واسعة في مجال صناعة المجلة، وتعلّم أساليب جديدة في الكتابة الصحفية، واحتك بالصحافيين والكُتاب المعروفين في الساحة الثقافية المصرية والعربية آنذاك.

الصحافة في تراث الدكتور سعد الله:

لقد ساهم الدكتور سعد الله في الصحافة الجزائرية بدراسات تاريخية وأدبية، وآراء في قضايا ثقافية واجتماعية وسياسية من خلال مقالات وحوارات مع الإعلاميين الجزائريين أو الأجانب من الدول العربية [26]. لكنه كان يحتاط من الصحافيين، فلا يقبل إلا الأسئلة المكتوبة ليجيب عنها براحته.

قال سعد الله في هذا السياق: "منذ الثمانينات تقريبا أخذت لا أجيب السائلين غالبا إلاّ بأجوبة مكتوبة على أسئلة مكتوبة. ومن ثمّ تمكنت أولا من السيطرة على أفكاري وتثبيت ألفاظي وتعابيري، وثانيا من الاحتفاظ بنسخ مكتوبة من الحديث المقصود"[27].

وقد أضاف في موضع آخر اعتبارات أخرى، منها تفادي التأويلات الخاطئة، وعدم التأثر المباشر بالصحافي المحاور من جوانب مختلفة [28].

كما استعان بكم هائل من الصحف في بحوثه وكتبه، وخصص دراسات عديدة لمجلات معروفة استخرج منها كنوزا ثمينة من المعلومات عن تاريخ الجزائر والعالم العربي، منها: مجلة المنار [29] للشيخ محمد رشيد رضا، مجلة الآداب [30] للأديب سهيل إدريس، ومجلة العالم الإسلامي [31] الفرنسية.

بعد هذا العرض، يحق للقارئ أن يتساءل هنا: ما هو رأي الدكتور سعد الله في الصحافة الجزائرية بعد أن تعامل معها أكثر من نصف قرن؟ سجل الدكتور سعد الله تراجع الصحافة في اهتمامها بالثقافة والفكر وابتعادها عن الحرفية في النشر، فلم يعد همها إنارة القارئ، ولم تعد رسالتها نقل المعرفة، وإنما أصبحت تخضع لميزان الشهرة والنفوذ، بالإضافة إلى تهميش الكفاءات وممارسة الرقابة على كتاباتهم بطرق مختلفة كما وقعت له شخصيا، فقال في هذا الشأن: "إن إحدى الصحف أوقفت نشر مقالة لي في منتصفها، وأن أخرى حذفت عبارات وكلمات من مقالة أخرى لي، وأن ثالثة رفضت نشر تعليق على تهجم إحدى المؤسسات ضدي"[32].

ورغم هذه النظرة التشاؤمية والحذرة من الصحافة، تعامل كثيرا مع الصحافيين وأجاب عن أسئلتهم رغم بعضها المحرجة، ولم يفضل صحيفة على أخرى، أو يقدم صحافيا على آخر، فكانت الصحافة تمثل عنده دائما مجالا "للنشر وطرح للأفكار ودخول للعالم بالكلام المكتوب"[33].

لقد تفطن الدكتور سعد الله مبكرا لأهمية الصحافة في التعبير عن الآراء، ودورها في تبليغ الأفكار، وقوتها في التأثير على العقول، وكونها أكثر انسجاما مع طبيعته الميالة إلى الفعل أكثر من القول، لذلك بقيّ وفّيا للكتابة الصحفية إلى أيامه الأخيرة. وكانت الصحافة وفية له، فلم ينتشر بعد خبر وفاته فإذا بالأقلام تتزاحم على غير عادتها في تأبين مؤرخ ومفكر راحل، وتتنافس على إحياء ذكراه!

الهوامش:

(1) كان الدكتور سعد الله يمضي مقالاته خلال الفترة المدروسة باسمه الأصلي وهو بلقاسم سعد الله. وأحيانا يضيف إليه القماري، نسبة إلى مسقط رأسه قمار بمنطقة الوادي، الواقعة في الصحراء الجزائرية.

(2) نشرت جريدة البصائر قائمة الطلبة الناجحين في شهادة التحصيل، عددهم 42 طالبا منهم بلقاسم سعد الله، عبد الله ركيبي، على كافي، خليفة جنيدي... الخ: أنظر البصائر، العدد 294، 26 ديسمبر 1954.

(3) أبو القاسم سعد الله. خارج السرب. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص 97.

(4) مصدر سابق، ص 97.

(5) بلقاسم سعد الله. أمة المجد في الميدان. البصائر، العدد 165، 30 جويلية 1951.

(6) بلقاسم سعد الله. فلسفة الغرور. البصائر، العدد 170، 17 ديسمبر 1951.

(7) بلقاسم سعد الله. على هامش البعثة الجزائرية العراقية لجمعية العلماء. البصائر، العدد 212، 9 جانفي 1953؛ احتفال جمعية البعثة الزيتونية بالناجحين. البصائر، العدد 240، 11 سبتمبر 1953؛ شبابنا في ميدان العلوم والمعارف. البصائر، العدد 241، 25 سبتمبر 1953؛ بعثة جمعية العلماء بتونس تكرم الناجحين. البصائر، العدد 247، 13 نوفمبر 1953.

(8) أبو القاسم سعد الله. مسار قلم. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ج 1، ص 12؛ خارج السرب، ص 99.

(9) نشر الطالب سعد الله أول رسالة في 25 نوفمبر 1955 (العدد 342)، وآخر رسالة في 30 مارس 1956 (العدد 360).

(10) مسار قلم، مصدر سابق، ج 1، ص 12.

(11) أبو القاسم سعد الله. في الجدل الثقافي. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص 5.

(12) مراد وزناجي. حديث صريح مع الدكتور أبي القاسم سعد الله. منشورات الحبر، الجزائر،2008، ص 87-88.

(13) بلقاسم سعد الله. سعفة خضراء. البصائر، العدد 272، 21 ماي 1954، العدد 273، 28 ماي 1954، العدد 274، 11 جوان 1954.

(14) أبو القاسم سعد الله. أفكار جامحة. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص 185-186.

(15) بلقاسم سعد الله. طريقي. البصائر، العدد 311، 25 مارس 1955.

(16) خارج السرب، مصدر سابق، ص 98-99.

(17) بلقاسم سعد الله. من فنون ابن الرومي. العدد 243، 9 أكتوبر 1953؛ العدد 244، 23 أكتوبر 1953؛ العدد 247، 13 نوفمبر 1953.

[18] مولود عويمر. السجالات الفكرية في الجزائر (1936-1956). دار أيدكوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.

[19] بلقاسم سعد الله. مع حمار الحكيم. البصائر، العدد 250، 11 ديسمبر 1953.

[20] بلقاسم سعد الله. ما لهم لا ينطقون بين الإيجاب والسلب. البصائر، العدد 217، 13 فبراير 1953.

[21] عويمر، السجالات الفكرية، ص 108-109.

[22] إبراهيم الحمداني. شعرنا يمثلنا. البصائر، العدد 264، 26 مارس 1954.

[23] أبو القاسم سعد الله. منطلقات فكرية. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص 45-46.

[24] سعد الله. مسار قلم، ج 1، ص 10.

[25] سعد الله، منطلقات فكرية، ص 49.

[26] هذه الحوارات منشورة في كتابيه: قضايا شائكة، وحوارات.

[27] أبو القاسم سعد الله. قضايا شائكة. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص 5-6.

[28] أبو القاسم سعد الله. حوارات. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص 7.

[29] أبو القاسم سعد الله. بحوث في التاريخ العربي الإسلامي. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003، ص 106-125.

[30] أبو القاسم سعد الله. دراسات في الأدب الجزائري الحديث. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.

[31] مصدر سابق، ص 377-386، ص 419-447.

[32] قضايا شائكة، مصدر سابق، ص 154.

[33] خارج السرب، مصدر سابق، ص 101.

الكتابة التاريخية عند شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله
بين العاطفة الذاتية والحقيقة التاريخية

الدكتور محمد بليل
قسم العلوم الإنسانية -جامعة ابن خلدون تيارت

مقدمة:

يعتبر المرحوم أبو القاسم سعد الله شيخ المؤرخين الجزائريين، من أبرز أعمدة الكتابة التاريخية في الجزائر والعالم العربي الإسلامي، نظرا إلى المنتج التاريخي المهم الذي خلّفه بعد وفاته، تأليفا و تحقيقا وترجمة، وصال وجال عبر جامعات العالم محاضرا ومدرّسا وشارحا لتاريخ بلاده، وكان سفيرا للثقافة العربية الإسلامية أينما حلّ، بروح علمية ومنهج تاريخي أكاديمي، وركز في دراساته على التراث الحضاري للجزائريين في فترات مختلفة وركز على الفترتين الحديثة والمعاصرة لقربها من الدراسات الاستعمارية، التي حاولت التقليل من شأن تاريخ الجزائريين وحاولت جاهدة إدماج الجزائريين في منظومتها الثقافية.

حيث سنحاول علاج إشكالية الكتابة التاريخية، عند سعد الله في هذا البحث المتواضع، لنستفسر عن شخصيته ومكانته العلمية وتجربته في التأليف والمناهج المتبعة في دراساته ودوره في التأسيس للمدرسة التاريخية الجزائرية؟

وفي إطار تحضيرنا لهذه الدراسة، قمنا بقراءة نوعية لبعض مؤلفاته وحواراته مع وسائل الإعلام المكتوبة ومساهمات بعض الباحثين والكتاب الجزائريين والأجانب حول شخصيته وأهمية الكتابة التاريخية عنده من خلال ركن "مساهمات" التي تفضلت جريدة الشروق الجزائرية الموقرة، بفتحها أمام أصدقائه وطلبته والباحثين في التاريخ والكتاب في العديد من التخصصات.

مدخل: أبو القاسم سعد الله الإنسان والمؤرخ الجزائري:

أبو القاسم سعد الله شيخ المؤرخين الجزائريين من مواليد 1930م بضواحي قمار من ولاية الوادي بالجزائر، باحث ومؤرخ، حفظ القرآن الكريم، وتلقى مبادئ العلوم من لغة وفقه ودين، وهو من أبرز رجال الفكر الجزائريين، ومن أعلام الإصلاح الاجتماعي والديني. له سجل علمي حافل بالإنجازات من وظائف، ومؤلفات، وترجمات[1]، وفي سنة 1947 انتقل إلى جامع الزيتونة وبقي فيه حتى 1954 وحصل هناك على شهادة الأهلية، وابتداءً من الخمسينيات بدأ يكتب في صحيفة البصائر، لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين آنذاك، ثم بدأ يُعلم أبناء الجزائر سنة 1954 بمدرسة الثبات بالحرّاش شرقي العاصمة، وانتقل للتعليم في السنة الموالية إلى مدرسة التهذيب بعين الباردة التابعة حاليا لولاية سطيف[2]، وكان يطلق عليه "الناقد الصغير".

وفي أكتوبر من سنة 1955 سافر إلى القاهرة بمساعدة جمعية العلماء، وهناك التحق بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، وبعد أربع سنوات حصل على شهادة الليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وحاز على شهادة الماجستير في التاريخ والعلوم السياسية سنة 1962، ثم انتقل في نفس السنة إلى أميركا، حيث درس في جامعة مينيسوتا التي حصل منها على شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر باللغة الإنجليزية سنة 1965[3].

وتخصص في التأليف والترجمة، وكان حينها أستاذا مساعدا في التاريخ بجامعة ويسكونسن أوكلير بأمريكا ليعود بعد ذلك إلى الجزائر، حيث أصبح وكيل كلية الآداب بجامعة الجزائر 1968-1972م، ثمّ أستاذا ورئيس قسم للتاريخ فيها، وبتاريخ 1996 انتقل الفقيد إلى الأردن ودرسّ

التاريخ في جامعة آل البيت إلى أن عاد إلى الجزائر، والتحق بالجامعة الجزائرية مجددا سنة 2001 ومنذ ذلك العهد لم يترك التدريس في الجزائر وأشرف على عشرات رسائل الدكتوراه والماجيستر.

وإضافة على ذلك، فقد كانت له العديد من المساهمات التاريخية، حيث حاضر وشارك كأستاذ زائر في العديد من الجامعات العالمية كجامعتي ميشيغان مينيسوتا بأمريكا، وجامعة الملك عبد العزيز السعودية وجامعة دمشق (سورية) وجامعة عين شمس المصرية ومعهد البحوث والدراسات العربية بمصر أيضا، كما أنّ الأستاذ كان له نشاط أكاديمي كبير، حيث عين عدة مرات مبعوثا من وزارة التعليم العالي الجزائرية إلى الجامعات العربية في مصر وسورية والعراق لتوظيف الأساتذة، وممثل جامعة الجزائر في مؤتمر اتحاد الجامعات العربية الكويت 1971م وشغل مناصب عضوية في الكثير من اللجان منها لجنة إصلاح التعليم العالي، واللجنة الوطنية للتعريب. وعضو هيئة تحرير مجلة (المنار) المحكمة، جامعة آل البيت، الأردن منذ 1997م. ورئيس لجنة العلوم الإنسانية لمعادلة الشهادات الأجنبية الجزائر ورئيس لجنة ترقية الأساتذة المشاركين إلى رتبة أستاذ، في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية الجزائر.

منح المرحوم أبو القاسم العديد من الأوسمة، وحظي بالعديد من التشريفات تقديرا لمجهوداته الجبّارة ومواقفه الكبيرة، ومنها وسام المقاوم على المساهمة النشطة في الثورة الجزائرية، كما حظي بتكريم رئيس الجمهورية الأسبق الشاذلي بن جديد بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لاستقلال الجزائر، وهو الرئيس الشرفي لاتحاد الكتاب الجزائريين لسنوات عديدة، هذا وكرّمته نخبة من الأساتذة والأدباء بمناسبة صدور الطبعة الأولى من كتاب الحركة الوطنية الجزائرية، في مدرج جامعة الجزائر، ونفس الشيء مع أدباء وهران وأيضا بجامعة عنابة[4]، وعالميا شارك كضيف الشرف عند توزيع جوائز الدولة التقديرية السعودية سنة1984، ومنح جائزة الإمام ابن باديس من قبل مركز دراسات المستقبل الإسلامي الموجودة في لندن 1991م، الأستاذ شارك في عشرات المؤتمرات والندوات التاريخية والفكرية في العديد من دول العالم كتونس ومصر والسعودية والولايات المتحدة وفرنسا، وله العديد من المؤلفات الأدبية والتاريخية، توفي يوم 14 ديسمبر 2013 بالمستشفى العسكري "عين النعجة" بالجزائر حيث كان يتلقى العلاج فيه[5].

إذن أبو القاسم سعد الله هو أحد أعمدة الثقافة الجزائرية في مرحلة ما بعد الاستقلال، وبخاصة في التاريخ والأدب، وهو إلى جانب ذلك، كاتب متميز بمواقف صارمة في مجال التاريخ الوطني والعربي الاسلامي[6]؛ وشاعر متميز بفضل الكتابات العديدة في هذا المجال، مما جعله صاحب موسوعة ثقافية متميزة[7]، واتسم بصفة التواضع التي يتميز بها العالم عن غيره؛ وبذلك جمع بين العديد من صفات المثقف العالم.

هذا ما جعلنا نبحث في جانب من جوانب كتاباته العديدة، أبرزها تاريخ الجزائر السياسي والثقافي خلال الفترة الاستعمارية، إضافة لمواضيع اجتماعية وأدبية وإسلامية؛ وعمل أيضا كباحث منذ سنة 2008 بالمركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 في إطار كتاباته التاريخية، حيث أكمل بذلك مشواره العلمي والأكاديمي بصورة مشرفة قلما تميز بها مؤرخ آخر[8]، وبهذا السلوك والمثابرة، ظل المؤرخ الجزائري يعمل بشكل دؤوب وبدون كلل من أجل الوصول إلى الحقيقة التاريخية.

تجربة سعد الله مع الدراسات التاريخية الجزائرية خلال الفترة الاستعمارية:

تميزت الكتابة بمختلف أشكالها عند المؤرخ سعد الله، بالجدية والصرامة والعلمية واتباع أساليب دقيقة في مجال البحث التاريخي، بالحفر عن المصادر الغنية بالتراث والأدب والفكر وتحقيق مخطوطات العلماء الجزائريين في الفترات الحديثة والمعاصرة من أجل إثبات الحقيقة التاريخية، بأن الشعب الجزائري أنتج نخبا مثقفة في شتى العلوم؛ ردا على أكاذيب أنصار المدرسة الاستعمارية التي كانت تحاول إخفاء

إنجازات النخب الجزائرية وعلماءها وكتابها، ذلك ما تطرق له تطرق العديد من الأساتذة الحاضرين من رفقاء ومدعوين بمناسبة التأبينية التي قامت بها جريدة الشروق[9]، فأشادوا بخصاله العلمية وكتاباته التاريخية عن الأوضاع السياسية والثقافية التي عرفتها الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية، "حيث تطرق الدكتور محمد بلعيد عن ذكريات جمعته بالمؤرخ المرحوم أبو القاسم سعد الله، وإصرار هذا الأخير على البحث والتأليف في تاريخ الجزائر، بمواصلة تعليمه بعد تخرجه من الزيتونة، ورفض الاتحاد الوطني للطلبة الجزائريين إرساله في بعثة إلى المشرق وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية للدراسة، مشيرا إلى أنه عرضت عليه مناصب عديدة من بينها منصب وزير للإعلام وسفير إلا أنه رفضها جميعا وزهد فيها وآثر التفرغ للبحث والتأليف في الحركة الوطنية وتاريخ الجزائر.

وذكر الشيخ الحسيني أيضا في الكلمة التأبينية ما يلي[10]: "تعلمت الوطنية من سعد الله وحفظت كتاب سعد الله وأنا في الكويت وقرأت مقالاته المنشورة في مجلة "المعرفة" وهو في أمريكا، وقدر الله أن وظف في الشركة الوطنية للنشر والتوزيع كرئيس للقسم العربي، وتشاء الأقدار أن أكون من يستقبل إصدارات سعد الله. "أما الدكتور أمين الزاوي الذي صرّح قائلا [11]: "ما عساني أقول في هذا العالم الجليل الذي عرفته بوهران وهو يناقش أطروحة دكتوراه صديقي المرحوم عمار بلحسن، وكان هذا الأخير يرتجف من شدة ما يعرفه من حزم وصرامة، وكانت المناسبة فرصة للتعرف على الرجل الفاضل، تأكدت عندها انه ليس بوحيد اللغة كما كان يقال عنه أنه يتقن العربية فقط، وعرفت أنه يحسن الفرنسية والانجليزية والألمانية وغيرها من اللغات، وأدركت بعدها انه لا سلطان لهذا الرجل غير سلطان العلم والمعرفة، وأنه لا يحسب حسابا لشيء آخر غير هذه الأشياء".

واهتمّ أيضا سعد الله بالأدب والثقافة الشعبية حسب ما يذكر الإعلامي "أحمد حمدي"[12]: "تعرفت عليه في مجلة الآداب البيروتية لسهيل إدريس وكانت مدرسة للأدب الحديث التي جمعت عبد الوهاب البياتي ونازك الملائكة وبدر شاكر السياب ونزار قباني وكان أيضا سعد الله واحدا من هؤلاء رواد الشعر الحديث، وكان أول من أصدر ديوانا للشعر الجزائري الحديث "النصر للجزائر" سنة 1957 وأول من كشف عن أول رواية في الأدب العربي وهي رواية مصطفى بن إبراهيم في الوقت الذي كان الجميع يظن أن رواية هيكل "زينب" هي أول رواية عربية. وهو أوّل من اكتشف أول رواية عربية وصحح مغالطة هيكل، وألف كذلك كتابا في الشعر والأدب ناقش فيه وجهات نظره في النقد الأدبي والشعر والقصة وأعراض الآداب الأخرى[13].

وتحدث الشيخ محمد الصغير بلعلام مطولا عن التجربة النقدية في مجال الصحافة عند سعد الله قائلا[14]: "قليل من الناس يعرف أن الدكتور سعد الله كان صحفيا وناقدا وأديبا وتنازل عن هذه الوظيفة وتفرغ للتاريخ سنة 1969، عندما كنت رئيس تحرير مجلة "القبس" التي صدرت في مارس من نفس السنة، وهي الفترة التي عقد فيها ملتقى أدباء المغرب العربي بالرباط. وكان سعد الله من المشاركين في الملتقى، نشر له حوار وتحليل فيه بعض آرائه في الأدب باللغة العربية وباللغة الفرنسية. وقال فيه: "الأدب الجزائري ينبع من تجربة الشعب الجزائري والعربي والعالم الثالث وعليه جاء معبرا عن التحرير. . . الكتاب باللغة العربية يشعرون نفسيا وقوميا أن علاقتهم بالمستعمر علاقة اضطهاد، ويظهر على الكتاب بالفرنسية أن أدبهم يخضع لتأثيرات الثقافة الفرنسية. . . الثقافة الفرنسية متعالية ومتكبرة".

وتوضح لنا هذه الآراء المعبرة عن قوّة الكتابة عند سعد الله بمختلف أشكالها، أنه كتب في مجالات عديدة وربطها بتاريخ الشعب الجزائري والأمة الجزائرية، التي حاول الاستعمار الفرنسي، عبر تاريخه الاستعماري في الجزائر محو الذاكرة الجماعية للسكان الجزائريين من خلال كتابات ضباطه العسكريين[15] وبعض باحثيه المتحيزين[16]، باستثناء بعض الأكاديميين الذين اعتمدوا على أرشيف الإدارة الاستعمارية، وخرجوا باستنتاجات علمية موضوعية[17] وهو ما جعل المرحوم سعد الله يتوجه بقوة

للكتابة التاريخية، لإماطة اللثام عن الرصيد الثقافي والأدبي للجزائريين في ظل الاحتلال الفرنسي، ويطرح الإشكاليات المختلفة حولها[18]، مبرزا عبقرية الجزائريين الذين تحدو آلة الاستعمار التدميرية، من خلال نضال الشعب الجزائري عبر مقاوماته المختلفة في القرن التاسع عشر، وجهاده السياسي والثقافي منذ نهاية القرن التاسع عشر[19].

وقام سعد الله بالتوازي مع أعماله السابقة، بالعمل على موضوع الحركة الوطنية الجزائرية ما بين 1900- 1930 في إطار تحضيره لرسالة دكتوراه من الجامعة الأمريكية، والعمل في نفس الوقت التحضير لأجزاء عن هذا الموضوع في الفترات السابقة والمقبلة لها، والتفكير في البحث عن المشروع الثقافي للشعب الجزائري عبر فترة الاحتلال، حيث واجهته صعوبات جمّة ذاتية بفقدانه لقصاصات المادة العلمية والضغوط السياسية الممارسة على التيار العربي الإسلامي، والموضوعية التاريخية التي تبنها سعد الله في كتاباته بعيدا عن هذه الضغوط[20]، واستطاع أبو القاسم سعد الله تجاوز هذه المحن، حسب ما يذكر، هو نفسه في حديث مع إحدى الجرائد: "لذلك قصة طويلة لا يتسع لها هذا المجال وقد تحدثت عن ذلك في كلمة منشورة بعنوان "نكبة ثقافية" كما أشرت إليها في مقدمة الجزء الثالث من التاريخ الثقافي ومقدمة الجزء الثاني من الحركة الوطنية. وقد بقيت جرحا لا يندمل رغم أني أعدت كتابة الفصول الضائعة من الحركة الوطنية وغيرت منهجي في خطة التاريخ الثقافي في عهد الاحتلال، وراجعت كتبا ومخطوطات كنت قد قرأتها منذ زمن بعيد ومع ذلك فاتني الشيء الكثير رغم ما حفظته ذاكرتي وما ظل في بعض البطاقات الباقية"[21].

ويذكر أيضا أحد الباحثين الجزائريين في هذا الموضوع ما يلي[22]: "من أبلغ أمثلة الطموح العلمي التي عزّ نظيرها لدى المرحوم: تجاوزه لما سمّاه "النكبة الثقافية" التي ألمّت به عام 1988، ممثّلة في ضياع محفظته (في مطار هيثرو –لندن) المشتملة على الفصول الثلاثة الأخيرة من الجزء الأول من الحركة الوطنية (1830–1900)، أي قسمَه الثاني (مرحلة 1860–1900)، وبطاقات ذلك الجزء جميعا، وقسم هام من الجزء الثالث من تاريخ الجزائر الثقافي، وجميع بطاقات جزأيه الثالث والرابع. فرغم أنها زعزعته، إلا أنها لم تحبط مشروعه العلمي. . . ".

يدل هذا الحرص والإصرار على مواصلة هذا العمل الشاق من الكتابة التاريخية، حول التاريخ السياسي للجزائر في هذه الفترة، برهانا حقيقيا على تشبع هذا المؤرخ بالروح الوطنية الجادة والبعيدة عن كل تملق، وتؤكد لنا حرصه على التنقيب والبحث عن النخب الوطنية والتيارات السياسية التي غيرت من استراتيجية المقاومة اتجاه الغزو الفرنسي مؤكدا عظمة وبطولة المناضلين الجزائريين الذين تمكنوا من العودة بالشعب الجزائري إلى أصالته وطبائعه الأصيلة التي حاول الاستعمار تحطيمها وضربها في العمق، لذلك اتجه سعد الله إلى الكتابة عن التاريخ الثقافي للجزائريين خلال الفترة الاستعمارية، مقتنعا بوجود وثائق ومصادر تؤرخ لهده الفترة، عكس بعض دراسات الضباط الفرنسيين وبعض المؤرخين الفرنسيين الذين حاولوا اعتبار أن هذه الأرض كانت خالية من العلماء والمثقفين وأنها بدأت مع الاستنارة الفرنسية[23].

وقد وضح العديد من الباحثين الجزائريين الكتابة التاريخية عند سعد الله في المجال الثقافي، بأنه أثبت عبقرية الجزائريين عبر هذه الفترة بكاتباتهم التاريخية وفي مجال الصحافة وفي الأدب والفن والمسرح، مما يوحي بأن الجزائريين لم يستسلموا للمشروع الحضاري الفرنسي المزعوم! مثل ما يذكر الكاتب أحمد ابن السائح[24]: "وأنتج في مجال تخصصه طائفة من التأليف الموسوعية ككتابه الضخم "تاريخ الجزائر الثقافي " الذي جاء في عشرة مجلدات، واشتمل على أكثر من 5071 صفحة، وموسوعته الأخرى "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" المؤلفة من خمسة مجلدات واشتملت على 1675 صفحة... وستبقى كتبه ودراساته شاهدة على موسوعيته وأصالة أبحاثه وغزارة علمه؛ فهو الرجل الذي جمع أطراف العلم، واعتكف في محراب التاريخ، ورابط دهرًا طويلا في خنادق الأدب، وكان بحق المفكر والمؤرخ والرحالة الطَّوَّاف الذي جاب الأمصار والبقاع النائية

من أجل استكمال معلومة أو تسجيل تهميش يظنهما البعض من البساطة بمكان...".

وتحدث الكاتب أيضا عن المكانة العلمية والتاريخية عند عودته إلى الجامعة الجزائرية بالتدريس والبحث والمحاضرات وتحرير الدرس التاريخي من قبضة المدرسة التاريخية الفرنسية، وتفسيرها المغرض للتاريخ من وجهة النظرية الاستعمارية الشوفينية[25].

أما في مجال الكتابة التاريخية حول الثورة التحريرية، فيبدو سعد الله متحفظا في الغوص فيها حسب العديد من الدراسات والمحاضرات التي تطرق فيها لهذا الموضوع بسبب حساسية الموقف وحداثة الفترة، التي لا زال بعض أصحابها سادة صناع القرار، وصعوبة الوصول إلى الوثائق التاريخية وتناقض روايات أصحاب الشهادات الأحياء، مما يصعب من مهمة الباحث التاريخي في هذا الموضوع وقد تطرق سعد الله لهذه الحساسية في الكثير من كتاباته، حيث خصص لها حيزا لإحدى المقالات المنشورة حول إشكالية الكتابة التاريخية[26]، وأيضا في حوار مع جريدة الحقائق الأسبوعية، موضحا في رده على سؤال يتناول أسباب تحفظه في الكتابة على هذا الموضوع في ما يلي[27]:

"التاريخ يجب أن يكتب من مسافة زمنية معقولة أي بعد انقراض الجيل الذي صنع أحداثه، وكلما ابتعدت المسافة كلما توفر التفسير الموضوعي ومعالجة الأحداث ببرودة علمية. أما إذا اقتربت المسافة فإن حرارة العاطفة هي التي ستطغى وتعطي للأحداث تفسيرا غير موضوعي يكون عادة خاضعا لنزوات الأشخاص الدين صنعوا الأحداث، ومن ثم كنت أعتقد أن تاريخ الثورة ما يزال غير جاهز لتناوله في الكتابات التاريخية الأكاديمية".

نعتقد أن سعد الله قد جال وصال في تاريخ الجزائر، وترك لنا رصيدا هاما من المادة التاريخية الموضوعية عن تاريخ الجزائر في العديد من المواضيع السياسية والثقافية، المتمثلة في وجود شعب وأمة فوق هذا التراب الوطني الذي حاول المستوطنون مصادرته من الجزائريين بفضل الترسانة التشريعية العقارية، محاولين طرد السكان الأصليين من أملاكهم والسكن محلهم وفق سياسة استعمارية ممنهجة طبقا لمراحل، من أجل القضاء على هذا الجنس أو إبعاده عن وطنه [28]، ذلك ما استخلصناه من أبحاث سعد الله، الذي اتبع منهجا تاريخيا صارما في تحليل المادة التاريخية التي توفرت لديه ومناقشة أراء الكتاب والمؤرخين والتحقيق في المخطوطات من أجل الوصول للحقيقة التاريخية النسبية.

خصوصيات المنهج التاريخي عند أبو القاسم سعد الله:

أ-واقعية الطرح التاريخي: أجاد المرحوم أبو القاسم سعد الله، الكتابة التاريخية بشكل متميز، نظرا لواقعية الأفكار التي طرحها للمناقشة ثمّ التحليل والخروج بنتائج غزيرة، بفعل قوّة الاطلاع والتمحيص والنقد، وهي أساليب علمية، تناولها المختصون في علم المنهجية من باحثين مشارقة[29] ومغاربة[30]، استطاع سعد الله في نظرنا التعمق في هذه المناهج ووظفها في دراساته وبحوثه، مما جعل طرحه العلمي يتميز بالموضوعية وعدم السكوت عن الحقائق التاريخية التي توصل إليها.

وعندما تحدث عن مسألة كتابة التاريخ الوطني، عبَّر عن أمله في أن تظهر فئة من الباحثين تهتم بكتابة تاريخنا من أجل "الكشف عن الذات الجزائرية وتحديد أبعادها وإبراز مساهمتها في الحضارة الإنسانية عامة والحضارة العربية الإسلامية خاصة". ويتساءل عن ذلك بقوله: متى يتحقق هذا الأمل"[31]؟

أما في مجال الهوية الوطنية ولغة الجزائريين التي حاول الاستعمار طمسها، فكان مؤرخنا من الدافعين عنها بشراسة في مخالف كتاباته، ولذلك أتقن عدّة لغات من أجل الإلمام بما كتب عن الجزائريين عبر تاريخهم الطويل وماضيهم المتنوع والوقوف ضد المعجبين بلغة استعمار الأمس، لأنه كان طريدا في عهده و تعلّم في غير مدارسه، ورغم ذلك لم يقف موقفا متعصبا من اللغة الفرنسية فتعلمها وكتب بها[32]، ولكنه لم يتردد في الدفاع عن لغته الأصلية في كل مناسبة وظل ملتصقا بهويته العربية والإسلامية ولم يتنكر لها وظل

واضحا وضوح الشمس في هذه القضية في جلّ كتاباته رغم تغير الأحوال وحدوث الأهوال، لأنه في نظرنا لم يكن يعبر عن اتجاه حزبي معين وإنما عن هوية شعب، ترسخت لديه هذه اللغة في وجدانه فاحتضنها سعد الله، انطلاقا من قناعته الراسخة كإنسان جزائري مسلم، لم يتنكر لهويته حسب اعتقادنا، مثل ما يجيب على سؤال صحفي إحدى المجلات[33]:

"بقي أن نشير إلى مسألة إبادة اللغة أو تدمير الهوية، لقد تناولنا هذا الموضوع في كتاباتنا عدة مرات، وقد سبقنا إليه الوطنيون في كل جيل وعملوا على مقاومة هذه الإبادة وهذا التدمير كل في مجاله. ومن الأسف أننا نحن الجيل الحاضر نعترف بما حدث لهويتنا، بما فيها اللغة، وننعى باللائمة على الاستعمار، ولكننا الآن نفعل مثله أو أكثر منه في تدمير هويتنا بأنفسنا...".

وفي مواضيع أخرى نجد سعد الله يتناول كتاباته التاريخية بالموضوعية، محاولا نقد المصادر التي أخذ منها معلوماته، فنجده في الكثير من المرات، يستشهد بما كتبه أنصار المدرسة الاستعمارية في مقالات له عن تاريخ الجزائر و يتطرق لمقاصد الكتابة عندهم ثم الكشف عن خباياها، دون نسيان محاسنها وفوائدها لدى الباحثين الجزائريين، ففي مقال له عن منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر[34]، نجده يتبع صيرورة هذه الكتابة عند العسكريين الفرنسيين والمؤرخين الأكاديميين والباحثين الفرنسيين الموضوعيين، وفي نفس الوقت ينتقد بعضهم بشكل موضوعي، أمثال كتابات شارل أندري جوليان[35].

واهتم أيضا سعد الله بكتابات الجزائريين المتعددة في الفترة الحديثة، حيث حقق الكثير من المخطوطات، وكشف عن أهمية تلك المصادر التي أرّخت للجزائريين كابن الفكون وأبو راس الناصري والأغواطي والعديد من المصادر الهامة التي اضحت في متناولنا[36] وترجم العديد من الدراسات، وألف العديد من الدراسات التي تحدثنا عنها سابقا، فنجدة في دراسة الحركة الوطنية يقارن ما بين المصادر الجزائرية التي كانت شاهدة على الأحداث أو كانت من صناعها أمثال فرحات عباس وابن باديس ومصالي الحاج وغيرهم والمصادر الأرشيفية الفرنسية والجرائد المعاصرة خاصة منها البريطانية والأمريكية، حيث يحاول أن يكتب تاريخا بعيدا عن المتأثرات والضغوط، بهدف الوصول للحقيقة التاريخية وهو متيقن بأن كتاباته التي مسّت الحركة الوطنية كتبها بعدا عن الضغوط النفسية والعاطفية، خارج أرض الوطن بالولايات المتحدة الأمريكية[37].

حاول سعد الله أن يكون موضوعيا في استرداده للذاكرة التاريخية للنخب الجزائرية وتياراتها وحاول تتبع مساراتها وأعلامها وإنجازاتها بالتساوي، رغم النقص الذي لاحظه هو بنفسه في التقصير عن الكتابة عن الحزب الشيوعي بعد الحرب العالمية الثانية، وهو ما يؤكد الروح النقدية في كتاباته وقد لاحظ العديد من الباحثين مواقف سلبية لسعد الله اتجاه بعض قضايا التاريخ الوطني، خاصة ما تعلق بالمسألة الأمازيغية وطرح بعض نخبها الشوفيني اتجاه العنصر العربي والثقافة الاسلامية بسبب الصراعات الثقافية والجهوية، ولكن حسب تلك الدراسات فإن سعد الله كان يتراجع عن أفكاره السابقة اتجاهها كلما توصل إلى نتائج عن هذا الموضوع[38].

وكان سعد الله حريصا أيضا على الابتعاد عن الضغوط في الكتابة التاريخي، حتى ولو كانت تمس السلطة القائمة في بلده، فهو لم يتردد في ذكر كل الجزئيات ذات الحساسية مثل ما يجيب على سؤال لإحدى الجرائد[39]: "أما عن موقفي فإنني كتبت ما كتبت بعيدا عن السلطة التي لا أشعر أنني مدين لها بشيء. وعندما يتحرر الإنسان من "الديون" يستطيع أن يفكر بحرية. . . والحق أنني لم أطلب من السلطة شيئا لم تعطني إياه حتى أغضب فأكتب ضدها فأنا ألاحظ وأبحث وأكتب ما قد يكون لصالحها أو ضدها دون شعور بأنني أسترضي أو أهاجم لغرض ما، وكلما ابتعد المؤرخ عن الطمع كلما شعر بالحرية وكتب ما يمليه عليه الضمير والحقيقة وأنا لا أثأر من أحد ولا أطمع في أحد قناعة بما عندي. . . ".

ومن هذا المنطلق نجد أن كتابات سعد الله تميزت في عمومها بالطرح الموضوعي والعلمي نظرا لاعتمادها على مناهج علمية أصيلة تمّ وضعها من قبل مختصين في مجال العمل المنهجي باسترداد الأحداث التاريخية وتحليلها بطريقة موضوعية[40]، لكن سعد الله يبقى إنسانا قبل أن يكون مؤرخا، فله كيانه وأحاسيسه الوطنية والدينية، مما لا يمكن لأي باحث أن يتطاول على تشبث شيخ المؤرخين بأصالته وانتماءاته، التي لم يخفيها في كتاباته المختلفة.

ب-ذاتية الانتماء العربي الاسلامي: ناضل كثيرا في صفوف الجامعة الجزائرية، محاولا إبراز الطرح الموضوعي للدراسات التاريخية العربية الاسلامية في مواجهة بعض التيارات التغريبية التي كانت تصر على ربط مصير الأجيال الشابة بثقافة مستعمر الأمس، ذلك ما استخلصناه في طرحه الموضوعي لقضايا الساعة من خلال المقالات التي كانت تنشرها له جرائد وطنية في عهد الحزب الواحد مثل جريد الشعب[41] التي نشرت له العديد من المقالات العامة حول تاريخ الجزائريين ومستقبلهم في ظل هويتهم، التي ناضل من أجلها الآباء والأحفاد من أجيال الحركة الوطنية وثورة التحرير المجيدة وأيضا جرائد وطنية أخرى في عهد التعددية السياسية في الجزائر أمثال جريدة الشروق الجزائرية[42].

فحسب أحد الباحثين الجزائريين الذي ناقش وحلل مواقف سعد الله اتجاه مناهج التدريس وآليات تلقين العلوم للطلبة الجزائريين موضحا[43]: "كانت الجامعة الجزائرية في الستينيات جزائريةً بالاسم فقط، أما المناهج واللغة فكانت فرنسية، وكان الأساتذة الفرنسيون يستحوذون على نصيب الأسد من المناصب البيداغوجية فيها، حتى في تدريس التاريخ الجزائري! وتصدى الأساتذة المعرّبون لهذا الشذوذ الثقافي، رافعين شعارات التعريب، والجزْأرة، والديمقراطية. ونشبت معركة وقف فيها كثير من الجزائريين المستَلَبين ضد إصلاح الجامعة. . . ".

وكان الدكتور سعد الله يرى ضرورة احترام المبادئ الوطنية وهويتها معتقدا، بأنّ سيادة الجزائر ونهضتَها لا تتحقّق ولا تكتمل إلا بإعادة إدماجها في محيطها الطبيعي العربي الإسلامي، موجها النقد للتيار الفرونكوفيلي المتشبّث بالواقع القائم، وفي نفس الوقت ناضل ضد الرداءة والفوضى وتحريف الجامعة عن دورها الحضاري[44].

وقد كتب المؤرخ أبو القاسم سعد الله، العديد من المقالات التي تشير إلى هذا الطرح، ونعتبر ذلك أمرا طبيعيا لمواطن ناضل في صفوف الطلاب المسلمين بالقاهرة وتونس وشارك جمعية العلماء المسلمين همومها ونضالاتها وكتب عنها الكثير لإنصافها من التيار التغريبي بعد الاستقلال الذي حاول جاهدا إبعادها عن الساحة الوطنية، مركزا بأنها كانت جمعية دينية وخيرية إسلامية، متناسيا مواقفها المشرفة اتجاه القضايا الوطنية وثورة التحرير المباركة[45]، وقد سجل الدكتور خليفي عبد القادر في مقال له عن البعد الاسلامي في كتابات سعد الله، تشبثه بالإسلام والعروبة التي دافعت عنها جمعية العلماء إبان الحقبة الاستعمارية موضحا[46]: "ورد في كثير من كتابات الأستاذ سعد الله اقتران العروبة بالإسلام، فالكاتب يعتبر العنصرين مرتبطين معا، وذلك عندما يشير إلى الجزائر أو إلى قضايا إسلامية مصيرية معينة، ويعتبر الأستاذ كتاباتِهِ تدخل في إطار الثقافة العربية الإسلامية، حين يذكر أن الجائزة التي مُنِحت له باسم "جائزة الإمام ابن باديس" بقسنطينة في أبريل من سنة 1991، كانت من أجل مساهمته في حركة التأليف في الثقافة العربية الإسلامية".

ونسجل في هذا الصدد قوّة تمسك سعد الله بالميراث التاريخي العربي الاسلامي للجزائريين منذ الفتح الاسلامي وانصهار سكان هذا البلد مع الرصيد التاريخي الضخم، الذي اجتمع حوله الجميع دون أن تلغى الخصائص المميزة لكل منطقة، بشرط أن تكون بعيدة عن التأثيرات الاستعمارية.

ج-التفتح الحضاري على الدراسات العالمية وفق مناهج علمية حديثة: إن المتتبع لكتابات المؤرخ سعد الله خارج نطاق الكتابة التاريخية، سنجده يتابع تطور الأحداث التاريخية التي حدث في الماضي والحاضر على مستوى العالم الاسلامي والغرب الأوربي، فحاول تبني مواقف علمية بالتفتح على التراث العالمي خاصة البلدان الأنجلوسكسونية

التي اتقن لغتها وألف بها الكثير من دراساته، وجسد من خلالها أفكاره المنطلقة من المبادئ الإنسانية التي آمن بها، وفق منهج علمي صارم.

ولذلك تجلت مساهمة الدكتور سعد الله في التأسيس لحلّ إشكالية الوعي التاريخي في دعوته إلى التسلّح بالمناهج العلمية الحديثة، وكتابة التاريخ العلمي الدقيق لا التاريخ الاستعراضي أو تاريخ المناسبات، واجتهاده في إظهار الحقائق، وإبراز قيمة الأبطال، خلافًا لما ينعاهُ على الجزائريين من الزهد في الكتابة، والركون إلى الأوهام، وتهوين قيمة الرموز"[47] ولم يكن الأستاذ الراحل ببعيد عن محيطه المحلي والدولي، فقد استلهم الكثير من الأفكار والتجارب من مفكرين كبار أمثال مالك بن نبي وعبد الحميد ابن باديس ومحمد عبده والمفكر شكيب أرسلان[48] واستفاد من تجارب الكثير من المؤرخين العالميين أمثال أرلوند توينبي[49].

ونجح سعد الله في إثبات ذاتية الجزائريين وفق هذا الأفق الحضاري ومعالجة إشكالية الوعي التاريخي، بالرجوع إلى الأصول والمصادر الحقيقية التي تثبت دور الجزائريين في الإنتاج الفكري والأدبي من خلال ما يكشف لنا في مؤلفه "مسار قلم، وتسلح سعد الله في معالجة هذه الإشكالية وفق مناهج علمية حديثة، في جلّ كتاباته التي عبرت عن مدى التزامه بمنهج البحث العلمي المتزن مع مبادئه الوطنية والإنسانية، فكشف لقرائه وللطلبة والباحثين، أن الجزائر تقع في العالم العربي الإسلامي، وكان لها تاريخا أرتبط بالتقلبات والمتغيرات الدولية حيث ركّز عل الفترة الحديثة التي سبقت الاحتلال الفرنسي للجزائر بترجمته للعديد من الدراسات خلال الفترة العثمانية، موضحا أن الجزائر كان لها كيانا سياسيا معترف به دوليا[50]، ثمّ تناول في دراسات أخرى، تنامي الوعي التاريخي للجزائريين، التي عرفت بروز نخب مثقفة باللغتين طالبت الاستعمار بالوفاء بعهوده و ذلك بتمكين الجزائريين بحقوقهم الشرعية، حيث ركزّ على مجموعة الشبان الجزائريين وعلى رأسهم الأمير خالد الجزائري حفيد أبرز المقاومين للغطرسة الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر "الأمير عبد القادر الجزائري"، ثمّ عالج إشكالية النخب السياسية خلال القرن العشرين التي تمكنت من تبني الأسلوب السياسي في مقاومة فرنسا الاستعمارية، وقد تتبع مسيرة هذه النخب وعالج أوضعها النفسية والفكرية والاجتماعية[51] وأنها استطاعت تحدي أساليب الاستعمار وتفتحت على مناهجه السياسية، وهو بذلك قد استطاع مناقشة إشكالية الانغلاق والتفتح من منظور تاريخي ووفق معطيات معاصرة للحدث الاستعماري.

ووفق هذا المنهج الحضاري الذي استلهمه من تجاربه مع الدراسات العالمية، فإنه قد ساهم في تعميق وبلورة التوجّه الثقافي الساعي إلى فكّ الارتباط بالموروث الاستعماري والثقافة التقليدية الميّتة، دون الانغلاق على الذات، بل التفتح على الثقافات المعاصرة للحدث التاريخي الذي عالجه في العديد من دراساته[52].

ولا غرو إذا أكدنا، بأن المؤرخ والأديب سعد الله من القامات الكبيرة في عالم الكتابة بالجزائر، وأخرج تاريخ الجزائر السياسي والثقافي من خزائنه المغلقة إلى الضوء ليحيا مع التاريخ الإنساني، ويتألق في الأفق مفندا نظرية الاستعمار الحضارية التي سرقت تراث الجزائريين إلى خزائنها بحجة حمايته ولم تشرك الجزائريين في دراسته وتعليم تاريخهم[53]، بل أخفت ذلك لتحاول أن تظهر للعلن بأنها جاءت لإنقاذ الجزائريين من التخلف، وبهذا التصور والقناعة الراسخة لدى مؤرخنا المرحوم، فإنه قام برفع راية الجزائريين شامخ، أينما حلّ بالدراسة والمحاضرة والكتابة بمختلف ألسن البشرية.

ومما لاشك فيه أن الدكتور أبو القاسم سعد الله يقدّم لنا نموذجا حيا في هذا المجال عن الأهمية الكبيرة للوعي التاريخي في تحصين الأفراد والمجتمع، وتحقيق توافقهما النفسي، وانسجامهما الاجتماعي فهو رحمه الله كان يتقن الإنجليزية، ويعرف الفرنسية والألمانية. . . ودرس في الولايات المتحدة حتى نال شهادة الدكتوراه، وانفتح على الثقافة العالمية المعاصرة وآدابها وتياراتها ومناهجها، في سن

عمْرية حساسة، وفي مرحلة تاريخية كان العالم فيها يغلي بالأفكار اليسارية واليمينية والتلفيقية، التي جرفت واستوعبت جل النخب الوطنية والعربية والإسلامية. . . وحولتها إلى دعاة ومبشرين بها ومجسدين لها في حياتهم الخاصة، وفيما يتاح لهم من مسئوليات ثقافية أو اجتماعية أو سياسية عامة في المجتمع"[54]، وهو بذلك استوعب التاريخ و وظفه في الحاضر من أجل تدارك النقائص والأخطاء للأجيال الصاعدة وحاول أن يقدم لها مشعل الثورة، لأنها بريئة من أخطاء الأجداد و الآباء الذين ارتكبوا أخطاءً، حاولوا تكراراها مع أبنائهم في فترة الاستقلال[55]، لذلك كتب كل التراث الثقافي و الأدبي من أجل أن يبرز للأجيال اللاحقة، نجاحات آبائهم وإخفاقاتهم، محاولا نصحهم بالتدبر والقراءة التاريخية من بناء تصور مستقبلي قليل الأخطاء وذلك بالتمسك بالمبادئ والأفكار التي اعتصمت بها الأجيال الماضية.

سعد الله رائد من رواد المدرسة التاريخية الجزائرية:

إنّ المتتبع لمسار الكتابة بمختلف اشكالها عند أبي القاسم سعد الله، سيلاحظ عمق المادة العلمية، المتعلقة بربط الماضي التاريخي لحركة الشعوب بواقعها الحاضر وفق معطيات دقيقة، من أجل استخلاص النتائج وتقريب المفاهيم الأساسية لمتغيرات حركة التاريخ، وبذلك نعتبره ابن خلدون عصره بالنسبة للعالم العربي الإسلامي، الذي شرّح واقع العالم الإسلامي التاريخي وركزّ على تاريخ بلاده، وحاول الإلمام بتاريخ البشرية لوضع مقاربات تاريخية مشتركة مع وجهة الأخر في مجال التحقيق وتأصيل المادة التاريخية، بتحويل المادة الخام إلى كلمات معبرة عن حركة الشعوب التاريخية.

وقد جسد سعد الله هذه النظريات التاريخية في تعامله مع الحقائق التاريخية، بعيدا عن الضغوط مثل ما وضح ذلك في العديد من المناسبات الإعلامية، بالرد على أسئلة الصحفيين في كيفية تعامل المؤرخ مع المستجدات التاريخية الماضية وتأثيراتها على أنظمة الحكم القائمة قوله[56]: "هناك اعتقاد سائد عندنا وهو أن المؤرخ كالسياسي إما أن يكون في السلطة أو المعارضة، وهذا في نظري اعتقاد خاطئ، فالمؤرخ قد يكون متفقا مع السلطة في بعض مواقفها وقد يكون مخالفا لها منتقدا تصرفاتها، مع العلم أنه يؤرخ لسلطات سابقة عن زمنه وليس بالضرورة لسلطة قائمة في وقته. وأمامنا مؤرخو الدول الغربية المعاصرة فهم يشاركون السلطة القائمة في توجهاتها أحيانا حتى يشعرونك بأنهم قد أصبحوا من خدامها ومن الممهدين لنشاطها وتدخلاتها ولكنهم قد ينتقدون قادتها نقدا لاذعا على تصرفاتهم الحمقاء إذا رأوا أن ذلك ضد مصالح الأمة"، و يضيف سعد الله موضحا مهمة المؤرخ ودوره العلمي في إظهار الحقيقة التاريخية النسبية دون توجيه اللوم بشكل دائم للسلطات الماضية التي أرّخ لها، أو التي يعيش في أحضانها: "ثم إن المؤرخ ليس دائما هو الذي يؤرخ لعصره نذلك أن عصور التاريخ كثيرة ومتباعدة ولكن رموز السلطة، تكون واحدة ولذلك فإن المؤرخ يجد نفسه ناقدا لسلطة عصره أو مؤيدا لها صراحة أو ضمنيا، وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك مؤرخا محافظا وآخر ليبراليا وهناك المؤرخ المستقل البعيد عن أهل القرار، وبالجملة فالمؤرخ إنسان قبل كل شيء يتأثر بما حوله من بيئة وأسرة وتطورات علمية وسلطة وإعلام وتقاليد. . . "[57].

وقد وجه سعد الله في العديد من المحاضرات والمداخلات الإعلامية، نقدا لاذعا لكتاب انجروا وراء الجاه والمكانة المرموقة سرعان ما تغيرت هذه النظم، ووجد هؤلاء الكتاب المتحيزين لهذه الأنظمة أنفسهم خارج مجال التاريخ مثل ما يوضح: "وحديثي الذي أشرتم إليه كان عن الكتاب وليس المؤرخين وللأسف فإن البعض من الكتاب خضع لإغراءات السلطة وأحيانا ضغوطاتها وأيديولوجياتها فانضموا إليها وطبلوا لها وغنوا معها في زفة واحدة، وهم بذلك تركوا الشعب والمستقبل والضمير وراءهم فكانوا مأجورين وليسوا أصلاء، وكان إنتاجهم إنتاجا ظرفيا سرعان ما ذرته الرياح وهذه الظاهرة ما تزال ماثلة عندنا. . . " [58].

ونستطيع أن نلمّ بمصداقية الطرح الذي تبناه سعد الله في العديد من دراساته ومقالاته في الصحف الجزائرية، لنتأكد من الخصوصيات البارزة لسعد الله في المجال التاريخي، حيث شهد له الباحثون الجزائريون والأجانب بصفة شيخ المؤرخين، ونستطيع أن نقرر الآن أن الدكتور سعد الله هو رائد المدرسة التاريخية الجزائرية، وواضع بذورها في تربة الواقع الأكاديمي الجزائري، وصاحب مشروعها العلمي بدون منازع، وهو الذي رعى طوال مشواره العلمي الحافل بالأعمال الجليلة والمؤلفات الجادة التي تدافع عن الأرض وتذود عن العرض، وتتصدى للدجل العلمي الزائف باسم أكذوبة البحث العلمي بها الأجيال الماضية رغم أخطائها[59].

ونعتقد أن سعد الله من خلال هذه المميزات التي وضحناها سابقا، بأنه "تحول إلى مدرسة قائمة بذاتها ورمز علمي قضَّى أكثر من خمس وستين سنة فارسًا لا يُشقُّ له غبار في ميدان العلم. . . "[60]، وعاش شبابه وكهولته وشيخوخته بين الدفتر والقلم، وأحب الكتابة وتابع البحث إلى درجة كبيرة، فتحققت أمانيه، وأضحى مرتبطا بالكتابة لا يستغنى عنها، حسب تصرح طبيبه المعالج الذي نصحه بالكف عنها، إلا أنه توفى رحمة الله بين صفحات الكتب[61].

ونجد أنفسنا أمام مؤرخ قد أرسى قواعد المدرسة التاريخية الجزائرية، وساهم الراحل في بناء صرح التاريخ الوطني وبناء المدونة التاريخية الجزائرية، وفق قاعدتين أساسيتين وهما[62]:

-قاعدة تاريخ الجزائر السياسي والعسكري المعاصر، بتتبع مسيرة الصراع بين الجزائريين والفرنسيين خلال فترة الاستعمار الفرنسي، حيث لم يدرس بعدُ باستيعاب، ومن هنا كان طموحه، تقديم أرضية يمكن للباحثين اللاّحقين الاستفادة منها والانطلاق منها.

-وقاعدة أوسع لتاريخ الجزائر الثقافي، الذي حاول من خلالها الكشف عن الميراث الثقافي الضخم للجزائريين عبر العصور".

وقد ذكر سعد الله في إحدى مقالاته هذه النظرة المعبرة عن دور المؤرخ النزيه، الذي يخدم وطنه بالكشف عن الحقائق لا تدليسها قائلا: "طالما تحدث المؤرخون عن الموضوعية، وطالبوا بأن يكون المؤرخ مجردا في أحكامه بعيدا عن الأهواء والتأثيرات الخارجية، باحثا عن الحقيقة حيثما وجدها، مصدر أحكامه مهما كانت قاسية ضد الذين يكتب عنهم أو ينتمي إليهم مستخرجا حججه من النصوص والوثائق والآثار. . . هذا هو علم التاريخ كما تطور من هيرودوت إلى توينبي مارا بابن خلدون: إعادة بماء وإحياء الماضي كما كان لا كما يريده الفرد أن يكون"[63].

ومن هذا المنطلق فمؤرخنا رحمة الله عليه قد تألق في مجال التاريخ، وميادين أخرى، وبذلك "خدم الدكتور أبو القاسم سعد الله المجتمع الجزائري خدمة تاريخية وثقافية وأدبية ولغوية وتربوية وسياسية واجتماعية ونقدية، خدمة لا نجدها عند غيره من أعلام الفكر الجزائري؛ قديما وحديثا. . . فهو عالم لا يُشق له غبار في منهج كتابة التاريخ وخدمة التراث والتعامل معه. إنه صاحب تجربة طويلة، أفنى عمره في البحث والتنقيب مُرتحلا إلى جهات مختلفة في أنحاء العالم، ولا نجانب الحقيقة إذا قلنا: إن الرجل صاحب مدرسة متميزة كوَّن رعيلا من الباحثين في مجال العلوم الإنسانية، كالتاريخ والآداب والرحلات والاجتماعيات وغيرها"[64].

وبهذا التصور تمكن سعد الله من بناء أسس مميزة للمدرسة التاريخية الجزائرية، ونجح الأستاذ سعد الله في هذا المضمار إلى حدّ بعيد في تخطيط معالم مدرسة تاريخية جزائرية، ذات منهج عصري، ولسان عربي، ومضمون أصيل ووطني[65].

وشهد للأستاذ المرحوم خيرة طلبته والمتابعين له عن بعد أو قرب، هذه المكانة العلمية التاريخية التي لقب من خلالها بشيخ المؤرخين، مثلما سبقت الإشارة إليه، وبالفعل قد عاد سعد الله إلى وطنه بعد غربة ليست بالقصيرة مؤسسا برفقة الباحثين الجزائريين من رفاقه وطلبته، أسس المدرسة التاريخية الجزائرية، وذلك بالمساهمة العلمية والمنهجية

والفكرية في إثراء المكتبة الوطنية التي ظلت تشكو من قلة الدراسات الأكاديمية المعبرة فعلا عن تاريخ الشعب الجزائري العريق [66].

وقد تميز سعد الله في مجال الدراسات التاريخية بالجدية والصبر مع طلبته خلال المحاضرات و عمليات التأطير، حسب ما يذكر الأستاذ فيلالي[67]: "فكان الأستاذ مفعما بالحيوية والنشاط، غزير العلم، واسع المعارف، يحرص على أن يفرغ ما وسعه فهمه وعقله وذوقه وحسه الى طلابه، بكل جدية وعمق. . . فحاول الأستاذ الدكتور، نقل ما يمكن نقله، من أحدث ما توصلت إليه العلوم الاجتماعية من تطور وتقدم. . . ومعرفة منهجه، وتوسيع أفاق الإدراك به، وتعويد الطالب على حب العلم والقراءة، والتحكم في وسائل البحث واكتساب المعارف والتعمق في اللغة التي يدرس بها. وكان الأستاذ صارما جدا، في دروسه وتوجيهاته، معروفا بتشدده العلمي والمعرفي، فكانت له مقاييس منهجية ولغوية، لا يتساهل فيها مع طلابه، وخاصة منهم طلاب الدراسات العليا، وأن صرامته هذه صرامة الصادقين الناصحين".

وبهذا السلوك السوي تمكن أبو القاسم سعد الله من تكوين دفعات عديدة من الطلبة وتأطير الكثير منهم في الدراسات العليا، حيث أصبحوا اليوم أساتذة الجامعات الجزائرية، وتمكن جيل منهم في الكتابة التاريخية تيمنا بشيخهم سعد الله، الذي يبقى في نظرنا وفي اعتقاد طلبته وقرائه، نبراسا أنار الطريق أمامنا في مجال الكتابة التاريخية الموضوعية، الرافضة لتدخل الكتابة التاريخية الاستعمارية.

وبهذا المفهوم يمكننا الجزم، أن نقرر الآن أن الدكتور سعد الله هو رائد المدرسة التاريخية الجزائرية، وواضع أسس الواقع الأكاديمي الجزائري، وصاحب مشروعها العلمي بدون منازع، وتمكن من التصدي للأكذوبة التاريخية للاستعمار الفرنسي القائلة بتمدين الجزائريين، بغية الحفاظ على المدرسة التاريخية الفرنسية "التي تهاوت على أيدي البروفيسور أبو القاسم سعد الله الذي ظل إلى آخر رمق من حياته مرابطا في خندق التاريخ، وظل رمزا من رموز المجابهة الثقافية التي ليس لها من غاية سوى إحقاق الحق"[68].

ومن هذا المنطلق، فروح النقد التاريخي عند سعد الله، كانت شامخة شموخ جبال الجزائر، حيث أفادتنا في الكثير من البحوث والدراسات، حيث لا يستغني أي باحث في تاريخ الجزائر عن دراسات الأستاذ سعد الله، في استنباط المادة العلمية لكثرتها وجديتها وعلميتها وأكاديميتها وإرفاق الدراسات بجداول عن أعلام البلدان والأشخاص والخرائط، والنصوص القانونية والخطب والرسائل، حيث تشكل هذه الملاحق في حدّ ذاتها مواد بحث جديدة في التاريخ والأدب ومختلف مباحث العلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى.

الخاتمة:

إن اطلاعنا على الإنتاج التاريخي الضخم للفقيد، يجعلنا نعتز بما أنتجته الجزائر من العلماء الفطاحل في شتى أنواع المعرفة الإنسانية والاجتماعية، الذين استطاعوا بفضل كتاباتهم من تحرير تاريخ الجزائر من وراسب الاستعمار ومخلفاته الفكرية؛ التي كادت أن تقضي على هوية شعب، ناضل طويلا ضد الهجمة الاستعمارية التدميرية، مثلما ما كان يصفها المفكر الجزائري المرحوم مولود قاسم نايت، وتمكن شيخ المؤرخين من تجسيد هذه الفكرة عبر تراثه الكبير الذي تركه لأجيال الجزائر الصاعدة، تستلهم منه العبر وتدون من خلاله صفحات مشرفة من تاريخ الجزائر، كي لا يكرر الأبناء نفس أخطاء آبائهم وأجدادهم.

مما يجعلنا نستخلص من كتاباته في المجال التاريخي، أهمية المواضيع والدراسات التي أنجزها، والتي ستكون لنا ذخرا نقتدي به في بحوثنا، ونشق به طريق أشواك البحث، فنم قريرا يا شيخ المؤرخين، رحمك الله واسكنك فسيح جنانه، فقد تركت وراءك مدرسة تاريخية جزائرية تؤمن بمواصلة المشوار، وتكشف الغبار عن مآثرنا وأمجاد تاريخنا.

الهوامش:

(1) أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية. دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط2، 2005م، ص -ص: 44-45، وانظر أيضا: الموقع الرسمي لشيخ المؤرخين، أبو القاسم سعد الله.

(2) عبد القادر خليفي، البعد الاسلامي في كتابات أبو القاسم سعد الله، موقع الأصالة للدراسات: (assala-dz. net) الدخول يوم 1-11-2013.

(3) نفسه

(4) الدخول 15 -11-2013، www. aldjadidonline. Com 16 -12 -2012.

(5) الشروق، "مسامات "خاصة بسعد الله 15-12-2013.

(6) عبد القادر خليفي، البعد الاسلامي في كتابات أبو القاسم سعد الله، موقع الأصالة للدراسات، الدخول يوم 1-11-2013.

(7) كتب دراسة موسوعية حول التاريخ الثقافي الجزائري بمجلداتها العشر، وهو ما يؤشر لوجود ميراث ثقافي غزير، استطاع سعد الله الولوج إخراجه من طابعه الجامد إلى الحياة.

(8) عبد القادر خليفي، المرجع السابق.

(9) جريدة الشروق بتاريخ 17-12-2013

(10) نفسه.

(11) نفسه.

(12) نفسه.

(13) سعد الله أبو القاسم، تجارب في الأدب والرحلة، م. و. ك، الجزائر، 1983م، ص 11-29.

(14) أنظر عبد الكريم شبرو، التجربة الشعرية عند أبي القاسم سعد الله، مذكرة ماجستير في الآداب، إشراف السعيد الراوي، جامعة باتنة، 2006م، ص 13-35.

(15) محمد الصغير بلعلام: "سعد الله كان ناقدا وصحفيا وأديبا متمكنا"، جريدة الشروق 17-12-2013.

(16) Léon Roche, Dix ans A Travers L'Islam1834-1844, Libraire Académique; didier, Paris Préface

(17) Arséne Berteuil, L'Algérie Française, T1, Dentu, libraire Editeur, Paris 1856, p5. 17-

(18) Charles Robert Agéron, les Algériens Musulmans et la FranceT1 -T2,1871 -1914 , ed PUF- 1968.

قارن محمد غالم: "من أرشيف الإدارة الاستعمارية في الجزائر: الوثائق الفرنسية والهجرة إلى الديار الإسلامية" مجلة إنسانيات، العدد12، 2000م، الكراسك ومران، ص 27-38.

(19) سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج 4، إشكالية الكتابة التاريخية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص 7-10.

(20) سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، 1830 -1900، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1992م، ص ص 15 -95.

(21) حوار مع سعد الله، جريدة الحقائق الأسبوعية، الجزء الأول، العدد 21 الصادر بتاريخ 17 مارس 2007م، نقلا عن موقع الجزائر أون لاين بتاريخ 14-01-2014.

(22) نفسه.

(23) بشير بلاح، الشروق 25 -12-2013.

(24) Géorges Voisin L'Algérie pour les Algériens, Michel Lévy, Libraire –Editeurs, Paris 1861- p90.

وأنظر أيضا: شارل أندري جوليان، إفريقيا الشمالية تسير، القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية، الدار التونسية، 1976م، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص ص 125-159.

(25) نقلا عن جريدة الشروق 25-12-2013.

(26) نفسه.

(27) سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر الجزء الرابع، المرجع السابق، ص 7-10.

(28) حوار مع سعد الله، جريدة الحقائق الأسبوعية، الجزء الثاني، العدد 21، الصادر بتاريخ 17 مارس 2007م، نقلا عن الموقع الجزائر أن لاين بتاريخ 14-01-2014.

(29) عدّة بن دامة، ظامرة الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي- للجزائر بين 1830- 1962، رسالة دكتورة، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة ومران، 2008م، مدخل الدراسة قارن -محمد بليل، تشريعات الاستعمار الفرنسي في الجزائر ما بين 1881 و1914، القطاع الومراني نموذجا، مذكرة ماجستير قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة ومران 2006م.

(30) حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، ط 8، دار المعارف، القامرة، 2000م، ص 11-24.

(31) نصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت لبنان، 2000، ص 9-11. قارن عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي ط 2، الدار البيضاء، المغرب، 2009م، ص 13 -14.

(32) عبد القادر خليفي، المرجع السابق.

(33) Abou El kassem Saad Allah, la montée du nationalisme en Algérie. Dar Elgharb Islami, Beirout, 2ème édition: 2005

(34) سعد الله، حوار مع مجلة الحقائق الأسبوعية ج 2، المرجع السابق؛ وأيضا أبو القاسم سعد الله: "منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر"، مجلة الأصالة، المجلد 05، العدد 14-15، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011م، ص 7 -26.

(35) أبو القاسم سعد الله: "الأستاذ جوليان شارل أندري والتاريخ الجزائري"، في مجلة المعرفة، العدد 19، 1965م.

(36) أنظر العديد من المخطوطات التي قام سعد الله بتحقيقها: رحلة الأغواطي الحاج ابن الدين، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة، 2011م؛ رحلة ابن حمادوش (لسان المقال)، تأليف عبد الرزاق بن حمادوش، المكتبة الوطنية الجزائر، 1982م.

(37) أنظر دراسته الهامة: الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، 1900-1930، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م.

(38) أرزقي فراد: "المؤرخ سعد الله طلق الراحة من أحل الوطن"، جريدة الشروق، 22-01-2014م.

(39) حوار سعد مع جريدة الحقائق الأسبوعية الجزء الأول، مرجع سابق

(40) أسد رستم، مصطلح التاريخ، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1929م، ص 119.

(41) أبو القاسم سعد الله، جريدة الشعب، العدد 7742، 1988/09/15م.

(42) نشرت الشروق مساهمات لباحثين ومفكرين في التاريخ والأدب والفلسفة حول تجربة الكتابة عند سعد الله أعداد شهر ديسمبر 2013 يناير، 2014م.

(43) بشير بلاح: "مختارات مسار قلم لأبو القاسم سعد الله"، مجلة عود الند للثقافة الشهرية، الناشر علي الهواري، لندن، العدد91، يناير، 2014م.

(44) نفسه.

(45) أبو القاسم سعد الله: "جمعية العلماء والسياسة"، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 4، المصدر السابق، ص ص 141 -148.

(46) عبد القادر خليفي، assala-dz. netالأصالة للدراسات، المرجع السابق.

(47) بشير بلاح، الشروق 23- 12 -2013؛ وموقع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الدخول يوم 29-01-2014.

(48) أبو القاسم سعد الله: "الأمير شكيب أرسلان والقضية الجزائرية"، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج4، المرجع السابق، ص 114 -138.

(49) ألف العديد من الكتب حول الحضارات العالمية من الهلينية إلى الإسلامية والغربية وأرسى مفاميم تاريخية في دراسة البشرية وتعاقب الحضارات.

(50) أنظر العديد من المصادر: جون بابتست وولف، الجزائر وأوربا 1500-1830، ترجمة: أبو القاسم سعد الله. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 2005م.

- شارلز هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة: أبو القاسم سعد الله. دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط 2، 2005م.

Chaw L'Algérie, Un Siècle avant l'Occupation Française, ed, imprimerie de Carthage, 1968

(51) رابح لونيسي: البدايات الأولى للثورة الجزائرية، المصاعب والتحديات، مجلة عصور الجديدة، يصدرها مختبر البحث العلمي، تاريخ الجزائر، جامعة وهران، ص 24- 39.

(52) بشير بلاح: مسار قلم، مجلة عود الند للثقافة الشعبية، لندن، العدد91، يناير 2014م.

(53) سعد الله أفكار جامحة، دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط 2: 2005 م؛ وأنظر أيضا: أرزقي فراد، جريدة الشروق، المرجع السابق.

(54) الطيب برغوث: "هكذا يكون المجد حقا، كلمة وداع للدكتور أبو القاسم سعد الله"، الشروق، يوم 27- 12 -2013.

(55) حديث سعد الله مع جريدة الحقائق الأسبوعية، ج2، المرجع السابق.

(56) نفسه.

(57) نفسه.

(58) نفسه.

(59) نقلا عن جريدة الشروق 25-12-2013.

(60) نفسه.

(61) الشروق 15 -12-2013.

(62) بشير بلاح: " هموم ومساهمات ثقافية في مسار الفقيد العلامة ابو القاسم سعد الله"، جريدة الشروق يوم 22-12-2013.

(63) أبو القاسم سعد الله: "في التجربة التاريخية"، المجاهد الثقافي، العدد9، 1969م؛ وأيضا في أبحاث وآراء، الجزء الأول، المرجع السابق، ص ص51 -54.

(64) عبد الكريم العوفي: "هيرودوت الجزائر يرحل وتبقى موسوعاته التاريخية والثقافية تنتظر الباحثين"، جريدة الشروق الجزائرية، 19 - 2014-01.

(65) بلاح بشير الشروق يوم 22-12-2014، المرجع السابق.

(66) أحمد حداد، الشروق، 25-01-2013.

(67) عبد العزيز فيلالي: "شيخ المؤرخين الجزائريين الدكتور سعد الله. . . خالد بتراثه وفكره"، جريدة الشروق، يوم 09-01-2014.

(68) أحمد السائح، الشروق، يوم 14-01 -2014.

الدكتور أبو القاسم سعد الله... الأيام الأخيرة

الدكتور محمد العربي معريش
قسم التاريخ -جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

يعود مرض الدكتور إلى فترة قد تزيد عن 15 سنة. وقد رافقته في زيارته لمستشفى مصطفى باشا بالجزائر العصمة عدة مرات، تارة إثر أزمات صحية مفاجئة وأخرى لمواعيد استشفائية منتظمة. وليس سرا أنه كان مصابا بمرض الكبد، تأقلم معه في الأخير رغم معاناته منه، ومعاناة السيدة "أم أحمد" مما ترتب علي المرض من وقاية وحمية... إلخ. فطهور إن شاء الله. واللهم اغفر له وارحمه، فإنه كان يذوب ذوبان الشمعة التي تضيء للغير. وجازى الله كل خير أم أحمد عما عانته في سبيل راحته.

يهمني في هذا المقال على الخصوص الأشهر الأخيرة من مرضه، مما يرغب محبوه معرفته. فقد زار المستشفى العسكري بعين النعجة (الجزائر العاصمة) مرات عديدة، ولم أزره أثناءها لأنها لم تكن زيارات استشفاء وإقامة. أما زيارتي له فيه، وإعلامي بدخوله من طرفه، فكان بعد شهر رمضان 1434 (شهر أوت 2013).

-قال: إنه لم يحترم نصيحة الطبيب بعدم الصيام بعذر المرض، ولما قلت له: كان عليك أن تلتزم بنصيحة الطبيب، قال: وكذلك فعلت بنصيحة الطبيب في رمضان الفارط، ولم يحدث لي شيء، قلت: ليس رمضان العام الماضي مقياسا، فالعمر يتقدم والمرض يستفحل.

-نصحته ما دام مريضا ألا يترك أحمد يعود إلى الولايات المتحدة، وكان قد جاء قبيل أو أثناء شهر رمضان.

-عشية استئناف السنة الجامعية، هاتفني مبديا رغبته في أن اصطحبه في سيارتي إلى قسم التاريخ لإمضاء محضر استئناف العمل. مررت به يومها (1 سبتمبر 2013) في طريقي إلى الجامعة، في حدود الساعة 9، وصعد السيارة بجهد جهيد لألم في ظهره، وحاولت أن ارفق به ما أمكن أثناء الطريق، ولما وصلنا أمام قسم التاريخ، لم يكن يقوى على النزول من السيارة، فجئته بالمحضر إلى خارج القسم...

تحدثنا مدة عن الربيع العربي، لا سيما الانقلاب في مصر ووقوف النخبة الجامعية في صف الجيش.

-كلمته يوما من أيام بداية شهر أكتوبر وأنا عائد من الجامعة، فقال: هذه غيبة يا أستاذ معريش أين أنت؟ قلت: إننا في هموم الدخول الجامعي، قال: وأين أنت الآن؟ قلت: أنا عائد إلى البيت، قال: تعال أحتاج إليك!

وجدته في غرفة النوم مستلقيا على ظهره الذي صار يعاني منه عناء شديدا منذ شهر رمضان، وحكى لي بنوع من التفصيل عن معاناته.

-قال: إنه انتهى من وضع الهوامش لكتاب التاريخ الثقافي، الفترة القديمة والإسلامية، وأنه يعترف بوجود ربما بعض الهفوات التي مردها إلى المرض، من ذلك مثلا بعض التكرار في التهميش والنقص فيه، والتقديم والتأخير لبعض المواضيع، وباختصار جملة من الهفوات، مما يقتضي تصحيحها، واقترح على أخذ فصلين من العمل والشروع في تصحيحهما، مشيرا على بأخذها من مكتبه الصغير الكائن قرب غرفة النوم، ففعلت وكانت مسحوبة على ورق.

وحملني يومها أن أبلغ رئيس قسم التاريخ الحاج العيفة، بأن لا يترك له ساعات في الماجستير وأنه سيكتفي بالإشراف على الرسائل الجامعية، ففعلت.

-كلمته بعد أيام مستفسرا عن صحته، فأجابني، ولكن الألم ألم به أثناء المكالمة فاضطر إلى قطعها.

-دخل بعد أيام أخرى مستشفى عين النعجة (لعلها يوم 27 أكتوبر)، مصلحة الرثيا (Rumathologie)، وزرته هناك، فأعاد على نفس الملاحظات المتعلقة بالتاريخ الثقافي، ولكنه

أضاف: "سأبعث لك بباقي الفصول بواسطة البريد الإلكتروني، وأن المقدمة ستصلك بعد ذلك وأنها ستتضمن اسمك.

قال: "إني غضبان على شخص تجرأ على نشر خبر دخولي المستشفى في قناة من القنوات".

قال له أخوه إسماعيل مازحا، هل كتبت لنا شيئا جديدا؟ أجابه بأنه طلق الكتابة.

كان يومها في حيرة من أمره لأن الأطباء كانوا في تشاور حول عملية جراحية في العمود الفقري، وكانوا منقسمين حول نجاعتها، وقيل له أن نجاح العملية يقدر بخمسين في المائة. ولكن الرأي رأيه في الأخير، واستشارني في أمر القبول من عدمه، وكان رأيي أن قلت له: "استخر الله، وخذ بالأسباب أي أنظر إلى حيث مالت أغلبية الأطباء"، وكانت أم أحمد حاضرة، فشاطرتني الرأي نفسه.

وفي مكالمة لاحقة، للاطمئنان على صحته في المستشفى، سألني ما إذا وصلتني الفصول، قلت له لم تصل بعد، فقال: "سأؤكد على أحمد ليرسلها إليك، وأعلمني بوصولها". ووصلتني بالفعل يوم 31 أكتوبر، وكان لا يزال في المستشفى.

-خرج من مستشفى عين النعجة دون أن يكون قد استقر على رأي.

-وفي 27 نوفمبر أرسل لي مقدمة كتاب التاريخ الثقافي.

-كلمته ببيته مساء يوم الأربعاء 4 ديسمبر، في أمر إعادة تسجيل طلبة الدكتوراه، وأجابني أحمد عوضا عنه، مما أوحى لي بأن صحته في تدهور، وطمأنني أحمد عن صحته وأنه سيطرح عليه قضية إعادة تسجيل الطلبة، ولما أبطأ في الإجابة هاتفت الدكتور فأجابني أحمد مرة أخرى، فتأكد لي أن صحته لم تعد تسمح له بالرد على الهاتف، وقال بأن صحته في تحسن بطيء، وأنه فاتحه في أمر الطلبة، وكانت إجابته أن سلم عليهم، وتلك إشارة أخرى واضحة أنه صار في عالم آخر لم يعد له أمل حتى في القدرة على مواصلة الإشراف على الطلبة.

-لم أكن أعلم بعودته إلى مستشفى عين النعجة مجددا مساء يوم الجمعة 6 ديسمبر 2013. وبعدها صار هاتفه مغلقا أو لا يجيب. ولما أحسست بطول مدة الانقطاع (السبت والأحد 7 و8 ديسمبر)، كلمته من المكتبة الوطنية يوم الاثنين 9 ديسمبر على الساعة 9 والنصف، فأجابني بصوت خافت وغير مفهوم في كثير من الأحيان، فهمت منه أنه في المستشفى وأنه لم يرد إزعاجي بخبر عودته إليه، وانقطعت المكالمة بيننا. أعاد هو الاتصال بي، وبكلام غير مفهوم ثم انقطعت المكالمة، أعدت الاتصال به، ففاجأني: "لو تقلني قليلا"، ثم استدرك، بأنه يجد صعوبة في الاتصال بأحمد وأم أحمد، وأنه إذا كان بوسعي الاتصال بهما، وانقطعت المكالمة.

زرته يومها (الاثنين 9 ديسمبر)، على الساعة الثانية زوالا، دخل هذه المرة مصلحة الإنعاش، واتضح بأن صحته بدأت تتدهور بسرعة، إذ لم يعد يشعر بمن حوله أثناء الزيارة إلا لمدة قصيرة. وأثناء حضورنا، أكل قليلا، وتحدث قليلا، ثم عاد إلى حالة عدم الإحساس بالمحيط. وهكذا كان الاستيقاظ متقطعا. وكان وجهه نوعا ما مصفرا ولسانه جافا الأمر الذي جعل كلامه غير مفهوم، لا سيما في الهاتف.

وكان مما عبر عنه يومها، امتعاضه مما يدور في مصلحة الإنعاش من فوضى وتشويش وصخب وضحك إلى درجة انه لم يقو على النوم في ظل هذا الوضع، أو كما قال.

-عدت فزرته مجددا يوم الثلاثاء 10 ديسمبر، وقبل الدخول التقيت في الرواق أخويه إسماعيل وإبراهيم، قلت كيف حال الدكتور؟ قال إسماعيل: "حالته لا تعجب، لم يشعر بوجودنا حتى خرجنا".

دخلت وبقيت انتظر استفاقته، وسألت الطبيب المكلف به ما إذا كان في حالة غيبوبة، فقال لا، لقد كان مستيقظا في الصباح. وبعد مدة تزيد عن النصف ساعة استفاق، نظر إلى ثم عاد إلى الحالة السابقة، أي عدم الإحساس بالمحيط، وظننت أنه لم يعرفني، بقيت واقفا قربه حوالي ساعة أخرى،

ثم استفاق، نظر إلي وقال: سي معريش مازلت هنا؟" ثم عاد إلى نفس الحالة، حتى شعرت بأن وقت الزيارة قد انقضى، فخرجت وهو على الحالة نفسها.

-لم أزره يوم الأربعاء 11 ديسمبر لأن وقت الزيارة في المستشفى تطابق مع حصة محاضرتي في الجامعة. ولكنني كلمت ابنه أحمد مساء ذلك اليوم للاطمئنان على صحته.

-زرته يوم الخميس 12 ديسمبر حوالي الساعة الثانية والنصف زوالا، توجهت نحو مصلحة الإنعاش فأخبروني بأنه نقل إلى مصلحة الرثيا Rumathologie، حيث كان في البداية، فالتحقت بالمصلحة. وجدت معه أحمد وأم أحمد وإسماعيل، كانت حالته شبه مستقرة، مغمض العينين في أغلب الأوقات، لا يقوى على الأكل، يعاني من جفاف شديد في لسانه. وكان ممتعضا من وجوده في المستشفى، كان حريصا على الخروج منه، حتى أنه قال لأخيه إسماعيل، أنا بلا عنوان، ولما لا أكون في بيتي؟ وقد قال لي شخصيا بعدها، خذني أنت إلى البيت، فقالت السيدة: لكن خروجك لا يمكن أن يكون إلا بموافقة الأطباء، ثم غاب عن وعيه مدة فلما استفاق قال وماذا ننتظر؟ قالت السيدة: ماذا تقصد؟ قال: نذهب إلى البيت، فكررت نفس الكلام، لا يمكنك الخروج إلا بموافقة الأطباء، وأحمد الآن يسعى في هذا الاتجاه.

كان الألم يعصره بين الحين والآخر وكان يعاني من جفاف في الفم، واللسان، وكانت السيدة تلقنه بعض الأدعية وآيات من القرآن، ثم غاب عنه الوعي بالمحيط.

ولما انقضت فترة الزيارة، ودعت السيدة وهو على ما هو عليه، أملا أن ألقاه بخير يوم الأحد، -ما دامت الزيارات غير مسموح بها يوما الجمعة والسبت-لقد كانت حالته متدهورة إلى الحد الذي شعرت أنها المرة الأخيرة التي أراه فيها حيا.

-اتصلت بأحمد مساء يوم الجمعة للاطمئنان على صحة الدكتور، وقال بأن حالته مستقرة.

-أما يوم السبت فقد توجهت كالعادة إلى جامعة الجزائر 2 (بوزريعة)، وكان مقرر علي تقديم محاضرتين إلى طلبة السنة الأولى ليسانس، وفي حدود الساعة الثامنة والنصف كنت أهم بالدخول إلى مدرج مالك بن نبي، وضعت محفظتي على المكتب وأخرجت الطلاسة، وبالضبط عندما انتهيت من محو السبورة، رن الهاتف فنظرت إليه، وإذا بي أرى اسم أحمد، فهمت للتو بأنه خبر وفاة الدكتور، فرددت عليه وكان الأمر كذلك، لا شك أن الطلبة ساعتها قد تعجبوا كيف يرد الأستاذ على الهاتف وكان قد اتفق معنا من قبل أن لا نرد لا نحن ولا هو على الهواتف، ولذلك وبالرغم من أنه لم تكن لهم خلفية عن مرض الدكتور إلا أنهم توقعوا خبرا مكروها، فكانت أنظارهم مشدودة إلي عندما أعلنت عن إلغاء الحصة لأن الدكتور أبو القاسم سعد الله قد توفي منذ قليل، كادت دموعي تنهمر، وسرعان ما تمالكت نفسي. أخذت محفظتي وخرجت مسرعا، توجهت إلى مدرج بشير خلدون لأعتذر إلى طلبة المجموعة الثالثة وإعلان الوفاة، وفي أثناء ذلك كلمت رئيس القسم، ثم انتقلت إلى القسم لإعلام الأساتذة الذين كانوا يدرسون، ثم غادرت الجامعة رأسا في اتجاه مستشفى عين النعجة.

في الطريق هاتفت الأستاذ بلغيث لأنه كان مهتما كثيرا في الأيام الأخيرة بزيارته، فلما أخبرته، قال انتظرني اذهب معك، وسبقني إلى المستشفى.

وصلت إلى مصلحة الإنعاش وكان ببابها الداخلي إسماعيل وإبراهيم سعد الله وأحمد وأم أحمد، عزيت في الحقيقة نفسي وعزيت الجميع، ثم دخلت إلى المصلحة لرؤية جثمان الدكتور، وكان لا يزال يرقد في مصلحة الإنعاش، وقد لف بغطاء، نزعنا الغطاء عن رأسه، قبلته ثم رددنا الغطاء وعدنا إلى الباب لنستفسر السيدة عن ظروف الوفاة لا سيما وأنها قضت الليلة بمعيته. قالت بأن المرض اشتد عليه في حدود الساعة الثانية من صبيحة يوم السبت 14 ديسمبر وتفاقم أكثر في حدود الساعة الرابعة صباحا، وتوفي حوالي الساعة السابعة والنصف.

ثم استفسرنا عن الدفن، فقيل إنه أوصى بدفنه في مسقط رأسه قمار.

غادرت أم أحمد المستشفى بمعية إسماعيل للالتحاق بالبيت واستقبال المعزين، وأما أحمد فقد بقي مع جثمان

والده. وبعد أقل من ساعة نقل الجثمان إلى مصلحة حفظ الجثث لتسجيته في انتظار احضار الوثائق الإدارية اللازمة.

وبقينا نتصل بمن نعرف ونعلن خبر الوفاة، كان معي الأستاذ بلغيث كما أسلفت، ثم وصل الأستاذ سعيدوني وزوجته، ثم جاء الدكتور إبراهيم حمادة (الطبيب)، ثم انسحبوا، وابقيت بمعية الأستاذ بلغيث.

بقينا ننتظر الجثمان أمام مصلحة حفظ الجثث من حوالي الساعة 10 صباحا حتى الساعة الثالثة والربع مساء. وأثناء ذلك اتصل صحفيون كانوا يرغبون في الحصول على معلومات أكثر.

-هناك قنوات أذاعت نبأ الوفاة في الساعات الأولى من ذلك مثلا، تلقيت تعازي من بعض الأقارب، فلما سألت عن مصدر الخبر قيل إن خبر الوفاة يذاع في شريط الأخبار على قناة الشروق.

بلغتنا أخبار مفادها أن السلطات كانت ترغب في تنظيم دفن رسمي، فلما علموا بأن الدفن سيتم في مسقط رأسه، اقترحوا وسيلة نقل رسمية، من ذلك تخصيص الطائرة الرئاسية لنقل الجثمان وبعض المشيعين، ولكن العرض رفض وفاء لوصايا الدكتور.

ومهما يكن فقد اكتملت الإجراءات في مستشفى عين النعجة وكذلك بلدية القبة في حدود الساعة الثالثة والربع، وانطلقت سيارة الاسعاف نحو بيت الدكتور حيث كان ينتظر جمع غفير من الأقارب والأصدقاء والزملاء.

ولما تقرر الدفن في قمار، وأن سيارة الاسعاف ستنقل الجثمان ليلا، بدأت أفكر في وسيلة التنقل للمساهمة في الدفن. وقررت في النهاية الانطلاق ليلا نحو قمار.

عين النعجة في 07 جانفي 2014م الموافق لـ 06 ربيع الأول 1435هـ

في جنازة الدكتور سعد الله

الدكتور محمد العربي معريش
قسم التاريخ -جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

في حدود الساعة الرابعة والنصف من مساء يوم السبت 14 الرابع عشر ديسمبر ألفين وثلاثة عشر 2013، قررت التنقل إلى قمار لحضور جنازة الدكتور أبو القاسم سعد الله. وعليه توجهت بعد صلاة المغرب مباشرة إلى محطة المسافرين بالخروبة (الجزائر العاصمة).

اقتطعت تذكرة بألف ومائة وأربعين دينارا 1140 د. ج. وتزودت ببعض الأكل والشرب. وركبت حافلة الشركة الصحراوية لنقل المسافرين في اتجاه الوادي في حدود الساعة السابعة مساء، وجلست في المقعد رقم خمسة وأربعين 45، وقبل الانطلاق بقليل ودون سابق اتفاق، صعد الحافلة أيضا أخوا الدكتور سعد الله وهما إسماعيل وإبراهيم وأهاليهما، واستبشرت خيرا برحلة ليلية إلى مكان لم يسبق أن زرته من قبل.

امتلأت الحافلة وانطلقنا في حدود الساعة السابعة والنصف. دخلنا الطريق السريع في اتجاه الشرق الجزائري، وفي مستوى مدينة البويرة، انحرفت الحافلة إلى الجنوب في وجهة نحو سور الغزلان، سيدي عيسى، بوسعادة، برج الشعيبة، أولاد جلال، المغير، قمار.

دامت الرحلة أزيد من 8 ثماني ساعات تخللها توقف أقل من نصف ساعة بمدينة "عين الحجل" للراحة والأكل والوضوء وقضاء الحاجات... وفي أثناء الرحلة كنا بين صحوة ونوم، وبين راحة وإزعاج تارة من سموم الصقيع الذي ينفذ بين الحين والآخر عبر النوافذ، وأخرى لخطورة السرعة الفائقة التي كان يسير بها سائق الحافلة أحيانا.

وصلنا إلى مدينة قمار في حدود الساعة الرابعة صباحا، وعند النزول وجدنا سيارتين من نوع هيونداي أكسانت كان الإخوة سعد الله قد طلباها بالهاتف أثناء الرحلة، مما خفف علينا العناء، وكان الجو حيث نزلنا شديد البرودة.

بعد دقائق قليلة وصلنا إلى بيت إسماعيل سعد الله. أخذنا قسطا من الراحة والنوم، ثم نهضنا لأداء صلاة الصبح. وبعد تناول فطور الصباح، استقصينا عن الموكب الجنائزي المتكون من سيارة الإسعاف رفقة سيارتين أخريين، وقد وصل متأخرا لأن انطلاقته كانت متأخرة (بعد الساعة الثانية صباحا)، وقد نُقل جثمان الدكتور إلى بيته الذي خصص للنساء، وأما بيت إسماعيل فخصص للرجال.

في دردشة قصيرة مع إسماعيل أثناء تناول فطور الصباح طرح إشكال الدفن بالصندوق أم بدونه، فقلت إن وضع الجثة في القبر تخضع لضوابط شرعية مما يقتضي إخراجه من الصندوق لا سيما وأن الجو البارد مناسب، وكان الأمر كذلك.

ومع تحركنا خارج البيت، اقتَرح عليّ إسماعيل القيام بزيارات ميدانية إلى الأماكن التي كان الدكتور سعد الله يرتادها ويتردد عليها أو يفضلها، قلت ذلك ما نبغي. وكانت الجولة بمعية زكرياء سعد الله وسائق سيارة الآكسانت علي سعد الله.

انطلقنا في البداية نحو "البدوع" مسقط رأس الدكتور في الجانب الغربي من المدينة، بعد المطار، وهو مكان غارق في الرمال بين كثبان مرتفعة، يبعد عن مدينة قمار نحو أربعة كيلومترات 4 كلم. توجهنا عبر طريق معبد في البداية، ثم طريق ملتو تغمره الرمال في أماكن كثيرة.

ها هي السيارة تتوقف في البدوع وهو مكان مهجور به أرض منخفضة تقدر مساحتها ببضعة هكتارات تعرف بـ: (الهود) حيث مجمع من النخيل المتساقط في أغلبه، وتساقط جريده لأنه "شاخ" ولم يبق أكثره سوى أعجاز نخل خاوية، واضح أنها آثار واحة قديمة وصغيرة لآل سعد الله، صارت

مهجورة. وكان الهود كله ظلا ظليلا متلاصقا. وقد كان للدكتور نخلة تحمل اسمه بين النخيل.

هنا بالهود ولد قبل أن يكون البناء، ثم بنى أهله جزءا في صغره، وبنوا جزءا شارك هو في جلب الحجارة والجبس إليه وعاون على تشييده.

وهنا أيضا قضى أيام الطفولة وملاعب الصبا ومجالس قراءة القرآن حول الوالد. ومن هنا كان يتنقل إلى قمار ماشيا إليها راجلا وأحيانا حفيانا إلى مسجد لحفظ القرآن وتعلم علوم العربية.

إن البناء المشار إليه والقريب جدا من هذه الواحة، صار اليوم أطلالا وبقايا ديار مهجورة، تركت منذ الخمسينات. كان البناء أصلا حوشا، تساقطت جدرانه الواحد على الآخر، ولم تبق فيه إلا بعض الغرف قائمة منزوعة الأبواب، وملأت الرمال وسطه، إنها بيوت شبيهة بالكهوف غير أنها صنعت بالأيدي على أرض رملية خالصة، تتشكل من عدة أقسام من المباني، كل قسم يحتوي على عدة غرف ضيقة المساحة، لا يزيد اتساعها أحيانا عن المترين، وهي ذات ارتفاع منخفض، تضطر من يدخلها إلى أن ينحني، ومع ذلك فإن وظائف الغرف لا تزال واضحة، كالمطبخ مثلا وغيره... وتعلو كل غرفة قبة. وقد بنيت بمواد محلية من جبس وحجارة (وردة الرمال) معالجة بالنار، الأمر الذي جعل موادها متلاحمة شديدة الصلابة.

وغير بعيد عن الأطلال، كثبان رملية كان منحدر أقربها، المكان المفضل لجلوس الدكتور أبو القاسم حتى في زياراته الأخيرة إلى قمار، ذلك أنه بالرغم من بنائه بيتا خاصا به في المدينة كما أسلفنا، إلا أن "البدوع" كان المكان المفضل لديه. إنه مهبط الجدود وموطن الآباء، فبمجرد وصوله إلى البيت عند كل زيارة يأتي فيها من العاصمة بغرض مسح التعب الفكري، يحط رحاله ويخرج موليا وجهته في اتجاه "البدوع"، ويجلس في المنحدر الرملي المفضل كما أسلفنا.

ولعل آخر صيف قضاه كاملا في وادي سوف عامة وقمار على الخصوص هو صيف ألف وتسعمائة وتسعة وثمانين 1989، وكتب على إثر ذلك مقالة بعنوان: "صيف في سوف"، نشرت في جريدة الشعب، ثم ضمنها كتابه "في الجدل الثقافي"، (ص ص: 35- 51).

لم أكن أتصور هذا المكان الذي كان الدكتور يسافر إليه في بداية كل سنة جامعية في شهر سبتمبر "طلبا للراحة المطلقة من عناء المدن وشقاء الزحام والتكدس. ينزل إلى قمار، ويسارع إلى الاندماج في حياة الناس التي هي حياته القديمة، حياة بسيطة لا تكلف فيها. يتحرر من الزمن، ينزع ساعته ويخبئها فلا يعرف الوقت إلا كما يعرفه أهل قمار وهو خيال الظل وشروق الشمس وغروبها، ومواقيت الصلاة. والأيام متشابهة كذلك لا يميزها إلا يوم السوق العام الذي هو يوم الصلاة الجامعة".

إن العيش خارج الزمن لفترة يمسح التعب لأنه يجعل المرء على الهامش سواء بالنسبة للوطن أو بالنسبة للعالم، فيرتاح من العناء الفكري، شريطة أن لا تتجاوز المدة حدا معينا وإلا انقلبت إلى ضدها، إلى تأنيب ضمير لأنك بمجرد ما تتخلص من العناء الفكري، تهفو نفسك وترفرف في سماء الوطن والعالم، لتعود مجددا إلى معركة الحياة وهكذا...

وفي أعلى المنحدر الرملي خزان ماء، وإلى الأسفل منه بئر يستخرج منها الماء من على عمق حوالي عشرين مترا 20 م، تضخ مياهه في الخزان بواسطة محرك. والماء كلسي، طعمه يميل إلى الملوحة.

كانت أرض البدوع إلى وقت قريب، أثناء زيارة الدكتور في صيف عام ألف وتسعمائة وتسعة وثمانين 1989، التي أشرنا إليها سابقا، عبارة عن رمال تعصف بها أحيانا الرياح الهوجاء، غير أن تربتها التي وصفها الدكتور بأنها "كانت تربة جرداء قاحلة" على امتداد البصر، فقد تغيرت وتغير وجهها. ذلك أنها صارت خضراء ذات جنات.

لقد تصرف الناس بمبدأ الاعتماد على النفس، وأخذوا يمدون خيوط الكهرباء من تلقاء أنفسهم، ولو كانت باهظة التكاليف. وأصبح من الممكن جدا منذ مطلع التسعينات، أن تستصلح الأرض الرملية بواسطة الجرافات، وتقدر تكلفة

الاستصلاح بأربعة آلاف د. ج. في الساعة الواحدة. والواحات المستصلحة اليوم، فعلا خضراء دائرية الشكل.

تتشكل نماذج واحات النخيل المستصلحة من حوالي مائة وخمسين 150 نخلة، تنتج الواحة الحديثة العهد بعد 5 سنوات، وأثناء ذلك تستهلك الماء بكثرة، وتحتاج إلى أسمدة من نوع فضلات الإبل.

وقد أبدى شباب العائلة قرب مسقط رأس الدكتور (البدوع) اهتماما باستصلاح الرمال، كغيرهم في مناطق أخرى كثيرة، وتحويلها إلى أرض خضراء مدرة للخضر والأشجار المثمرة، ففي وسط من الرمال أوقفني مرافقي زكريا أمام حقل من البطاطا ذات النوع الجيد النظيف. تسقى على نطاق واسع بواسطة نافورة أو مرش دوار عملاق يمتد إلى عشرات الأمتار، يتنقل بواسطة محرك صغير وعلبة سرعة شاحنة وعجلات، يدور المرش دورة كاملة كل 9 ساعات، وهكذا فإن دورانه يشبه رقاص الساعة حيث لا تستطيع رؤيته وهو يتحرك. ونظام الرش ككل مبتكر من حدادي المنطقة، وتقدر تكلفته حوالي مائة وستين ألف دينار جزائري.

وهناك حقل آخر من الجزر، وقد أذاقني زكريا حبة كانت حلوة ولذيذة، أحلى من جزر الساحل، فضلا عن كونه صحيا لأنه يخلو من الأسمدة الكيماوية.

ومن الخضر المزروعة أيضا الطماطم والبصل وكذلك اللفت. وقيل أن السكر من نوع شبيه بالشمندر السكري جرب أيضا وأثبت نجاحه في المنطقة. هذا ناهيك عن شجر الزيتون ولو كان المزروع رديئا لأنه ينتج حبات صغيرة.

ويحيط الحقل سياج من أشجار البستان يقيه من الرياح الشرقية حتى لا تكسر الخضر ولا تحرقها سموم الرياح الحارة.

كانت هذه أول مرة أرى فيها هذه المحاصيل من الخضر الطازجة ذات النوعية الجيدة في أرض تربتها رملية خالصة.

ابتعدنا قليلا عن حقول الخضر مشيا على الأقدام نحو كثبان الرمال الناعمة المتحركة، ذات الشفرات السيفية التي صنعتها العواصف الرملية الهوجاء، فسبحان الذي أبدع كل شيء. لقد كانت في شكل تلال أو هضبات، وعلى غير العادة في المشي على الرمال الناعمة، لم تكن أرجلنا تغوص فيها لأن الندى أو الصقيع الذي تساقط طيلة الليل جعلها مبتلة صلبة شبيهة بالطريق المعبد خلال ساعات الصباح الأولى. كانت النباتات نادرة، إذ تصادف هنا أو هناك بعض نبات الحلفاء في شكل شتلات صغيرة، كما تعثر بين الحين والآخر على صخور بلورية ذات أشكال مسننة جميلة شبيهة بالمرجان، تعرف بوردة الرمال.

وقد ذكر لي مرافقي في هذه الجولة زكريا سعد الله أن أحسن فصل من فصول قمار هو فصل الشتاء، وأن أسوء الفصول فصل الصيف المقلق جدا بسبب حرارته الشديدة التي تتجاوز الأربعين درجة، بالإضافة إلى الهوام التي من أشهرها العقارب.

وقبيل منتصف النهار سمعنا خشخشة المكبر الصوتي للمسجد الكبير بقمار، وكنت أظنه آذان الظهر، ولكن الوقت لم يحن بعد، فاشرأبت أعناقنا نحوه، وإذا بصوت المؤذن من المسجد المركزي ينادي في الناس: "الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، إنا لله وإنا إليه راجعون، توفي سعد الله بلقاسم بن أحمد والدفن على الساعة الرابعة، وأجركم على الله". وهذه هي العادة في قمار حتى يأتي الناس من قريب ومن بعيد لتشييع الفقيد وتقديم التعازي لأهله.

انتقلنا من أرض البدوع إلى بعض أحياء مدينة قمار ومنها المدينة الجديدة، وهي في الحقيقة مدينتان قديمة وجديدة. كانت الطرقات تغمرها الرمال في أماكن كثيرة، لاسيما في الأحياء الشعبية. وقيل أن المياه كانت عفنة إلى وقت ليس ببعيد، حوالي 80 ٪ من سكان وادي سوف يشترون ماء الشرب من نواحي بئر العاتر، غير أنه مثلما تغيرت أرض البدوع فقد تغيرت المدينتان القديمة والحديثة، وهكذا صار مصدر المياه مصانع تصفيتها.

هناك أحياء جديدة ولكن مشيديها حافظوا على الطابع المعماري المحلي، من ذلك مثلا القباب التي تعتبر سمة البناء في المنطقة.

لقد كان مرافقي زكريا سعد الله حريصا كل الحرص على أن أعود وقد شاركت في تشييع جنازة الدكتور واستفدت الكثير. لأجل ذلك فقد اتجه بي رأسا إلى حضيرة السيد "العيد مفتاح" مُسَيِّر الشركة المسماة "ألياف أنيس" (aliaf aniss). كانت تبعد عن مركز المدينة قمار نحو ثلاثة 3 كيلومترات من الجهة الشرقية الشمالية. وهي تمتد على مساحة شاسعة، يحيط بها سور له باب ضخم.

تجمع الحضيرة بين الأدوات العتيقة، ونماذج من السكنات التقليدية والحديثة، والخيم وبعض الحيوانات، ومنها الإبل والغنم والمعز والكلاب، وكذلك أشجار ونباتات مختلفة الأشكال والأنواع، فضلا عن ورشات لصناعة المسابح العصرية الرائعة، وغيرها. وبذلك فهي تشكل نواة متحف غني، وحضيرة تجارب بامتياز، إنها تزخر بأدوات كثيرة وتحافظ على تقاليد المنطقة.

مع دخولنا إلى الحضيرة، استقبلنا الحارس بالترحاب. وصادفتنا لأول وهلة مجموعة من الأدوات التقليدية كالقربة والقدرة والحَمَّارة ومصباح (الكاربيل) والمنسج، ثم مقرا للكلاب وآخر للجمال، وأبعد من ذلك بعض النعاج والمعز، كان ذلك على يسار المدخل وإلى جهة اليمين تصادفك مجموعة من البيوت الصغيرة والأنيقة، بيوتا تقليدية من الطين وغيرها.

هذا بيت نموذجي أو حوش، يشتمل على المدفأة والنافذة والمطبخ (المدخنة)، وجملة من الأواني، منها: أطباق وقفة وطاجين وقدر وكسكاس وشموخة وجرة وحنفية ومنسج ومذراة ومِزْوَد الغرس (التمر والدقلة) ومشاط، كل هذا من على أرض بيت مفروشة بالرمال الناعمة.

وهذا بيت نموذجي آخر أو حوش، يتكون من بيت للضيوف ومقصورة، وخيمة (بيت الشعر)، ومنسج ورحى، ودار السباط (مكان مفتوح يتجه نحو الشمال) وحصيرة الحلفاء والخابية (يخزنون فيها التمر)، وصندوق عرسان جد عتيق ووسادة من النخيل، وكذلك القشابية، ولوح من أجود أنواع اللوح وباب تقليدي، وقد ازدان جدار من جُدُر الحوش بصورة للسيد العيد صاحب الحضيرة وقت كان يدرس صغيرا في العهد الفرنسي. وأرض الحوش مفروشة بالرمال الناعمة، وسقف بيوته من قصب. والحياة في الحوش بسيطة مريحة وصحية. وهكذا فالمكان أشبه ما يكون بمتحف مصغر.

وفي حوش آخر، مكتوب عليه لَحْوَيش، بئر وصور وطبق الحنة ومائدة مصنوعة من النخيل. وهناك بيوت أخرى نموذجية ومساكن متطورة، أحدها يتكون من طابقين، عندما هممنا بالصعود إلى سطح البيت الأنيق، لفت انتباهي وجود جرس تقليدي، جربناه وإذا به لا يزال صالحا لتأدية دوره أحسن بكثير من الأجراس الطايوانية والصينية التي يستوردها لنا الغشاشون.

لقد تعجبت كثيرا من تحف فنية رائعة في قمار، لكن مرافقي زكريا قال لا تتعجب فإن في قمار مختصين في النقش والنحت على الجبس. ولما سألته عن الذي خطط مختلف هذه النماذج، قال زكريا بأن صاحب المتحف السيد العيد هو المخطط وهناك من ينفذ.

وقد عثرنا في نهاية الحضيرة على خيمة بدو رحل مصنوعة من الشعر منصوبة بأوتادها، وهي ذات مدخلين أحدهما في اتجاه الشمال والآخر في اتجاه الجنوب، والباب يفتح بحسب اتجاه الرياح التي تهب تارة من الشمال وأخرى من الجنوب، وبباب الخيمة الجنوبي كانون.

وقد لفت انتباهنا أبواب مصدرها سوق بقمار وعليها النجمة السداسية مما يوحي بملكيتها لمحل تجاري يهودي. وفي معرض حديثنا عن النجمة، ذكر زكريا أن الشائع عندهم أن يهود قمار كانوا من أوائل من غادر الجزائر في اتجاه فلسطين عام 1948.

وقفنا على مسبح رائع يضخ مياهه محرك مياه، وكانت مياها زرقاء ناصعة لأن لون عمقه أزرق أيضا. وغير بعيد عنه ورشة لصناعة المسابح الضخمة من مادة البلاستيك أو البوليستير.

صادفنا أيضا أدوات أخرى منها المشاط وقصعة من خشب، وأدوات أخرى كثيرة جمعها السيد العيد، جازاه الله كل خير، فضلا عن وسائل تخزين التمور، ذلك أن تمر قمار أحيانا أحلى من دقلة بسكرة، حسب ما قيل.

والحق أن الذي يزور الحضيرة يخرج بانطباع أن المنطقة معطاء سواء تعلق الأمر بالبلاد أم العباد، والشيء من معدنه لا يستغرب، فلا غرابة أن تنتج قمار أمثال الدكتور أبو القاسم سعد الله.

عدنا مجددا إلى مدينة قمار وفي جزئها الغربي من الطريق الوطني، وتعرفنا هذه المرة على بيت الدكتور التي بناه في الثمانينات كما يذكر في كتابه مسار قلم الجزء الخامس، وهو لا يبعد كثيرا عن بيت إسماعيل سعد الله، وكان بيتا متواضعا لا يختلف عما يحيط به من البيوت، سوى أن وسطه قبة أكبر وأوسع من مثيلاتها.

انتقلنا بعدها إلى المدينة القديمة المُرمّمة، في الجهة الشرقية من الطريق الوطني المؤدي إلى مدينة الوادي، وهي ذات الصنائع القديمة والحرف، وبها أيضا المسكن القديم لوالد الدكتور، وهو غير مسكن مسقط رأسه بالبدوع، وبالقرب منها بيت خاله العالم والشاعر الذي كان معجبا به، بالإضافة إلى مسجد مدينة قمار الكبير وبالقرب منه المدرسة القرآنية التي تعلم فيها الدكتور وحفظ فيها القرآن وكان يتنقل إليها يوميا مسافة تقدر بحوالي 5 كيلومترات. وبالقرب منها أيضا متجر التمور الذي كان الدكتور يقتني منه حاجياته.

وفي المدينة القديمة تقع الزاوية التجانية. وبالقرب منها ساحة تستعمل كمصلى على الجنائز، وإلى الخلف من هذه الساحة تقع المقبرة التي دفن فيها الدكتور.

عدنا بعدها إلى بيت إسماعيل مكان استقبال الرجال، فالتقيت مع جملة من المعارف العلمية القديمة من أساتذة وطلبة، وتحدثت خاصة مع علي سعد الله الذي لم أره منذ أزيد من عشرين سنة واستعرضنا بعض ذكريات الجامعة بالخروبة.

تناولنا الغداء، وعند خروجنا التقيت بأساتذة آخرين منهم الأستاذ يوسف مناصرية، والأستاذ لحسن بن علجية. وبعد دردشة صغيرة أذن لصلاة الظهر فأديناها جماعة على الساعة 2 الثانية –كما العادة في المنطقة– في مسجد صغير قريب. وبعد ساعة أخرى أدينا صلاة العصر في نفس المسجد. واتضح عند خروجنا من الصلاة أن الجمع بدأ يكثر وبدأ الناس يأتون من كل حدب وصوب، وصارت الشوارع القريبة تغص بهم، استعدادا لتشييع الفقيد وتعزية أهله.

وفي حوالي الساعة الرابعة تحرك الجمع من أمام بيت إسماعيل في اتجاه بيت الدكتور حيث وجود الجنازة من على مسافة تقدر بنحو 300 متر. ومع وصولنا إلى المكان أخرج الجثمان مرفوعا على الأكتاف، واتجه المشيعون شرقا عبر الأزقة المفروشة بالرمال نحو الطريق الوطني، فالشارع المحاذي للمقبرة في اتجاه المصلى. كان الجمع غفيرا والشوارع تغص بالمشيعين، والصحفيون يركضون ويتنقلون من مكان إلى آخر وعلى أكتافهم الكاميرات بحثا عن مكان مناسب لالتقاط الصور المعبرة والمثيرة، وقد صعد بعضهم حتى على الأسوار والأشجار، وكان الأمن مكثفا لوجود أفراد من السلطات الإدارية، علمت أن منهم: الوالي ورئيس الدائرة ورئيس البلدية فضلا عن مدير الشؤون الدينية، والشيخ العباسي من وزارة المجاهدين والدكتور عبد الرزاق قسوم وكذلك السلطات العسكرية من مسؤولي القطاع العسكري والدرك، وغيرهم.

وبعد الصلاة اتجه المشيعون بالجثمان نحو مثواه الأخير، فووري الدكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله التراب، ثم أُبِّن من طرف الدكتور عبد الرزاق قسوم، وكذلك مدير الشؤون الدينية والدكتور محلو عادل الذي لم يكن مبرمجا حسب ما قيل.

وتسهيلا على المشيعين لتعزية عائلة الفقيد، وقف الابن أحمد وأعمامه أمام باب المقبرة وكذلك السيد عبد الله عثامنية صديق الدكتور سعد الله، وانفض الجمع شيئا فشيئا.

عدنا بعدها إلى بيت إسماعيل حيث انطلقنا، وأكدت لإسماعيل بأنني سأغادر الليلة نظرا لارتباطات عائلية وأخرى جامعية، فكلف هشام سعد الله والأستاذ زكريا دمدوم بالتنقل إلى محطة الحافلات، واقتطعا لي تذكرة سفر في الساعة العاشرة ليلا. وبعد أداء صلاة المغرب، أبى زكريا سعد الله –الذي كان مصرا على أن يطلعني على كل ما له

علاقة وطيدة بالدكتور –إلا أن نزور بيت والده القديم، ولسوء الحظ لم يعثر على المفتاح ولذلك فقد اكتفينا بالوقوف أمام الباب، وأدينا صلاة العشاء غير بعيد من هناك في المسجد الكبير، ثم أصر زكريا عليّ أن نزور متجر التمر الذي كان الدكتور يقتني منه حاجياته كما أسلفنا، ثم ألح أن يحملني صندوقا من الدقلة، فجزاه الله كل خير.

عدنا بعدها إلى بيت إسماعيل والتقيت هناك بجمع آخر من الأساتذة الطلبة القدماء أمثال الأستاذ قن وغيره. وتبادلنا أطراف الحديث، حول مشاكل الأساتذة والطلبة ونظام (ل. م. د) وغيرها. ثم دُعينا لتناول العشاء، وفضلت الجلوس في أول غرفة في بيت اسماعيل. ولعل من بين من لفت انتباهي خروجهم أثناء ذلك، الدكتور عبد الرزاق قسوم والدكتور الهادي الحسني وعبد العزيز بلخادم وغيرهم.

بقيت هناك بعد العشاء أتبادل أطراف الحديث مع ثلة من أقارب الدكتور ومنهم ابنه أحمد وخاصة مع الأستاذ زكريا دمدوم وزكريا سعد الله، وكانت عنايتهما بي عناية خاصة، فجزاهم الله عني كل خير.

وفي حدود الساعة العاشرة ليلا خرجت مودعا رفقة زكريا في سيارة الأكسانت، فالتحقنا بالمحطة على الطريق الرئيسي وما هي إلا مدة قصيرة حتى وصلت الحافلة. ركبتها في حدود الساعة العاشرة وعشرين 20 دقيقة، ووصلت إلى محطة الخروبة بالعاصمة، حوالي الساعة 6 صباحا. كان الابن محمد عبد الغفور هو الذي نقلني بالسيارة إلى محطة الخروبة يوم السبت 14 ديسمبر، وأضاع بالمناسبة وثائق السيارة (البطاقة الرمادية، ووثيقة التأمين)، في المحطة نفسها.

وبعد العودة من تشييع الجنازة يوم الاثنين 16 ديسمبر، انتابنا الشك بأن ضياعهم كان في المحطة، وقد عدت إليها بالفعل واستفسرت عددا من حراس أبواب المحطة الذين نفوا علمهم بأمر الوثائق، وأثناء استفساري لآخر حارس في آخر باب من أبواب المحطة، سمع كلامنا شرطي بالباب، فاقترب مني وسألني: ماذا أضعت؟ وما اسمك؟ فلما أخبرته قال اذهب إلى مركز الشرطة فإن وثائقك هناك. وقد وجدتها هناك بالفعل، فدعوت للشرطي بأن يعافيه الله ويحفظ ذاكرته وضميره، لأنك قلما تجد اليوم من يحمل هم غيره ولو كان من صميم مهمته، والحمد لله على كل حال.

عين النعجة في 07 جانفي 2014م الموافق لـ 06 ربيع الأول 1435هـ

شهادة من الجيل الأخير من الطلبة
في حق الدّكتور أبي القاسم سعد الله

الأستاذة أمينة سليمة صاري
قسم التاريخ -جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

لأوّل مـرّة منـذ أن دخلـتُ الجامعـة أشـعر باليـأس والإحبـاط... لأوّل مـرّة منـذ ثمـاني سـنوات مـرّت علـى تحصـيلي العلمـي أشـعر بـأنّ المسـؤوليّة المناطـة بجيلنـا كبيـرة وعظيمـة، وأنّ الـحِمْلَ ثقيـل... ثقيـل ثقـل الجبـال، رغم أنّي بذلت قصار جهدي لحدّ الآن في سبيل البحث العلمـي وبكـل أمانـة، فقـد أدركـت بعـد رحيـل أسـتاذنا الفاضـل الدّكتور أبـو القاسـم سـعد الله رحمـه الله تعـالى، أنّ جيلنا نحن من سيكون سعد الله آخر، أنّنا نحن من سيحمل راية العلم ويكافح من أجله بنفس المنهج، ونفس الإصرار، ونفس الأمانة العلميّة... أنّنا نحن من سيحمل تلك الأخلاق العلميّة السّامية... أنّنا نحن من سيكافح من أجل إعلاء كلمة الدّين الإسلامي والعروبة والوطن. فهل نستطيع أن نكون بمثل ربع تلك القامة العلميّة الّتي فقدناها؟

رحل عنّا ذلك الرّجل الّذي عرفناه اسما وقلما، قبل أن نعرفـه شخصـا، ذلـك العـالم الجليـل الّـذي علّـم مـن علّمنا من أساتذتنا الأفاضل، وزرع فيهم القيم والأخلاق السّـامية، الّتـي زرعوهـا هـم بـدورهم فينـا ... فقـد كـان الفضل في معرفتي للدّكتور سعد الله رحمه الله في السّنة الأولـى ليسـانس، للأسـتاذ محمّـد العربـي معـريش فـي تطبيـق وحـدة تـاريخ الجزائـر، ولطالمـا كـان لسـانه يـنهج بـذكر هـذا الاسـم الكبيـر، فعَلَّمَنَـا مـنهج البحـث العلمـي على طريقة أستاذه، ولم يكتف الأستاذ معريش بالحديث لنـا عـن أسـتاذه وتوجيهنـا إلـى الاطّـلاع علـى كتبـه، بـل بـرمج لنـا لقـاء معـه. لكـنّ ولسـوء حظّـي فقـد حضـر الدّكتور سعد الله حصّة الفوج الآخر، وعندما جاء دور فوجنا غادر لأنّ وقته لم يسمح له بالبقاء أكثر، فلم أره في ذلك اليوم إلا وهو يغادر، وتبعته بنظراتي إلى أن خرج من الرّواق. تلك كانت أوّل مرّة أراه فيها.

وفي السّنة الموالية حظيت بمشاهدته مرّة أخرى، إذ احتاجت أختي –وكانت وقتها تحضّر مذكرة ماجستير فـي الأدب العربـي عـن شخصـيّة علميّـة وأدبيّـة جزائريـة فـي العهـد العثمـاني–إلـى استشـارته رحمـه الله، فجـاءت والتقت بـه وتحـاورت معـه، كنتُ أنـا مثل المتفرّجـة علـى حوارهمـا، مـع شـعوري بالـخجل كـوني أقـف أمـام عـالم جليـل مثـل الـدّكتور سـعد الله. وإذا كنـتُ فـي مرحلـة الليسانس لم أحض بفرصـة للحديث المباشر معـه، ومـا ذلك إلاّ بسبب خجلي وحيائي من عالم مثله، أو لأنّي لم أكن أملك الجرأة التي اكتسبتها في مرحلة الماجستير (فيما بعد)، إلاّ أنّ ذكره لم يغب، فأغلب الأساتذة كانوا يوجّهوننا إلـى اسـتعمال كتبـه فـي بحوثنـا ويتحـدّثون لنـا عنه، مثل الأستاذ مصطفى نويصر، والأستاذ عمّار بن خروف، والأستاذة عائشة غطّاس رحمها الله.

وبعد تخرّجي، شاركت في مسابقة الماجستير وكنتُ مـن النّاجحين والحمد لله، وهنـا بـدأت مرحلـة جديـدة فـي حياتي، مرحلـة مكّنتنـي مـن الاحتكـاك المباشـر بالدّكتور سعد الله، فعرفته عن قرب، وكنت إحدى طالباته، وكان وقتها يدّرس وحدة "العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب في الفترة الحديثة"، ولم أكن أنا أنتمي لنفس التّخصّص الّذي يدرّس فيه، لكنّ نفسي كانت تتوق للدّراسة عنده، فقصدته ذات مرّة وكان يدرّس يوم الأربعاء من الثّامنة والنّصف صباحا إلـى العاشـرة، انتظـرت إلـى أن جـاء وقبـل أن يـدخل الحصّـة تحـدّثت معـه، طلبـتُ منـه أن يسمح لـي بحضـور حصّـته طـوال تلـك السّـنة – السّـنة

الدّراسيّة 2009/ 2010م- وكم كانت فرحتي كبيرة عندما كانت إجابته "نعم". ومن ذلك اليوم أصبحت أحرص على الحضور كل أربعاء من كلّ أسبوع، وخصّصتُ للوحدة كرّاسا أنيقا لأكتب فيه كلّما يقوله الدّكتور سعد الله في حصّته.

لم يشعرني الدّكتور سعد الله أبدا أنّي لا أنتمي إلى تلك المجموعة، بل كنتُ في نظره فردا من أفرادها، وها أنا ذي الآن أردّ بعضا من جميله عليّ إذ أنقل كلمة صدق في حقّه رحمه الله، وبكلّ إخلاص، ولا أبغي في ذلك إلاّ وجه الله تعالى، فأنا لا أهدف إلى الشّهرة والتّسلّق من خلال اسمه فهذه الشّهادة سيسألني الله عزّ وجلّ عنها يوم القيامة، إن لم أتحرّى فيها نقل الحقائق وبكلّ عفويّة.

منهج الدّكتور سعد الله في إلقاء درسه:

يعتمد منهج الدّكتور سعد الله في الأساس على التّحاور، وأن يجعل كلّ طّالب شاء أم أبى فعّالا في كلّ حصّة، وهو يقوم على طرح الإشكاليّة وإعطاء آرائه ومعلوماته حولها، مع السّماح للطّلبة بالمشاركة، فيحاورهم ويناقشهم، ويحاول إقناعهم بآرائه، ويقتنع بآرائهم إن كانت صائبة، فقد كان يسود الدّرس جو من المناقشة العلميّة الرّاقية بينه وبين الطّلبة، وهو في كلّ هذا يحاول أن يخرج ما في فكرهم من عصارة علميّة، وهو في منهجه هذا يختلف عن منهج بعض الأساتذة القائم إمّا على الشرح دون السّماح بإدلاء الآراء، أو القائم على الإملاء، مع العلم أنّ هذا الأخير يقتل الفكر ويحجّره، فتجد الطّالب يوم الامتحان يرجع للأستاذ بضاعته كما هي وعندما يتخرّج تتلاشى تلك البضاعة ولا يبقى منها إلاّ السّراب.

كان الدّكتور سعد الله في كلّ حصّة تقريبا يحضر معه مجموعة من المصادر والمراجع الّتي تدخل في صميم موضوع الحصّة، فيمرّرها علينا ويحدّثنا عنها وعن قيمتها العلميّة، ولا يخطر ببال أحد أنّ تلك الكتب كانت من إنتاجه لا والله، فما كان منها من هذه المراجع التي كان يحضرها معه يمثّل فقط خمسة بالمائة، إذ لم يكن من النّوع الّذي يتباهى بما قام به من أعمال، رغم أنّ مؤلّفاته كانت بالنّسبة لنا أشهر من نار على علم.

ومن جهة أخرى كان يحبّ أن يجعل من الطّالب يبحث ويبحث ويبحث، فكان يطلب من الطّلبة القيام ببحث أساسي للوحدة، كما يكلّفهم في كلّ حصّة بالقيام بأبحاث صغيرة، كالبحث عن هذه الشّخصيّة أو تلك، والبحث في هذا المصدر أو ذاك، وفي آخر السّنة بلغ عدد هذه البحوث الصّغيرة لكلّ طالب أكثر من عشرين، وكان يسأل باستمرار عن تقدّمهم في البحوث، وعن المصادر والمراجع الّتي تحصّلوا عليها، ويوجّههم إلى أخرى قد تفيدهم، وبين الفينة والأخرى كان يتيح الفرصة لأحد الطّلبة لعرض بحثه، ويرغّب زملائه في مشاركته بأفكارهم وآرائهم، ومناقشته مناقشة علميّة، بالإضافة إلى إثرائه هو رحمه الله لموضوع الطّالب بمعلوماته القيّمة والكثيرة.

لطالما حدّثنا عن أبي راس النّاصري، والورثيلاني، والتامقروطي، والمُجِبِّي، وابن القاضي، والمقّري. هذا الأخير الّذي كان معجبا كثيرا به، وكان له منهجه ورأيه الخاص في نطق اسمه، فالكثير من الباحثين يقولون: "المَقرِي"، أو "المَقَرِّي" إمّا بفتح الميم والقاف، وكسر الراء دون تشديدها، أو بكسر الرّاء وتشديدها، لكنّ الدّكتور سعد الله كان يقول لنا "المَقَّرِي" بفتح الميم، وفتح القاف وتشديدها، ويقول لنا أنّ اسمه نسبة إلى بلدة مَقَّرَه.

حدّثنا مرّة عن مظاهر التّأثير العثماني في المجتمع الجزائري، وطلب منّا أن نقدّم له نماذج عن ذلك التّأثُّر، فراح كلّ طالب يدلي دلوه. فأعطيناه أمثلة مثل: في الألبسة، وفي العمارة، وفي الفنون، وغيرها من الأمثلة، وإذا بهاتفه يرنّ – وكان ذلك ناذرا في الحصّة- فبدأ يبتسم وقال لنا: "ما هذا؟" وكان يقصد رنّة الهاتف، وهي

رنّة تركيّة هادئة، وبهذا أوحى لنا أنّ من هذه المظاهر، التّأثّير في الموسيقى. كما أشار في نفس الموضوع إلى مسألة ألقاب بعض العائلات الجزائريّة، وخاصّة من العاصمة التي لا تزال لحدّ الآن تفتخر بنسبها الممتدّ إلى الأتراك، وإذا به يوجّه الكلام لي، ويقول مثل عائلتك أنتِ، من دون أن أخبره أنا أنّ أصولي تركيّة، إذ أنّه رحمه الله كان خبيرا بمثل هذه الألقاب.

منهجه في التّعامل مع طلبته:

كان رحمه الله متواضعا بكلّ معنى الكلمة، يتعامل مع الطّلبة كأنّهم أبنائه، يستمع لانشغالاتهم، ويهتمّ بآرائهم، يساعدهم ويوجّههم كلّما طلبوا ذلك، وهو في تعامله هذا لا يفرّق بين الطّالب الّذي سبق وأن درّسه، أو الطّالب الّذي لم يره من قبل، بل يعاملهم على السّواء، وكنت أنا في السّنة النّظريّة من الماجستير، بل ومن السّنة النّهائية في الليسانس أحلم أن أقوم بتحقيق مخطوط في مذكرة الماجستير، فسعيت في خلال تلك السّنة النظرية إلى الاستفسار من الأساتذة عن منهج التحقيق وأن يقترحوا عليّ نماذج من المخطوطات لأقوم بتحقيقها، ولطالما استشرته في هذا الموضوع، فكان يثني على رغبتي هذه ويشجّعني رحمه الله، حتّى أنّه في إحدى الحصص كنّا نتحدّث عن موضوع ما، ثمّ طلب منّا أمثلة، فبادرت أنا إلى الحديث عن المخطوطات، ضحك رحمه الله كيف أنّي لا يخرج حديثي عن مجال التّحقيق والمخطوطات، وكيف أنّي كنت مهووسة بهذا المجال، والحمد لله فقد وفّقني الله لتحقيق قسم من مخطوط "الجامع الكبير" للشّيخ عبد الرّحمن الثّعالبي، وناقشت مذكرتي في شهر فيفري 2013م، وكنت في خلال بحثي هذا لمّا استشرته، أفادني رحمه بمعلومات قيّمة، سواء عن الثّعالبي، أو عن أماكن تواجد مخطوطات أو مصادر قد تفيدني، وكانت فرحتي كبيرة عندما أريته مذّكرتي وأبدى إعجابه بما قمتُ به من عمل، وهذه شهادة أعتزّ بها.

كان أساتذة القسم –الّذين كان أغلبهم من طلبة الدّكتور سعد الله–عندما يرونه يتزاحمون من أجل إلقاء التّحيّة عليه، والاستفادة من علمه، وهم في ذلك الموقف كنتُ أرى فيهم مثل الأبناء البررة الّذين اجتمعوا على والدهم الحنون لكي ينالوا بركته ورضاه، وهو رحمه الله كان يعطي كلّ ذي حقّ حقّه ولا يبخل بأي معلومة مهما كانت صغيرة.

لكن الشيء الّذي يحزّ في نفسي أنّني فقدت في كلّ مرّة عالما كبيرا وأنا في أمسّ الحاجة إلى استشارته، وحدث معي هذا مرّتين، ففي مرحلة الماجستير أردت استشارة الشيخ عبد الرّحمن الجيلالي في موضوعي، لكنّ الموت سبقني إليه، والآن وأنا مقبلة على مرحلة الدّكتوراه رغبت في استشارة الدّكتور سعد الله، فقيل لي أنّه مريض، فاستغنيت عن الاستشارة، بل أجلتها في سبيل راحته وسلامته، وإذا بخبر وفاته يصعقني كما صعق الجميع.

وبالرّغم من مرور أكثر من خمسة عشر يوما على رحيله عن هذه الدّنيا الفانية، إلاّ أنّني لا أزال غير مستوعبة لرحيله، أهو حقيقة أم أنّه كابوس مزعج أستيقظ منه فأجده حيّا يرزق، لازلت أبكيه كلّما رأيت صورة له، أو قرأت عنه مقالة في الجريدة، اعتدت في كلّ سنة أن أرى اسمه في جدول توقيت الماجستير في قسم التاريخ بجامعة الجزائر2، لكن هذه السّنة تألّمت كثيرا وأحسست بفراغ كبير لمّا لم أجد اسمه (حينها كان مريضا)، كانت كلّ دعواتي له بالشّفاء، لكنّ(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) الأعراف34.

حديثه عن سيرته و إنجازاته:

لم يكن الدّكتور سعد الله رحمه الله، من النّوع الّذي يجعل الحصّة مجالا لعرض سيرته الذّاتيّة، أو تمجيد إنجازاته، بل كان جلّ اهتمامه هو أن يكون درسه مليئا بالمعلومات القيّمة، وإنّ عدد المرّات الّتي حدّثنا فيها عن نفسه تعدّ على الأصابع، وهي في الغالب الأعم تأتي عفويّة عند حديثه عن موضوع ما تطلّب منه أن يقدّم لنا نموذجا عن حياته. وبالرّغم من ذلك فقد دوّنت في كرّاسي وبكلّ دقّة بعض المعلومات التي أفادنا بها عن مسيرته العلميّة، وبعض المواقف في حياته وبالفعل فقد كنّا محضوضين كونه رحمه الله حدّثنا بنفسه عنها.

أخبرنا كيف كانت رحلته للدّراسة في أمريكا، وكيف أنّه سافر بجواز سفر تونسي، كونهم كانوا في ذلك الوقت لا يعترفون بجواز السفر الجزائري، وكيف أنّه كان من المفروض أن يدرس اللّغة لمدّة سنة كاملة، قبل أن يتوجّه للدّراسة في إطار التّخصّص الّذي اختاره، ثمّ كيف استعجل في طلبه للدّراسة في الجامعة قبل إنهائه دراسة اللّغة، حدّثنا أيضا عن بعض مؤلفاته مثل كتابه "مسيرة قلم" الّذي دوّن فيه سيرته الذّاتية ومواقفه فيه، وحدّثنا عن موقفه من الانخراط في السياسة أو تولّي المسؤوليّات، وكيف أنّه كان يفرّ منها لدرجة أنّه في إحدى المرّات اختبأ أربعة أو خمسة أيّام في إحدى الولايات، عندما طلب منه تولّي منصب ما.

كما برز لنا تواضعه الكبير من خلال إعرابه عن امتعاضه لكون إحدى الجامعات الوطنيّة قامت بتكريمه، إذ قال لنا ما مفاده أنّه لا يعتبر تقديم برنوس له تكريما، بل تكريمه الحقيقي هو بإقامة ندوات علميّة وفكريّة، فقد كان رحمه الله يحبّ أن نكون نبّائين وفعّالين في المجتمع، لا أن نكتفي بالشّعارات البرّاقة.

مكانة الدّكتور سعد اللّه العلميّة:

لم يكن الدّكتور سعد الله رحمه الله رجلا عاديّا، بل كان كما قيل عنه شيخ المؤرّخين، ومؤسّس المدرسة التّاريخيّة، أديبا وناقدا، كان عالما موسوعيّا... بل عالما من زمرة الكبار، كما جمع مع علمه سمتا حسنا، ونبلا كبيرا، أخلاقا عالية، وإنسانيّة راقية... وإذا أردنا أن نشبّهه بغيره من العلماء فإنّنا نجده قد جمع بين شخصيات عديدة فهو ابن خلدون هذا الزّمان من ناحية كونه كان مجدّدا في زمن الرّكود الفكري، لكنّ الفرق بينه وبين عبد الرّحمن بن خلدون، أنّ السّياسة أغرت هذا الأخير فجرى وراءها حتّى كادت توصله إلى الهلاك، فيما راح أخوه يحيى ضحيّة من ضحاياها، أمّا الدّكتور سعد الله فقد هرب منها بكلّ ما أوتي من قوّة في الوقت الّذي كانت هي تفتح له أبوابها.

إنّ الدّكتور سعد الله شبيه بالعالم الجليل أبي عبد الله محمد الشّريف التلمساني، في كونه كان محبّا لوطنه رغم الحظوة التي نالها عند السّلطان المريني أبي عنان الذي جلبه معه من تلمسان إلى فاس، ولأنّه آثر العودة إلى بلده على البقاء بفاس، كما يكمن الشبه بينهما في كون كلاهما كان عالما موسوعيّا تجده في مختلف العلوم والمعارف، وكلاهما كان شغله الشّاغل هو التّدريس وتكوين الطّلبة فخرج على يدي الشريف التلمساني عبد الرّحمن وأخوه يحيى ابن خلدون، وابن قنفذ القسنطيني، والإمام الشّاطبي وابن عتاب.

وتخرّج على يدي الدّكتور سعد الله جملة من الأساتذة الّذين حملوا نفس أهدافه وقيمه، لكنّ الفرق بينهما أنّ الشريف التلمساني انشغل بالتّدريس وتكوين الطّلبة عن التّأليف فلم يخلّف إلاّ القليل، أمّا الدّكتور سعد الله، فقد كان منشغلا بالتّدريس والتّأليف معا. وقد قال السلطان أبو عنان المريني في الشريف التلمساني مقوله كأنّي به يقولها عن الدّكتور سعد الله، إذ قال: "لكأني أرى العلم يخرج من منابت شعره"(1).

إنّ شهرة الدّكتور سعد الله بين طلاّب العلم شبيهة بشهرة العالمين الجليلين أبي عبد الله محمّد ابن مرزوق الخطيب (الجدّ)، وأبي عبد الله محمد ابن مرزوق الحفيد، الّذين وصلت شهرتهما العلميّة حدّا جعل الطّلبة تقصدونهما من كلّ حدب وصوب، وجعلتهم يتغنّون بخصالهما الحميدة ويصفونهما بأرقى الصّفات، كما أنّهما كانا غزيري التّأليف مثله رحمه الله.

أمّا عن ابتعاده عن السّياسة وعن المناصب، فإنّي أرى فيه العلاّمة أبا زيد عبد الرّحمن الثّعالبي، الّذي لم تغره السلطة في حياته، زاهدا فيها إلى حدّ بعيد، منشغلا بالتّدريس والتّأليف وتنوير عقول النّاس، بل ونجده من خلال الرّسالة التي اكتشفها الدّكتور سعد الله وقام بنشرها يحرّض على الجهاد والوقوف ضدّ الأعداء، وقد قال عنه الدّكتور سعد الله رحمه الله: " ... إنّ الثعالبي قبل هذه الرسالة كان في نظرنا رجلا سلبيا متفرجا على الأحداث التي كانت تجري في عصره، أما بعد هذه الرسالة فقد أصبح في نظرنا رجلا إيجابيا داعية خير وجهاد، عمليا في أفكاره وتصرّفاته..." (2). ومثلما انتشرت واشتهرت كتب الثّعالبي في حياته كما قال أحد تلامذته: "... وأنّ في شيخنا هذا وتواليفه لسرّا بديعا وأمرا رفيعا، ولقد ظهرت تواليفه في حياته وسارت بها الرّكبان في الآفاق مع وجوده... وربّما يكون في أثناء بعض تصانيفه والنّاس يختطفونه من يده ويتبعونه بالنّسخ، حتّى ربّما أدركه النّسخ قبل أن يستكمل الكرّاس فينتظرونه..."(3)، فقد انتشرت كتب الدّكتور أبو القاسم سعد الله في حياته على اختلاف مواضيعها وأسمائها.

إنّ الدّكتور سعد الله شبيه بالعالم التّلمساني الشّهير الّذي لطالما أبدى إعجابه به وبإنتاجه العلمي، أبي العبّاس أحمد بن محمّد المَقَّري... شبيه به في حلّه وترحاله في مختلف الأماكن لتلقّي العلم، وهو من حدّثنا مرّة عن فوائد السّفر إذ قال: "سافر فإنّ في الأسفار خمس فوائد، تفرّج همّ، واكتساب معيشة، وعلم، وآداب، وصحبة ماجد". ومثلما أبدع المقَّري في موسوعته "نفح الطّيب في غصن الأندلس الرّطيب"، أبدع الدّكتور سعد الله في موسوعته "تاريخ الجزائر الثّقافي"، وفي غيرها.

وفي مجال اهتمامه بالتّراث الجزائري وبحماية المخطوطات من الضّياع والقيام بتحقيقها لتكون في متناول طلبة العلم، فإنّي أرى فيه محمّد ابن أبي شنب هذا العصر، فلكليهما مساهمات جبّارة في نفض الغبار عن عدد من المخطوطات القيّمة وتقديمها للباحثين.

أفنى الدّكتور سعد الله حياته في الدّفاع عن مبادئه... وفي خدمة وطنه، كما كتب هو بقلمه في النّسخة الّتي اشترتها عائلتي من كتابه "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" وطلبتُ منه أن يشرّفني ويكتب لي فيها بقلمه، فكتب ما نصّه: "يشرّفني أن أهدي هذا الكتاب إلى عائلة صاري المحترمة، وهو ثمرة من ثمرات جهدي العلمي في خدمة الوطن، فتح الله على الجميع سعد الله 3 فبراير 2010".

بهذه الخصال الحميدة عرف الجميع الدّكتور أبو القاسم سعد الله، وأحبّوه حتّى النّخاع مثلما أحبّ هو وطنه، وسخّر قلمه لأجله، متمسّكا بمبادئه... رأوا فيه الأستاذ والعالم الجليل، والإنسان المتواضع... ومن يتواضع للعلم يرفعه الله تعالى درجات... وأختم بقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوافَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) المجادلة 11.

رحم الله الدّكتور سعد الله وأسكنه فسيح جنّاته، اللّهمّ اجعل كل الطّلبة الّذين درّسهم الدّكتور سعد الله في ميزان حسناته، اللّهمّ اجعل كلّ ما قام به من تآليف وما قدّمه من علم صدقة جارية ينتفع بها يا ربّ العالمين، اللّهمّ اجمعنا به في جنّتك كما جمعتنا به في هذه الدّنيا.

الهوامش:

(1) يحـي بـوعزيز: **أعـلام الفكـر والثقافـة في الجزائـر المحروسة**، ج2، طبعة خاصة، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 69.

(2) أبو القاسم سعد الله: **أبحاث وآراء في تـاريخ الجزائـر**، ج1، ط3، دار الغرب الإسـلامي، بـيروت، 1424-2003، ص 203.

(3) عبـد الـرحمن الجـيلالي: **تـاريخ الجزائـر العـام**، ج2، دط، دار الأمـة للطباعـة والنشـر والتوزيـع، الجزائـر، 2009، ص 364.

السلام في الحضارة الإسلامية ودوره في التعايش بين الشعوب
قراءة في ترتيب قواعد تعامل الذات مع الآخر

الدكتور ابراهيم القادري بوتشيش
جامعة مولاي إسماعيل بمكناس -المغرب

إلى روح الراحل أبي القاسم سعد الله الذي عشق الحضارة الإسلامية، وتعرفت عليه في معهد تلك الحضارة، مكة المكرمة، أهدي هذا البحث المتواضع.

يعتبر موضوع السلام ودوره في خلق توافق بين الحضارات متنوعة المشارب، ودمجها في منظومة حضارية كونية متوازنة، من المواضيع بالغة الأهمية التي لم يسبر غورها بشكل عميق، ولا يزال ملفها مفتوحا لأفكار ورؤى الباحثين، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالحضارة الإسلامية التي أنتجت سلاما على أنقاض الحروب المدمرة التي راكمتها الحضارات السابقة عليها، فهيأت بذلك مناخا جديدا لتساكن الحضارات، والقبول بالآخر وعدم إقصائه، والتعايش بين الشعوب بدل التنافر، والتقارب بدل التباعد، والتعاضد والتعاون عوض التشتت والانعزال.

وتأسيسا على هذه الفرضية، فإن هذا البحث يسعى إلى الكشف عن صورة السلام التي قدمتها الحضارة الإسلامية للملمة خيوط الحضارات والهويات الثقافية المتنوعة الأصول، وذلك عبر سؤالين مركزيين يشكلان صلب الموضوع مدار الدراسة وهما:

1- ما هي المرتكزات التي استندت إليها الحضارة الإسلامية بغية تأسيس قواعد في التعامل مع الآخر تعاملا حضاريا يروم إدماج الثقافات المحلية والهويات المختلفة ضمن حضارة كونية متعايشة تتوحد أهدافها رغم اختلاف مناهجها، وتسعى لخلق إطار سلمي عالمي تتعايش في كنفه الدول والشعوب على اختلاف أعراقها؟

2- ما هي الآليات التي وظفتها الحضارة الإسلامية لخدمة هذا مشروع السلام العالمي الذي يسعى للتقارب مع الآخر، خاصة المعاهدات والاتفاقيات السلمية؟

للإجابة عن هذه الأسئلة المركزية، وإثارة إشكالية العلاقة الجدلية بين السلام والتعايش مع الآخر، لا مناص للباحث من اعتماد منهج تحليلي -توثيقي، يسعى إلى الجمع بين التاريخ والفقه، ليؤكد صحة فرضية أن السلام في الحضارة الإسلامية أفلح في التوفيق بين الحضارات والهويات الثقافية المتعددة.

أولا-مرتكزات السلام في الحضارة الإسلامية وقواعده في التعامل مع الآخر:

يجمع الدارسون على أن الحضارة الإسلامية حضارة كونية، تسعى بخطابها المتميز إلى خلق جسور التعارف الإنساني، ومدّ قنوات التواصل والحوار بين الشعوب، وإزالة التنافر بينها على الرغم من أصولها العرقية المختلفة. لذلك من البديهي أن يشكل "الآخر" حجر الزاوية في بنيتها الفكرية، وهو ما جعلها تكتسب مجموعة من القواعد والمبادئ التي تؤسس للسلم مع الآخر، وتدمجه في منظومتها بدل إقصائه بالقوة والغلبة أو الاستعلاء، وذلك وفقا لمجموعة من المرتكزات المستمدة أصلا من المرجعية القرآنية، نذكر منها:

1-المنحى التعارفي مع الآخر واحترام هويته الثقافية:

ينطلق الفكر الحضاري الإسلامي في تصوره للعلاقات البشرية من مبدأ الأصل الإنساني المشترك وأخوة البشرية التي تمتح كينونتها من الأبوة المشتركة المتمثلة في آدم عليه السلام، ومن التكريم الإلهي للإنسان، ومن ثم تصبح البشرية في منظور ذلك الفكر أسرة دولية واحدة ملزمة بأداء واجبها في التواصل والتعارف انسجاما مع النص القرآني الداعي إلى التعارف الإنساني قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات 13. فالحضارة الإسلامية تنظر إلى العلاقات

الدولية كصلة قوية لا يصح قطعها حتى مع المخالف إذا لم يكن معتديا على الدولة الإسلامية. والمتفحص للنصوص القرآنية يتبيّن أن الله تعالى أمر بتأليف القلوب ليس بين أبناء العقيدة الواحدة فحسب، بل أيضا مع الغير، وإيصال حبل المودة والاحترام مادام الآخر لا يسعى في الأرض فسادا، ولا يهدد استقرار البشرية.

بل يتضح من خلال الشواهد التاريخية أن هذه المودة الموصلة لا تقطعها حتى الحرب إن فرضت على المسلمين. وفي هذا الصدد يروى أنه أثناء صلح الحديبية بلغ الرسول أن قريشا أصابتهم جائحة، فأرسل عليه السلام مع حاطب بن بلتعه إلى أبي سفيان 500 دينار ليشتري بها قمحا ويوزعها على فقراء قريش. وهذا دليل على أنه حتى ولو قامت الحرب مع الأعداء، فإن العلاقة لا تنقطع مع رعاياهم المسالمين، فالشعوب في منظور الحضارة الإسلامية تتبادل المودة، ولا يؤثر فيها الصراع، لأن الحرب ظرفية واستثنائية، والسلم هو الأصل، لذلك أباح بعض الفقهاء مثل أبي حنيفة الاتجار مع الدولة المحاربة [1]. ولعلّ ما يستشف من هذا الرأي الفقهي أن الحضارة الإسلامية تغلّب القيم في العلاقات الدولية، وتتجرد من الأنانية في خطابها مع "الآخر"، وهي الأنانية التي كانت تؤدي إلى عبادة القبيلة في العصر الجاهلي، والعرق والدولة والوطن في العصر الحديث، مما وجّه ضربة قاصمة لمبدأ التنوع الحضاري.

2-الوفاء بالعهود والالتزام بالاتفاقيات لضمان التعايش مع الآخر:

ينطلق السلام في الحضارة الإسلامية في مسألة التعامل مع الآخر من رفض واضح وصريح للفلسفة الميكيافيلية المبنية على أساس أن الغاية تبرّر الوسيلة، ويتبنى عكس ذلك منهج الأساليب المشروعة التي تتسم بالصدق والوضوح وحسن النوايا. ولإبراز أهمية هذه الأساليب التي نهجها المسلمون، يكفي –في إطار المقارنة –أن نؤكد أن أسباب الحربين العالميتين وكل الحروب التي دارت رحاها على مرّ التاريخ وجرّت الويلات والمصائب على الشعوب، تعزى في المقام الأول إلى عدم احترام الدول لمواثيقها وعهودها. ويمكن أن نسوق في هذا الصدد مثال الاستعمار الصهيوني لفلسطين الذي جاء نتيجة غدر بريطانيا وخيانتها في عهودها للعرب أثناء الحرب العالمية الأولى، وذلك بتخليها عن وعودها في قيام دولة عربية مستقلة [2].

ويفهم من النصوص القرآنية التي ارتكزت عليها الحضارة الإسلامية أن الوفاء بالعهود أمر يدخل في خانة المقدس، لأنه أمر واجب وملزم صدر من ذات الله الآمرة بصيغة الإطلاق بدليل قوله تعالى﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾الإسراء: 34. كما أن المعاهدة غير مقيدة بحالة ضعف أو قوة، لأنها ليست علاجا لحالة ظرفية، بل لإنشاء سلم عالمي وتثبيته على الدوام.

بل تذهب الشريعة الإسلامية في سياق الحفاظ على العهود إلى أقصى حد، فحتى في الحالة التي يتوجس المسلمون من عدوهم خيانة، لا ينبغي أن ينقضوا العهد، بل عليهم إخبار العدو بانتهاء العهد الذي التزموا له تجاه عدوهم ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (الأنفال: 58)، وذلك حتى يكون المسلمون وخصمهم على علم بالنبذ؛ والحكم هنا أن لا يكون نبذ العهد عملا من أعمال الغدر، فالقرآن يأمر بالنص الصريح الالتزام بالعهد إلى نهايته ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ التوبة: 4. لذلك يصدق حكم أحد الباحثين [3] بأن الإسلام ينفرد عن غيره من الديانات في احترام الاتفاقيات والعهود.

ولدينا من النماذج التاريخية الواردة في السيرة النبوية ما يؤكد حرص المسلمين على احترام العهود، فقد أرجع الرسول ﷺ أبا جندل إلى قريش بموجب اتفاقية الحديبية، وخاطبه بقوله: ((يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم))[4].

وبالمثل أدان النبي الكريم بشدة كل أشكال الغدر ونكث العهود، حتى أن الإمام البخاري خصص بابا من أبواب الأحاديث الشريفة تحت عنوان ((إثم من عاهد ثم غدر))[5]. وأدرج عليه الصلاة والسلام مسألة نكث العهود ضمن صور النفاق [6]. بل إنه رفع مرتبة الوفاء بالعهد إلى درجة أركان الإيمان كما جاء في الحديث: ((إن حسن العهد من الإيمان)) [7]. وعندما بلغ إلى سمعه إبان صلح الحديبية بنية المشركين في خرق الصلح، قال لأنصاره: ((وفّوا لهم واستعينوا عليهم))[8]، مما يدل أنه حتى في حالة الشك فإن على المسلمين أن يسيروا بالعهد حتى نهايته.

وعلى هدي القرآن والسنة النبوية، استنبط الفقهاء العديد من الأحكام المتعلقة بالوفاء بالمعاهدات السلمية. وقد أجمع هؤلاء على عدم جواز استخدام نقض العهد كحيلة من الحيل الحربية؛ فمن أقوال الإمام النووي في هذا الصدد: ((اتفقوا على جواز خداع الكفار في الحرب كيفما أمكن إلا أن يكون منه نقض عهد أو أمان فلا يجوز)) [9]، وإن كان فقهاء الحنفية قالوا بجواز نقض العهد إذا تبيّن أن مصلحة الجماعة الإسلامية تستوجب ذلك[10]. كما أن الشافعية أقروا بجواز نبذ المعاهدة إذا كانت مطلقة غير محددة، وتغيرت الظروف التي أدت إلى عقدها [11]، وهذا الحكم مستمد من الواقع، ومبني على أصل فقهي عند من قالوا به، وهو ما يسمى اليوم ب ((الفسخ للظروف الطارئة))[12].

3-اعتزال النزاعات الدولية:

يعد مبدأ الاعتزال وعدم التدخل في شؤون الغير من أهم المبادئ التي قام عليها السلام في الحضارة الإسلامية. وإذا كان بعض الباحثين ذهبوا إلى القول بأن مبدأ الاعتزال أو الحياد غير ممكن بمقتضى الأحكام الفقهية، فإننا نعتقد أن هذا الحكم يحتاج إلى مراجعة. ولعلّ الوهم الذي وقع فيه من تبنوا هذا الرأي يعزى إلى اعتمادهم في فقه هذه المسألة على الفروع الجزئية التي كان يفتي بها الفقهاء والحرب قائمة على قدم وساق، وهي حالة ينتفي فيها الحياد. فإذا كان الرعايا الكتابيون تحت سلطة دولة أخرى، وكانت هذه الدولة كتابية أيضا، فإن الدولة الإسلامية تقف محايدة ما دامت مصلحتها لم تتعرض لأي خطر. بيد أنه في حالة ما إذا كانت الدولة المسيطرة مشركة أو ملحدة، فإن الحياد ينتهي ولا يعود إلا إذا تحرر الشعب من طغيان الدولة المشركة التي تحكمه وتقيّد حريته [13].

وعلى العموم فإن الشريعة الإسلامية حرصت على مبدأ الحياد عند وجود قوتين متنازعتين، وذلك للأسباب التالية:

أ-أن الأصل في العلاقة بين المسلمين وغيرهم هي السلام، فما دامت أسباب الحرب غير متوافرة، فيتعيّن التزام جانب السلم، والحياد في هذه الحالة هو السلام نفسه.

ب-إن الحروب في النزاع بين قوتين كبيرتين تكون لأهداف دنيوية، لا لغايات تتعلق بالأخلاق والفضيلة. وفي هذا الصدد قال الإمام مالك: ((دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما)) [14].

ج-إن دخول المسلمين في هذه الحرب تأييد لأحد الفريقين الظالمين على الآخر، وتأييد الظلم لا يجوز. وإذا كانت إحدى الدولتين المتحاربتين معتدى عليهما، فينبغي أن تعاون المظلوم بشرط النظر إلى المصلحة الإسلامية في ذلك [15].

وفي إطار عدم التدخل في الشؤون الداخلية لاستقطاب الآخر وكسب وده، تثبت وقائع التاريخ أن الدولة الإسلامية في عصر النبوة عقدت مجموعة من معاهدات الحياد، من بينها عقد اتفاقية مع بني ضمرة[16]، تتضمّن عدم الاعتداء، وهو ما يشير إليه القرآن بمعنى الاعتزال، مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَاجَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ النساء: 90.

وقد أثبتت الوقائع والأحداث التاريخية أن الدولة الإسلامية تحت قيادة الرسول الأعظم لم تتدخل في شؤون الدول المجاورة، بل إن النبي الكريم ترك لبعض أمراء الجزيرة الذين أسلموا سلطتهم وإدارة شؤون دولتهم حسب قوانينهم وأعرافهم.

4-المعاملة بالمثل مع تغليب الفضيلة:

يستمد هذا المرتكز في الحارة الإسلامية، روحه من القرآن الكريم الذي يدعو إلى العدالة المطلقة في علاقة المسلم بالآخر دون ظلم أو اعتداء، يقول الله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾البقرة: 194، وهو ما يعني أن رد الفعل تجاه فعل الغير يرتكز في المنظور الحضاري الإسلامي على أن الجزاء يكون على قدر الاعتداء، مع منع تجاوزه، بل إن الفكر الإسلامي المتسامح ممثلا في القرآن الكريم، يقتضي من الإنسان أن يتنازل ويصفح ويعفو متى وجد إلى ذلك سبيلا (النحل: 126)، مما يدل على أن المعاملة بالمثل ليست مطلقة أو ذات طابع انتقامي، بل هي مقيدة بالفضيلة[17].

وتعكس السيرة النبوية صورة أخرى لتغليب الفضيلة في التعامل مع الآخر، وحسبنا أن الرسولﷺ عفا عن أهل مكة بعد أن مكّنه الله من رقابهم، فلم يعاملهم بالمثل، ولم يخرجهم من ديارهم، ولم يؤذهم كما فعلوا به، رغم أن ميزان القوة كان في صالحه، وهو ما يترجم شكلا من أشكال السلوك الحضاري في مجال تطبيق الحضارة الإسلامية. وحتى أثناء الحروب التي فرضت على المسلمين، كان المشركون يمثلون بجثث الشهداء من المسلمين كما وقع لحمزة بن عبد المطلب مع هند زوجة أبي سفيان في غزوة أحد، ومع ذلك لم يرد المسلمون بالمثلّ [18]. ولم يكن من شيمهم قتل الأطفال والشيوخ والعجزة كما كان يفعل المشركون.

5-الوساطة والتحكيم والمفاوضات:

عرفت الحضارة الإسلامية في سياق السلام وتأليف القلوب ونزع فتيل الحروب أشكالا من الوساطات والتحكيم لإصلاح ذات البين، وهو مبدأ مستمد من هدي القرآن الكريم الذي يدعو إلى الوساطة والتدخل لإيقاف الحرب بين دولتين متنازعتين، إلا إذا بغت إحداهما على الأخرى فأصبحت ظالمة، فآنذاك يجوّز القانون الإسلامي محاربتها [19]، علما بأن الحرب في هذه الحالة تعد حربا من أجل السلام وتأسيس مستقبل الدولتين وتحقيق الأمن والاستقرار لكل منهما. فالمصالحة تدبير وقائي لمنع استمرار الحرب وإعادة السلم. كما أن التحكيم وسيلة سلمية أخرى عرفتها الحضارة الإسلامية كشكل من أشكال تسوية الخلافات، وحسبنا أن القانون الإسلامي أجاز التحكيم بين الجماعات الإسلامية وغير الإسلامية في القضايا التي لا تؤدي إلى المساس بجوهر العقيدة [20]. وقد جوّز الفقهاء للإمام أن يوافق على عرض النزاع على طرف ثالث بهدف إنهاء القتال بين المتحاربين [21].

ومن النماذج التاريخية التي يمكن سردها في هذا السياق التحكيم الذي رضي به الرسول ﷺ مع قبيلة بني قريضة اليهودية، إذ وافق عليه السلام بتحكيم سعد بن وقاص الذي اختاره اليهود حكما، ومع ذلك جاء الحكم لصالح المسلمين [22].

كما يمكن ذكر التحكيم الشهير الذي جرى بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وهو أبرز تحكيم في التاريخ الإسلامي، وذلك سنة 37هـ/657م حيث اجتمع الحكمان في دومة الجندل، واتفق الطرفان خلاله على ترك الأمر شورى بين الناس بشأن من يخلف المتنازعين على الحكم [23].

لا يهمنا في هذا التحكيم الخلفيات التي كانت وراءه، أو انعدام حسن النية لدى أحد الطرفين بقدر ما يعنينا كلاهما جعلا كتاب الله فيصلا في الحكم فيما اختلفا فيه، رغم أن النص غامض ومختزل ولا يبين الغرض من التحكيم ولا القضايا التي ينبغي التحكيم فيها، وكل ما هو واضح أنه تمّ على أساس الرجوع إلى القرآن لإيجاد حلّ توافقي ينهي الصراع [24].

فضلا عن الوساطة والتحكيم يتكئ السلام في الحضارة الإسلامية أيضا على مبدأ المفاوضات كوسيلة أيضا لحلّ النزاعات. ويقوم النص القرآني دليلا على ما توليه الشريعة الإسلامية من أهمية للمفاوضات، إذ قال تعالى مخاطبا نبيه موسى عليه السلام:﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾طه: 43-44. ويستشف من هذا النص القرآني أن الحق سبحانه وتعالى دعا موسى وأخاه هارون إلى مفاوضة الطاغية فرعون، لأن

المفاوضات خطوة لا بد منها مع الحكام الطغاة، ومدخل سلمي ضروري معهم. وتقدم لنا القيادة المحمدية أروع نموذج للمفاوض الناجح مع أكبر قوة شر وأكثرها بطشا وجبروتا وهي قريش المشركة، ومع ذلك جرب الرسول ﷺ أقسى مفاوضات سجلها التاريخ، وأسفرت عن صلح الحديبية.

ورغم ما تعرض له عليه الصلاة والسلام من استفزازات وضغوطات نفسية وعسكرية كانت تروم إفشال تلك المفاوضات، حيث لجأت قريش إلى اعتقال الوفد الإسلامي المفاوض برئاسة عثمان بن عفان، فإن الرسول ﷺ تمسك بموقفه بقبول المفاوضات والابتعاد عن الخيار العسكري، ولم يكن هذا الخيار ناتجا عن ضعف، بل نبع من موقف قوة، وبذلك أعطى النبي الكريم درسا في المفاوضات الصعبة التي تحل النزاعات وترسخ السلام [25].

بيد أن روح السلام في الحضارة الإسلامية لا تقبل المفاوضات التي يكون الهدف منها إعطاء الشرعية للعدوان والظلم أو المساس بحقوق الإنسان. ويستشف هذا الموقف من خلال رفض محمد ﷺمفاوضة قريش بعد اعتدائها على قبيلة خزاعة التي كانت قد تحالفت معه [26].

ثانيا–المعاهدات السلمية في الحضارة الإسلامية وأثرها في التعايش مع الآخر:

- خصائص المعامدات السلمية وعلاقتها بربط الصلة بالآخر:

من الأكيد أن للمعاهدات أثر كبير في العلاقات مع "الآخر"، والتوافق والتعايش معه، فهي تبعث على الثقة والاطمئنان بين الشعوب، وتجعل حدا لحالة الذعر والقلق الذي يمكن أن يعكر صفو العلاقات بينهم، وبها يتوقف القتال ويرخي السلام بظلاله على العلاقات الدولية، ويصفو الجو وتنتشر المحبة بين سكان المعمور، ويسود الانتعاش الاقتصادي ويعم الأمن والرخاء، وتنشط التجارة وتفتح الأسواق أمام المنتجين. لذلك أولت الحضارة الإسلامية عناية قصوى لهذا الجانب، وكان للتطبيق الفعلي للرسول وهو في مركز القيادة في المدينة الأثر الفعّال في إخراج هذه السياسة إلى حيز التنفيذ، لا للتحكم أو السيطرة، بل لإقرار السلم وبناء علاقات حسن الجوار، والقبول بالتنوع الحضاري مع الآخر.

وقد استخدم القاموس الإسلامي مجموعة من المسميات المعبّرة عن المعاهدات مثل المراوضة والموادعة والمهادنة والأمان والمباهلة والمساندة والفداء، وكلها مفاهيم تصب في معنى السلام مع الآخر، علما أن الإسلام أقر جميع أنواع هذه المعاهدات لصيانة السلم والأمن الدائمين، ونشر مبادئ الحق والعدل بين الأمم [27].

ولا يمكن للباحث المنصف إلا أن يقرّ بأن الحضارة الإسلامية أفلحت في تغيير مفهوم المعاهدات التي كانت سائدة في تاريخ البشرية، إلى معنى أرقى يقوم على العدالة والسلام. ففي العصر الجاهلي، بل وحتى في العصور السابقة واللاحقة له، كان الطرف الأقوى يتخذ من المعاهدات وسيلة لفرض إرادته وسلطانه على الطرف الضعيف، حتى إذا قوي هذا الأخير بادر إلى نبذها، فكانت بهذا الشكل صورة لسلطان الأقوياء، وليست مبادرة حكيمة ومتوازنة لإقرار السلم العادل وسريانه بين الأمم [28].

لكن بعد ظهور الإسلام، أصبح مفهوم المعاهدات يؤسس للسلام وتثبيته، بعيدا عن أي مظهر للهيمنة أو تحكم طرف في الآخر. ومما يؤكد ذلك أن المعاهدات التي أقرها النبي سواء مع المشركين وغيرهم من الأمم الأخرى كانت في غاية الدقة والوضوح، وبعيدة عن اللف والدوران، أو تعمد اللبس والغموض، كما تميزت بصدقها وبعدها عن كل شك أو احتمال أو تأويل خاطئ [29].

ومن خصائصها أيضا أنها كانت مبنية على الرضى والقبول المتبادل دون إجبار أو إكراه تحت طائلة أي تهديد. كما اتسمت بواقعيتها وبعدها عن المثاليات حيث أن جلها كان قابلا للتطبيق. ولتلافي الخلاف بين الطرفين عند التنفيذ، حرص صلى الله عليه وسلم أن تكون هذه المعاهدات محررة ومكتوبة، حتى يمكن الرجوع إلى نصوصها عند الاختلاف.

وبالرجوع إلى الأرشيف التاريخي، نجد أن المعاهدات النبوية التي أبرمت مع اليهود في المدينة أو مع المشركين

في صلح الحديبية أو مع وفد نجران من النصارى، كانت تختتم بالإشهاد على مضمونها من كلا الطرفين، بل تخضع للتوقيع في بعض الأحيان: ففي معاهدة الحديبية وقّع وثيقة الصلح سهيل بن عمرو ومكرز بن حفص عن قريش، ثم ختمت بخاتم النبي ﷺ، وشهد معه كل من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم [30]. وفي معاهدة وفد نجران جرى الإشهاد عليها كذلك من قبل خمسة شهود من الذكور، وكلها إجراءات تعبّر عن الإرادة والالتزام في عقد المعاهدات وحماية مضمونها الداعي إلى السلام، وتفادي كل تلاعب أو مساس بروح المصداقية وحسن النية [31].

وتتيح القراءة المتأنية في معاهدات السلام التي أبرمت في العصر النبوي، استنباط ثلاث ملاحظات تندرج جميعها في خانة السلام وقبول مبدأ التنوع الحضاري:

أ-كانت بعض هذه المعاهدات تتضمن أحكاما سابقة عن الإسلام، ومستمدة من شرائع أخرى، خاصة تلك التي لم تكن متعارضة كل التعارض مع الديانة الإسلامية، أو على الأقل تسير في اتجاه الأحكام الشرعية التي أوردتها نصوص القرآن والسنة على إطلاقها دون إقرار أو إنكار، مما أعطى لعلاقة الدولة الإسلامية بالآخر هامشا واسعا من الحرية، وفضاء من المرونة والليونة في التطبيق.

ب-وجدت ضمن المعاهدات السلمية التي عقدها المسلمون في العصر النبوي على الخصوص ما يعرف بالمعاهدات المفتوحة التي تكون أبوابها مشرّعة لدخول قبائل وقوى سياسية أخرى لم تكن في الأصل طرفا في المعاهدة، وهو أمر ينطبق على معاهدة الحديبية التي أجازت انضمام الغير إليها حسب ما ورد في أحد بنودها ((من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعدهم دخل فيه))، ممّا يؤكد منظور الحضارة الإسلامية الواسع للسلام وقبول الآخر، رغم الخلاف السياسي والعقدي، وفتحه الباب لتعدد القوى الراغبة في الدخول فيه.

ج-حرصا على تثبيت السلام وتنفيذ المعاهدات السلمية، سعى المسلمون إلى توثيقها بالأيمان، فكثيرا ما كانت المعاهدات توثق بالأيمان تأكيدا للالتزام بها، وإثباتا أنها عهد أمام الله [32]، فتتحول من الدائرة البشرية إلى دائرة المقدس، مع ما يفرضه ذلك المقام من إلزام في التنفيذ.

وبهدف إعطاء المعاهدات صبغتها القانونية حتى تعمل على تثبيت السلام والتعايش مع الآخر، ذهبت الدولة الإسلامية إلى تقنينها سعيا لإزالة كل لبس وغموض؛ وفي هذا الصدد لخص القلقشندي[33] ما أقره الفقهاء حول من له الحق في عقد المعاهدات من المسلمين بقوله: ((فإذا كان المعقود عليه إقليما كالهند والروم ونحوهما أو مهادنة الكفار مطلقا، فلا يصح العقد إلا من الإمام الأعظم أو من نائبه العام المفوض إليه التحدث في جميع المملكة، وإن كان على بعض القرى والأطراف فلأحد الولاة المجاورين لهم عقد الصلح معهم))، وهو نص يحدد الجهة المخولة لعقد المعاهدات السلمية حسب اختلاف الأمكنة وقربها من مركز الخلافة، ومنه نستشف أن عقد المعاهدات في الأقاليم الكبيرة كانت من اختصاص خليفة المسلمين أو نائبه الذي ينيبه عنه في إمضاء المعاهدة، بينما يمكن للوالي أن يعقد المعاهدات بنفسه في القرى أو الأماكن القاصية.

وقد بلغ من اهتمام الدولة الإسلامية بموضوع المعاهدات السلمية ما جعلها تدمجها ضمن دواوينها الكبرى، فأنشأت لها وظيفة خاصة تعرف ب ((كتابة الرسائل)) التي كانت تهدف إلى العناية بأرشيف المعاهدات وترتيبها وحفظها [34].

ولتحقيق نفس الهدف أيضا وهو حماية السلام من خلال المعاهدات، سطّر الفقهاء مجموعة من الأحكام الشرعية التي تضبطها وتصونها حفاظا على السلام، فقد اشترطوا فيمن يتولى عقد المعاهدة شروطا وهي: صحة التفويض والأهلية والإسلام وسلامة الإرادة. كما اشترطوا في موضوع المعاهدة أيضا ألا يخالف حكما من الأحكام الشرعية وأن يكون في مصلحة المسلمين، وأن يتم بالتراضي وبتوفر النية الحسنة للطرفين [35]. وكانت المعاهدة التي تبرمها الدولة الإسلامية تمر بثلاث مراحل وهي مرحلة التفاوض ومرحلة التحرير والتوقيع ثم مرحلة التصديق [36].

ومن ناحية المصدر تنقسم المعاهدات إلى قسمين:

1- المعاهدات التي أبرمها الرسول ﷺ، وهي معاهدات شارعة تؤدي دورا تشريعيا من حيث أنها مثبتة للإرادة الإسلامية الشارعة.

2- المعاهدة التي يبرمها ولي الأمر، وتتضمن أحكاما شرعية استنبطها الذي أبرمها اجتهادا من الأصلين –القرآن والسنة –ولذلك فهي مصادر تشريعية استدلالية ينطبق عليها ما ينطبق على الاجتهاد من أحكام [37].

أما من الناحية الزمنية، فالمعاهدات السلمية التي شهدها التاريخ الإسلامي تنقسم بدورها إلى قسمين: مؤقتة ومطلقة، فالمعاهدة المؤقتة تكون مرتبطة بمدة معلومة، ويكون فيها الوفاء لازما شرعا ما دام الطرف الآخر لم ينكث عهده. فالنبي ﷺ في معاهدة الحديبية لم يفكر في النكث بالعهد حتى نقضه المشركون من جانبهم ولم يفوا بالتزاماتهم. أما المعاهدة المطلقة فهي التي لا تحدد بمدة زمنية محددة، وإنما تكون دائمة إلا إذا اعترضها عائق من العوائق، فيمكن آنذاك أن يتحلل المسلمون منها [38].

وعلى العموم، ومن خلال تتبع مراحل التاريخ الإسلامي، يمكن استنباط أصناف من المعاهدات السلمية يمكن رصدها إجمالا فيما يلي:

1-معامدات الصداقة والتعايش بين الأجناس:

هي المعاهدات التي تبرم بين دولة إسلامية ودول أخرى أجنبية أو بين شعوب متنوعة الأعراق مختلفة في أصولها الحضارية، بهدف تثبيت السلام والالتزام بعدم الاعتداء، وهو ما يعرف أيضا بالموادعة التي هي ميثاق سلام تتعهد الأطراف التي تعقده بأن تكف عن أي عمل من الأعمال العدوانية أو التحالف ضد بعضها البعض. والواقع أن التراث الفقهي لم يميز بما فيه الكفاية بين هذا النوع من المعاهدة وما يعرف بالمهادنة التي هي معاهدة تعقدها دار الإسلام مع دار الحرب ويكون موضوعها هو الصلح وترك القتال مدة مؤقتة، فالمهادنة تكون مدة زمنها السلمية مؤقتة، بينما الموادعة تكون مدتها الزمنية السلمية غير محدودة [39].

وقد عقد الرسول ﷺ عدة معاهدات للصداقة وحسن الجوار سواء مع الأجناس والأعراق المتنوعة المشكلة لدولة المدينة بهدف حماية السلم الداخلية أو مع الدول الأجنبية، أو مجموعة من القبائل لتحقيق السلم الخارجي. ومن القبائل المجاورة للمدينة التي ألقى الرسول ﷺ إليها حبل المودة والصداقة قبائل بني ضمر التي عقد معها معاهدة عدم اعتداء [40]، وقبيلة جهينة المقيمة في طريق القوافل التجارية المتجهة من و إلى الشام[41]، وهي معاهدات بقدر ما كانت تخدم السلم، كانت أيضا توفر المناخ الملائم لإنعاش تجارة دولة الإسلام الفتية، كما أنها لم تكن تحالفا دينيا أو إكراها على دين، بل كانت دعوة إلى سلم بين المتعاقدين[42].

أما بالنسبة لمعاهدات حسن الجوار والتعايش بين الأجناس المختلفة فإن صحيفة المدينة تقدم النموذج الأمثل للمعاهدات السلمية، إذ وضع الرسول ﷺ في هذه الصحيفة أول دستور إسلامي يسمح بتعايش سلمي وحسن جوار بين مكونات المدينة المنورة[43]، بل خلق من هذه المكونات وحدة سياسية متجانسة تقوم على التحالف والتفاهم دون تعصب أو صراع رغم الاختلاف الثقافي والحضاري، وأقام هذه المعاهدة السلمية على أساس من العدل والمساواة والحرية الفكرية والعقدية، مما جعل مجتمع المدينة "مجتمعا دوليا" تتعايش فيه كل الأجناس والديانات رغم اختلافها في الأصل والعرق والدين، حيث اعتبروا جميعا أمة من المؤمنين.

ورغم أن بنود هذه المعاهدة الدستورية لا تحدد فترة التعايش السلمي، فإن واجب احترام العهود كان ملزما للمسلمين بتنفيذ بنوده كاملة. لذلك يمكن القول بكل موضوعية ونزاهة أن صحيفة المدينة تجسد بحق نموذجا تاريخيا في التعايش، ومثالا بارزا لمبادئ السلم وقدرته على إدارة الخلاف في مجتمع متعدد العناصر، حيث كان السلام نواة للتحالف والتكتل كما يبدو ذلك جليا من البند القائل بأن ((سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم)). كما نصت الوثيقة على مبدأ عدم حماية من يخرج عن دائرة المسالمة، وأكدت على سيادة الدولة لكل أمة تتعامل مع المجتمع الإسلامي، ومشروعية التحالف لمحاربة أعداء السلام حيث ورد في إحدى بنودها: ((وعلى اليهود نفقتهم وعلى المسلمين بينهم النصر على من دهم يثرب).

كما تضمنت نصا صريحا حول نصرة المظلوم، مما يبين أن معاهدة المدينة كانت تنشد إقامة السلم وتثبيته بالعدل ونصرة الضعيف.

وبهذه البنود السلمية، فسحت صحيفة المدينة الطريق العملي والتطبيقي للتعارف والتعايش الذي ميّز الحضارة الإسلامية، لولا أن اليهود نقضوا المعاهدة بسلوكاتهم التآمرية.

وعلى هدي السيرة النبوية، سار الخلفاء الراشدون بهذه المواقف التي تعبّر عن أصل السلم في علاقات المسلمين بغيرهم، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعقد اتفاقية سلام مع أهالي منطقة الجراجمة على الحدود الشامية التركية، وهذا عثمان بن عفان يعقد بدوره اتفاقية سلام مع أهالي قبرص، والقاسم المشترك بين هذه المعاهدات السلمية أنها تنطلق من موقف قوة وتؤرخ لسلام الشجعان[44].

2- عقود الأمان كأداة لاستقطاب الآخر:

هي عبارة عن معاهدات تسمح للأجانب بدخول دار الإسلام إذا لم يكن مأذونا لهم بذلك وفقا لمعاهدة حسن الجوار أو معاهدة صلح؛ وغالبا ما يكون هؤلاء الأجانب ممن تسميهم كتب الفقه بالحربيين الذين يعتبرون بحكم هذه المعاهدة مستأمنين. وتكمن أسباب دخولهم التراب الإسلامي في تجارة أو سفارة أو زيارة خاصة، أو حمل رسالة أو مهادنة أو حمل جزية، فيحصلون بموجب عقد الأمان على إذن من السلطة الإسلامية، وعهد بحماية أرواحهم وممتلكاتهم، إلى أن يعودوا إلى أوطانهم بسلام[45]. وقد عرف ما هو شبيه بهذه المعاهدات التأمينية فيما عرف عند الإغريق بـ Mateoc، وعند الرومان باسم Hos pitium privatium [46].

والجدير بالذكر أن عهود الأمان محددة زمنيا إذ لا تزيد في العادة عن سنة واحدة، وإن كان الفقهاء الحنابلة يصلون بها إلى عشر سنوات. ويرى البعض أن الأمان ليس معاهدة، وإنما هو تصرف من الإرادة الفردية، بحجة أن الأمان لا يكتب بالضرورة، بل يكتفي أحيانا لبيانه بأي كلمة أو إشارة تدل عليه كالتحية بالسلام قولا أو إشارة. لكننا من خلال ما اطلعنا عليه من وثائق في التاريخ الإسلامي تبيّن لنا أن أغلبية عقود الأمان كانت تكتب وتوثق، مما يجعلها تدخل في خانة المعاهدات، خاصة أنها تتم بين طرفين أو أكثر.

أما في الجانب القانوني، فإن عقد الأمان يخول الحماية الكاملة للمستأمن أثناء إقامته في دار الإسلام، وهو ما يوضحه الماوردي[47] بقوله: ((ولأهل العهد إذا دخلوا دار السلام الأمان على نفوسهم وأموالهم، ولهم أن يقيموا فيها أربعة أشهر بغير جزية، ولا يقيمون سنة إلا بجزية، وفيما بين الزمنين خلاف)).

ويفهم من نص الماوردي أمران:

1-أن الجزية تميز عقد الأمان من عقد الذمة كما سنعالجه، فالمؤمّن لا يدفع الجزية، وإلا تحوّل إلى ذمي يؤديها للسلطة الإسلامية إذا طالت مدة إقامته في التراب الإسلامي.

2-حدد الماوردي مدة إقامة المستأمن الوافد من "دار الحرب" بأربعة أشهر يكون فيها مؤمّنا على نفسه وعلى أمواله وأهله، لكن في حالة ما إذا بلغت مدة الإقامة سنة، وقع اختلاف الفقهاء بين من يوجب عليه دفع الجزية ومن لا يجيز. بيد أن الاتفاق حاصل حول وجوب دفع الجزية إذا تجاوزت إقامته سنة باستثناء الحنابلة الذين جعلوها عشر سنوات كما أسلفنا الذكر. ومهما كان الأمر، فالواجب على حاكم الدولة الإسلامية حماية المستأمن طيلة هذه المدة، وكل اعتداء وقع عليه يلزمه ضمان المؤمّن[48]، بل يذهب القانون الإسلامي أبعد من ذلك حين يمنح المستأمن بعض الامتيازات كإعفائه من الضرائب وغيرها من الأحكام التي تنفذ على المسلمين أنفسهم.

ويتضح من خلال هذه الوصفة القانونية لعقود الأمان أنها مبادرات تستهدف مدّ جسور السلام مع "الآخر" عن طريق تسهيل مهمة رعاياه سواء في مجال التجارة أو الأعمال وغير ذلك. فالحضارة الإسلامية بنظرتها الواعية، وبسماحتها وتفضيلها السلام على الحرب، واعتبار هذه الأخيرة أمرا عرضيا وأنها تكون بين الجنود وليس بين الرعايا، أمّنت هؤلاء المستأمنين حتى وإن كانت الحرب في

ذروتها. وفي حالة وفاة المستأمن وهو مقيم في "دار الإسلام" أقرّ الفقه الإسلامي أن أمواله تنقل لورثته[49].

ومقابل ذلك، اشترط الفقهاء على هؤلاء المستأمنين – ترسيخا للسلام المتبادل–أن يحترموا قوانين الدولة الإسلامية وسلامة أراضيها، فإن انتهكوا قوانينها كالخدمة في أعمال التجسس أو نقل السلاح أو العتاد، أو خالفوا ما يسمح به قانون المعاملات، خرجوا بذلك عن عقد الأمان [50]. وعادة ما ينتهي عقد الأمان بمضي المدة التي اتفق عليها الطرفان، أو بنقض من أحدهما [51].

وإلى جانب عقود الأمان التي تمنح للوافدين على الدولة الإسلامية، ثمة عقود أمان تقترن عادة بالصلح الذي يعقب الحرب فتؤمن الناس على حياتهم وأموالهم وممتلكاتهم طبقا لما يرد في بنود عقد الأمان، ويجسّد هذا النوع من عقود الأمان مشهدا آخر من مشاهد السلام التي بصمت الحضارة الإسلامية.

وقد احتفظ لنا ابن سلام [52] بنص عقد الأمان الذي عقده الرسول ﷺ لأهل تبوك عندما تحالف جماعة من الروم وبعض القبائل العربية من لخم وجذام وعاملة وغيرهم لمحاربة المسلمين، ولكن الأمر انتهى بإقامة الصلح مع الرسول الكريم الذي كتب عقد أمان لهم هذا نصه: ((هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنة بن رؤبة[53] وأهل أيله لسفنهم وسياراتهم ولبحرهم وبرّهم، ذمة الله وذمة محمد النبي، ولمن كان معهم من كل مار من الناس من أهل الشام واليمن وأهل البحر)). فالأمان الذي أقره عليه الصلاة والسلام لحماية وتأمين تجارة وأموال أهل تبوك –رغم أنه كان في حرب معهم –ينهض دليلا على أن مثل هذه المعاهدات كانت تستهدف حقن الدماء وبناء جسور السلام مع الآخر.

ومن جهته، يورد البلاذري[54] نص عقد أمان أعطاه النبي ﷺ لأهل نجران من اليهود والنصارى. ودون الدخول في مناقشة صحة هذا العقد[55]، فإن ما يهمنا في علاقته مع موضوع السلام في الحضارة الإسلامية هو أن قراءة في بنوده تثبت أن ما جاء فيه من حقوق وواجبات كانت تستهدف تثبيت السلم والتعايش، وعدم ترك مساحة مضبّبة للتلاعب به. فموضوع الأمان واضح ويشمل أهالي نجران وما يلحقها من قرى ومساكن، على أن يعمّ الأمان الأرض بمن فيها الحاضرين والغائبين والشاهدين وغير الشاهدين، أي حتى الذين لم يحضروا توقيع الأمان. كما يهم أموال أهالي نجران وممتلكاتهم صغيرها وكبيرها، فضلا عن دمائهم. ويتعهد المسلمون في هذا العقد باحترام دياناتهم وعدم غزوهم عسكريا أو إبعادهم عن أراضيهم، فضلا عن عدم فرض ضريبة العشر عليهم، وكل هذه البنود تنطلق من مبدأ العدل والمساواة وحرية المعتقد، وهي الشروط الأساسية لصناعة السلام.

كما احتفظت المصادر التاريخية أيضا بذكر عقد الأمان الذي عقده الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب مع أهل بيت المقدس، ومما جاء فيه: ((هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان وأعطاهم أمانا لأنفسهم ولأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها، وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من خيرها ولا من شيء من أموالهم، و لا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بالبلاد أحد من اليهود))[56].

تشي نصوص هذا العقد بأن المسلمين كانوا حريصين في فتوحاتهم على إشاعة السلام مع الآخر وإرضائه حفاظا على طقس التعايش معه، وذلك من خلال القرائن التالية:

– ترك الممتلكات والأموال بيد أصحابها والامتناع كليا عن استغلالها رغم أنهم كانوا يمثلون الطرف القوي.

– ضمان حياة الأفراد وتحريم سفك دمهم.

– عدم إكراههم على دخول الإسلام وحفظ مؤسساتهم الدينية.

– عدم تغيير واقع الشعوب المفتوحة أو المساس بتقاليدهم.

ولا شك أن جميع هذه السلوكات الحضارية تنم عن رغبة قوية من الجانب الإسلامي في نسج علاقات سلمية مع الآخر، والحفاظ على مبدأ التنوع الحضاري، واحترام هوية الآخر.

ومما يدل على أن عقود الأمان لم تكن تتم تحت ظروف الإكراه أن الإمام الشافعي حرص حرصا كاملا على مصادقة المؤمّن له ورضاه التام حتى يصبح عقد الأمان عقدا شرعيا، وفي ذلك يقول: ((إذا وادع الإمام قوما مدة أو أخذ الجزية عليهم رجلا أو رجالا منهم لم تلزمهم حتى تعلم أن من بقي منهم قد أقره بذلك ورضيه))[57]، ويؤكد معيار الرضا والإقرار الذي جعله الشافعي شرطا لشرعية عقد الأمان على الطابع السلمي لعقود الأمان، لأن السلام يقوم على رضا الطرفين وكتابة شروطهما على قدم المساواة، وكان بإمكان الرسولﷺ أن يفرض من الشروط ما شاء وهو في موقف القوة، ولكنه صلى الله وسلم كان ميالا إلى السلم وإدماج الآخر معه.

والملاحظ أنه حتى في بعض الحالات التي تمرد فيها المستأمنون بعد عقد الأمان، كانت العقود تجدد لهم دون تعصب أو رغبة في الانتقام. وحسبنا أنه إبان الفتوحات الإسلامية، كانت مدينة طبرية قد فتحت من طرف القائد العسكري شرحبيل بن حسنة، وكان قد أعطى سكانها أمانا على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكنائسهم ومنازلهم. وبعد فترة من الاستقرار دخلت طبرية جماعة من الروم لأنه لم يكن من عادة المسلمين إقفال الحدود في وجه الوافدين حتى لا يشعر الأهالي بأنهم تحت وطأة ما يشبه الحصار[58]. وبفضل الحرية التي كفلها المسلمون لهؤلاء، فإنهم تآمروا مع الروم الداخلين، ونقضوا الصلح مع المسلمين وأعلنوا الحرب عليهم، مما جعل هؤلاء مضطرين إلى قتالهم بقيادة عمرو بن العاص، وإجبارهم على طلب الأمان من جديد، فاستجاب المسلمون لطلبهم وجددوا معهم عقد الأمان بنفس الصيغة التي عقدها لهم شرحبيل بن حسنة[59].

والجدير بالذكر أيضا أن المسلمين حصلوا أيضا في سياق تعاملهم السلمي مع الآخر على عقود أمان في بعض البلدان القاصية كالصين، حيث تقاطر مجموعة من التجار المسلمين على ميناء خانقو جنوب مدينة شنغاي الحالية، وأقرت لهم السلطات الصينية نظاما داخليا حيث كان لهم قاض مسلم يحكم فيما شجر بينهم من نزاعات وفق أحكام الشريعة الإسلامية، ويؤمّهم في الصلوات، كما كان يسمح لهم بالتنقل داخل الأراضي الصينية ابتغاء التجارة مع أهلها[60].

3-معاهدات الصلح في الإسلام ودورها في إشاعة السلام مع الآخر:

تعتبر معاهدات الصلح إحدى الواجهات الإيجابيات في الحضارة الإسلامية، وهي تروم إقامة علاقات سلمية بين ما تسميه الأدبيات الفقهية بـ "دار الإسلام" و"دار الحرب"، إما بصفة دائمة إذا كانت صيغة الصلح مطلقة، وإما لمدة محددة إذا كان الصلح مؤقتا ومحددا زمنيا، وإيقاف الحرب مع الطرف الآخر، دون إلزامه بالدخول في الإسلام.

وتتميز معاهدات الصلح بكونها تعقد قبل بداية الحرب أو أثناءها أو عقبها. وتطلق عليها الأدبيات الفقهية عدة مسميات كمعاهدة الصلح أو المهادنة أو الموادعة، ولكن اللفظ الأكثر شيوعا هو معاهدة الصلح.

وقد أثارت إشكالية الصلح الدائم والمؤقت نقاشا ساخنا في أوساط الفقهاء المسلمين، فمنهم من أجاز الصلح الدائم كالإمامين أبي حنيفة وأحمد بن حنبل استنادا إلى الآية الكريمة: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ الأنفال: 61، بينما ذهب بعض الفقهاء إلى عدم جوازها لأن في ذلك إبطالا لواجب الجهاد، واقتداء بصلح الحديبية الذي كان محددا بفترة زمنية لا تتجاوز عشر سنوات[61].

ومهما تضاربت آراء الفقهاء في هذه المسألة التي تأثرت بظرفيتها التاريخية وبالبيئة التي عاش فيها الفقهاء، فالإجماع حاصل حول ضرورة إخبار الطرف الآخر ببنود الصلح وإطلاعهم عليها أولا بأول حتى يكون على بيّنة من اتفاقية الصلح جملة وتفصيلا.

ونستشهد في هذا الصدد بواقعة تاريخية طريفة أوردها الطبري[62] في سياق سرد أحداث فتح المسلمين لجنديسابور من بلاد فارس، حيث ذكر أن سكان هذه المدينة خرجوا وهم محاصرون من طرف القوات الإسلامية إلى ممارسة حياتهم اليومية العادية، والحرب لم تضع بعد أوزارها؛ وعندما سأل المسلمون عن السبب، أخبروا أنه قد ألقي إليهم كتاب أمان

من أحد العبيد الذين كانوا مع جيش المسلمين، فتنكر المسلمون لهذا الكتاب، غير أن ساكنة جنديسابور تمسكوا به، فقبل الفاتحون بإمضائه بعد أن استفتوا الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي خاطبهم بقوله: ((إن الله عظّم الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا، ما دمتم في شك أجيزوهم وفوا لهم)). وهكذا أقرّ المسلمون لهم الأمان، حتى ولو كان هذا الأمان صادرا عن عبد من عبيدهم طالما وافق عليه الأهالي ورضوا به[63].

وتتبث في ثنايا المصادر التاريخية العديد من النماذج حول معاهدات الصلح التي عقدها المسلمون مع شعوب أخرى، غير أن النموذج البارز التي ستتوقف عنده هذه الدراسة هو صلح الحديبية الذي نقتطف منه فقرة هامة تميط اللثام حول فلسفة السلام في فكر الرسول القائد وحكمته[64].

((هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو. اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهنّ الناس ويكفّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردّه عليه. وإن بيننا عيبة مكفوفة[65]. وإنه لا إسلال ولا إغلال[66] وإنه من أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه)).

نستشف من هذه الاتفاقية السلمية جملة أمور نلخصها فيما يلي:

1-إن تحديد عشر سنوات كمدة لسيادة الصلح تدل دلالة قاطعة على رغبة المسلمين في إتاحة الوقت لخدمة السلام، فهذه المدة تعد كافية للمناقشة والتفاوض والاتفاق لوضع صيغ للسلام بين أكبر طرفين متنازعين يحمل كل منهما تصورا معاكسا لتصور الطرف الآخر.

2-تتعرض بنود الاتفاق إلى منع القتل وسفك الدم وحرمة الأموال من الجانبين.

3-تتيح حرية التحالف وعدم الإجبار على ضم فريق إلى الآخر.

4-تتضمن المعاهدة أيضا فكرة نزع السلاح ((معك سلاح الراكب، السيوف في القرب ولا تدخلها بعيرها)).

5-يتضمن الصلح أيضا الإشهادات الواردة أسفل العقد، وهو ما يترجم حرص الطرفين المتصالحين على ضمان السلام وتفعليه.

6- ثمة شرطان أضافهما النبي ﷺ يحددان قيم التعاون والنصرة وهما ((ألا تعين خزاعة إذا كانوا ظالمين، وأن نصر خزاعة إذا ظلموا)).

ونخلص للقول أن صلح الحديبية يعتبر بكل المقاييس أنموذجا لسلام الشجعان الذي هندسه الرسول ﷺ، وخطط له بذكاء ومهارة سياسية خارقة، فنجح من خلاله في الوقوف على قدم المساواة مع خصم لم يكن يعترف به أصلا، وأرغمه على قبول السلام والدخول معه في مفاوضات أربكت العدو وجعلته يظهر بصورة المعتدي، وهو ما سيكون له أثر إيجابي على صورة الدولة الإسلامية أمام الرأي العام في الجزيرة العربية وغيرها.

4-معامدات الذمة كأسلوب من أساليب التعايش السلمي في الحضارة الإسلامية:

تعد هذه المعاهدات شكلا من أشكال التعددية والقبول بالأخر والتعايش السلمي معه، وهي نوع من المعاهدات التي كان يتم عقدها بين قادة الجيوش وسكان البلاد المفتوحة عنوة، ممّن اختاروا البقاء على ديانتهم الأصلية مع دفع الجزية. ويعتبر عهد الذمة دائم المفعول لأنه ينتقل آليا من الأب الذمي إلى ابنه فحفيده. وبمجرد توقيع هذا العهد يصبح الذميون مواطنين في دار الإسلام [67].

وقد اعتبر القرآن الكريم أهل الذمة من أهل الكتاب ووصفهم بالوصف اللائق والمحترم، فقال عز من قال:

﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ آل عمران: 75، وهو وصف لا يقل مكانة عمّا وصف به أمانة عباده المؤمنين.

وبالمثل، حمت السنة النبوية التعايش مع أهل الذمة، وحرصت على تأمين حياتهم وحرية معتقداتهم، ونصّت

بالواضح والصريح على وجوب حمايتهم من كل أذى أو ضرر؛ يقول عليه الصلاة والسلام محذرا من أي ظلم يقع على أهل الذمة: ((ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة))[68].

وإذا كان عليه الصلاة والسلام قد حرص على أمن أهل الذمة وسلامتهم، فقد نهى كليا عن قتلهم حيث قال: ((من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما))[69].

من جهته، اعتنى الفقه الإسلامي عناية كبيرة بأهل الذمة، فكان الفقهاء في كل أدوار الاجتهاد الفقهي يحرصون على إيصاء حكام المسلمين بالعدل مع أهل الذمة. ومن هذا القبيل ما جاء في كتاب الخراج لأبي يوسف، وقد وجهه إلى الخليفة العباسي هارون الرشيد: ((ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم بالرفق بأهل ذمة نبيّك وابن عمّك محمد ﷺ، والتفقد لأحوالهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم))[70].

وقد كانت هذه الحماية التي يتمتع بها أهل الذمة حماية مطلقة مقابل دفع جزية سنوية، وفي حالة عجز الدولة الإسلامية عن تأمين تلك الحماية تصبح ملزمة قانونيا برد الجزية لأصحابها. ويروى في هذا الصدد ما يصعب تصديقه اليوم، والنموذج الذي نسوقه ما وقع لبعض أهالي الثغور الشامية الذين صالحوا المسلمين على جزية يدفعونها لهم مقابل حمايتهم من الروم، فحدث أن هاجمهم هؤلاء ولم يفلح المسلمون في صدهم، فقاموا برد مبلغ الجزية للأهالي بعد أن فشلوا في الالتزام المقابل له، وهو حماية الذميين من العدوان الخارجي[71].

أما بالنسبة لدار العهد التي فتحها المسلمون بعقد عهد بينهم وبين أهاليها كما يمثله ذلك نموذج أهالي حمص مع القائد أبا عبيدة بن الجراح، فإن المعاهدة التي عقدت بين الجانبين تقوم قرينة أيضا على الطابع السلمي الذي أطّر العلاقة بينهما؛ ولا غرو فقد التزم المسلمون بحماية حمص ومجالها من أي عدوان خارجي حتى ولو كان المعتدي فئة من المسلمين المنشقين[72]، وفي ذلك دليل قاطع على العدالة والنزاهة التي حكمت العلاقة بين الطرفين.

وننوه أيضا أن هذه المعاهدات كانت تنص على حرية المعاهدين وعدم التدخل في شؤونهم الدينية وحماية أملاكهم وأموالهم وحرمة منازلهم دفعا لأي ضرر أو هدر لحقوقهم الدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية.

مقابل ذلك كان على المعاهدين أن يسمحوا للمسلمين بحرية نشر الدعوة الإسلامية واعتناق من يرغب من رعاياهم الديانة الإسلامية وأداء شعائرها علنا، وعدم شنّ حرب ضد المسلمين وحلفائهم، أو الإعداد لها، ناهيك عن دفع ضريبة الجزية.

5-معاهدات الفداء:

تندرج هذه المعاهدات في سلسلة المسار السلمي للحضارة الإسلامية وحرصها على تسوية الخلاف مع الآخر. ويكمن الهدف الرئيسي من هذه المعاهدات في تبادل الأسرى بين المسلمين وأعدائهم أو الإفراج عنهم مقابل مبلغ مالي يكون فداء[73]. وقد تناولت كتب الفتاوى والنوازل موضوع افتداء الأسرى بكثير من التفصيل[74]، مما يدل على أهمية هذه المعاهدات، وما لها من أثر على سلامة الأسرى فضلا عن دورها في ترسيخ جهود السلام وإطفاء وقود مخلفات الحرب بين المعسكرين المتنازعين.

وقد خلدت السيرة النبوية وقائع رائعة في تثبيت السلم عن طريق الفداء والحيلولة دون تعرض الأسرى للقتل. ومن النماذج الواضحة التي يمكن أن نسوقها في هذا الصدد تحرير أسرى بدر حيث أقدم الرسول ﷺ طبقا لتعاليم الوحي على إطلاق سراح الأسرى الذين أسروا في هذه المعركة مقابل تعليمهم المسلمين القراءة والكتابة، مما يشكل نموذجا نادرا في التاريخ، وسلوكا حضاريا قلّ نظيره.

والجدير بالإشارة أن كتابة معاهدات افتداء الأسرى لم تبدأ إلا في العصر العباسي، وتكمن أهمية تلك المعاهدات المكتوبة في قوتها الإلزامية، إذ أن التشريع الإسلامي يعطي مكانة واسعة لحماية الأسرى بواسطة المعاهدات، فإذا تم ارتباط المسلمين بمعاهدات تلزمهم بعدم

قتل الأسرى، فإنهم يمنعون من القتل بموجب الوفاء بالعهود، مما يشكل سبقا تاريخيا في حماية الأسرى، سبقت بها الحضارة الإسلامية معاهدة جنيف حول سلامة الأسير.

صفوة القول أن السلام الذي ميّز تاريخ الحضارة الإسلامية لعب دورا توفيقيا بين كل مكونات المجتمع الإسلامي، فصان الحضارات المحلية والثقافات المتنوعة، وشجع على نموها وتفتق عبقرياتها وتلاقحها بفضل المبادئ السلمية التي ارتكز عليها، وبفضل المرجعية القرآنية التي استندت إليها الحضارة الإسلامية الداعية إلى قبول الآخر واحترام هويته بحكم الأصل الإنساني المشترك، فكان ذلك من العوامل التي جعلت الحضارة الإسلامية تحرص على عقد المعاهدات السلمية واتفاقيات الصداقة وحسن الجوار، ومنح عقود الأمان وعهود الذمة كأدوات للتعارف والتعايش مع الغير رغم اختلاف الانتماءات الحضارية، مما يجعل

الحضارة الإسلامية ببعدها السلمي والحواري مؤهلة اليوم للعب دور متميز في حوار الحضارات، وبناء مجتمع دولي قائم على السلم واحترام حقوق الإنسان.

الهوامش:

(1) محمد أبو زهرة، **العلاقات الدولية في الإسلام**، (دار الفكر العربي، د. ت)، ص42-43.

(2) عثمان بن عثمان، **السياسة الخارجية للدولة الإسلامية والإستراتيجية العليا في إدارة الصراع الدولي**، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ط1، 1994)، ص266.

(3) وهبة زحيلة، **آثار الحرب في الفقه الإسلامي، دراسة مقارنة**، (دمشق: دار الفكر، المطبعة العلمية، ط4، 1412 هـ/ 1992 م)، ص 142

(4) ابن هشام، **تهذيب سيرة ابن هشام**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، (القاهرة: مكتبة السنة 1409 هـ / 1989 م، ط6)، ص 201 – 202 – الطبري، **تاريخ الطبري**، تحقيق محمد أو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار المعارف، ط3، سلسلة ذخائر العرب 30)، ج2 / ص 635-636.

(5) البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، كتاب الجزية والموادعة، باب: إثم من عاهد ثم غدر، (القاهرة: دار الفجر للتراث، 1426 هـ / 2005 م)، مجلد 2، ص 289 - 290

(6) قال النبي ﷺ: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، و إذا وعد أخلف، و إذا أؤتمن خان))، انظر المصدر نفسه، كتاب الإيمان باب: علامة المنافق، مجلد1، ص 17 – مسلم بن الحجاج بن مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب: بيان خصال المنافق، (صيدا-بيروت: المكتبة العصرية 1414 هـ/ 2003 م)، ص 47-48.

(7) الألباني، **صحيح الجامع وزياداته**. تحقيق زمير الشاوش، (1408 هـ/1988م، د. م. ط)، حديث 2056 (حديث حسن).

(8) إحسان الهندي، **الإسلام والقانون الدولي**، (دمشق: طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط4، 1994 /1415 هـ)، ص 81

(9) وهبة الزحيلي، **آثار الحرب**، ص139.

(10) إحسان الهندي، **الإسلام والقانون الدولي**، ص94.

(11) الشافعي، **الأم**، تحقيق محمد زهري النجار، (بيروت: دار المعرفة، 1393 هـ / 1973 م)، ج4، ص110.

(12) محمد أبو زهرة، **العلاقات الدولية**، ص80.

(13) محمد طلعت الغنيمي، **قانون السلام في الإسلام**، (الإسكندرية: نشر منشأة المعارف، د. ت)، ص382.

(14) ورد هذا النص في الفتوى الشهيرة التي أطلقها الإمام مالك، وجرّت عليه محنته الشهيرة.

(15) محمد أبو زهرة، **العلاقات الدولية**، ص85-86.

(16) محمد حميد الله، **الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، (بيروت: دار النفائس، ط5، 1405 هـ، 1985)، ص220.

(17) رمضان بن زير، **منهج التعارف الإنساني في الإسلام**، (مصراتة: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1989-1399هـ)، ص54.

(18) ابن هشام، **تهذيب**، ص 227

(19) **سورة الحجرات**، آية 9.

(20) رمضان بن زير، **منهج التعارف**، ص188، 191.

(21) شمس الدين السرخسي، **شرح السير الكبير**، (حيد أباد: 1335هـ)، ج1، ص363 - 364.

(22) صبحي محمصاني، **القانون والعلاقات الدولية في الإسلام**، ص 162.

(23) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، (بيروت، دار الفكر، د. ت)، ج3، ص 168.

(24) رمضان بن زير، **منهج التعارف**، ص162.

(25) عثمان بن عثمان، **السياسة الخارجية للدولة الإسلامية والاستراتيجية العليا في إدارة الصراع الدولي**، (بيروت: دار مكتبة الهلال، 1994، ط1) ص262.

(26) المرجع نفسه، ص262.

(27) رمضان بن زير، **منهج التعارف**، ص100-101.

(28) محمد أبو زهرة، **العلاقات الدولية**، ص75.

(29) عبد الهادي الخمليشي، **السلم في القرآن والسنة، مرتكزاتها ووسائل حمايتها**، (بيروت، دار ابن حزم، 2008م/1429 هـ ط1)، ص573 – محمد طلعت الغنيمي، **قانون السلام**، ص485 – محمد حميد الله، **الوثائق**، ص79-80.

(30) ابن هشام، **تهذيب**، ص 202 -محمد حميد الله، **الوثائق**، ص 79-80.

(31) عبد الهادي الخمليشي، **السلم في القرآن والسنة**، ص570-571.

(32) محمد طلعت الغنيمي، **قانون السلام**، ص 509-520-534.

(33) القلقشندي، **صبح الأعشى**، (القامرة، نشر المؤسسة العامة للتأليف، د. ت)، ج14، ص7.

(34) محمد طلعت الغنيمي، **قانون السلام**، ص 485.

(35) إحسان الهندي، **الإسلام والقانون الدولي**، ص64-70 – رمضان بن زير، **منهج التعارف**، ص112-113.

(36) المرجع نفسه، ص52-56.

(37) محمد طلعت الغنيمي، **قانون السلام**، ص470.

(38) المرجع نفسه، ص565 -محمد أبو زمرة، **العلاقات الدولية**، ص81

(39) المرجع نفسه، ص463 – إحسان الهندي، **الإسلام والقانون الدولي**، ص51.

(40) محمد حميد الله، **الوثائق**، ص 267.

(41) المرجع نفسه، ص 262.

(42) محمد أبو زمرة، **العلاقات الدولية**، ص77.

(43) انظر نص الوثيقة: ابن كثير، **البداية والنهاية**، تحقيق علي شيري، (دار إحياء التراث العربي م، ط1، 1408 هـ/ 1988)، ج3، ص 273-276-. انظر أيضا: محمد حميد الله، **الوثائق**، ص59 – 62.

(44) انظر تفاصيل هذه المعاهدات في دراسة عبد الهادي الخمليشي، **السلم في القرآن والسنة**، ص 485-486.

(45) ابن كثير، **تفسير ابن كثير**، (طبعة البابي الحلبي، د. ت)، ص337 - إحسان الهندي، **الإسلام والقانون الدولي**، ص28-.

(46) محمد طلعت الغنيمي، **قانون السلام**، ص416-462.

(47) الماوردي، **الأحكام السلطانية**، (القامرة 1960)، ص146.

(48) أبو بكر مسعود الكاساني، **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، (شركة المطبوعات العلية 1327هـ)، ج7، ص109.

(49) محمد أبو زمرة، **العلاقات الدولية**، ص99.

(50) للمزيد من التفصيل في مسألة واجبات المستأمن تجاه الدولة الإسلامية، انظر: وهبة الزحيلي، **آثار الحرب**، ص253-255.

(51) رمضان بن زير، **منهج التعارف**، ص60.

(52) ابن سلام، **كتاب الأموال**، (بيروت، دار الحداثة، 1988/1408، ط1)، ص209.

(53) يوحنة بن رؤبة هو أمير أيلة، قدم على الرسول (ص) وهو بتبوك فصالحه على الجزية.

(54) البلاذري، **فتوح البلدان**، مراجعة رضوان محمد رضوان، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1398 هـ/ 1978 م)، ص 76.

(55) أنظر محمد طلعت الغنيمي، **قانون السلام**، ص409. وقد أورد الباحث عدة قرائن حول عدم صحة البيان الوارد في هذه المعاهدة، بينما أكد عدد من المستشرقين صحتها.

(56) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج2، ص 609

(57) الشافعي، **الأم**، ص107.

(58) هند رجب فواز، **تصديات الإرهاب الدولي للسلم الإسلامي**، (بيروت 2005، منشورات مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع (ط1)، 2005-2006، ص 95.

(59) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص159-160.

(60) حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام السياسي والاجتماعي والثقافي**، (القامرة 1964، ط1)، ج1، ص315.

(61) أنظر التفاصيل عند: محمد أبو زمرة، **العلاقات الدولية**، ص78-79 – إحسان الهندي، **الإسلام والقانون الدولي**، ص73-74.

(62) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج4، ص93.

(63) هند رجب فواز، **تصديات الإرهاب**، ص87-88

(64) انظر نص الاتفاقية عند ابن هشام، **تهذيب**، ص 200 – 201.

(65) أصل العيبة وعاء من جلد يكون فيه المتاع. مكفوفة: أشرجت على ما فيها وأقفلت. ضرب ذلك مثلا للقلوب التي طويت على ما تعاقدوا عليه.

(66) الإسلال: السرقة الخفيفة. والإغلال: الخيانة.

(67) إحسان الهندي، **الإسلام والقانون الدولي**، ص49.

(68) أخرجه أبو داود، **سنن أبي داود**، مراجعة محمد محيي الدين عبد الحميد، (دار الفكر للطباعة والنشر، د. ت. م)، ج3، ح3052، ص170.

(69) البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، مالقامرة: دار الفجر للتراث 1426 هـ، 2005م)، مجلد 2، ح 2166، ص 386.

(70) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، (بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، د. ت)، ص 124 -125.

(71) انظر نص الوثيقة: محمد حميد الله، **الوثائق**، ص470.

(72) المرجع نفسه، ص 470.

(73) محمد طلعت الغنيمي، **قانون السلام**، ص463.

(74) أنظر الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، تحقيق مجموعة من الباحثين، (فضالة-المحمدية منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، طبعة 1981)، ج 2، ص 161، 212 – ج6، ص 240.

ترميم المخطوطات
إحياءٌ للتراث وصيانةٌ لكنوز العِلم والتأريخ

الأستاذ سهيل جمال
قسم العلوم الإنسانية -جامعة الدكتور يحيى فارس بالمدية

تمهيد:

تعتمد كتابة التاريخ في العادة على مصادر معلومات متنوعة، يعود إليها الباحث لإتمام دراسته التاريخية، ومن بين هذه المصادر المخطوطات، التي تحوي فروع المعارف الإنسانية. ويصعب على الباحثين في كثير من الأحيان الوصول إلى هذه المخطوطات لأسباب عديدة. وفي أحيان أخرى يصلون إليها، ولكن الحالة، التي تكون عليها بعض هذه المخطوطات تصعب من عملية البحث؛ إذ يحدث أن تكون بعض صفحاتها ممزقة، أو مشوهة، أو هشة وهو ما يؤدي إلى تكسرها بسهولة، وقد تؤثر على الباحث في حد ذاته كان تصيبه ببعض الأمراض على غرار الحساسية مثلا. والأسباب التي أوصلت المخطوطات إلى هذه الحالة متعددة، منها ما هو طبيعي كارتفاع درجات الحرارة، والرطوبة، ومنها ما هو كيميائي، إضافة إلى البيولوجي (تأثير الإنسان وبعض الكائنات الحية المرئية، والدقيقة).

وحفاظا على هذه المخطوطات والتراث الذي تحتويه، وضمانا لدوامها وحرصا على سلامة مستخدميها، اخذ المختصون على عاتقهم صيانة هذه المخطوطات، بطرق عديدة بعضها طبيعي، وبعضها الآخر كيميائي. ونحن سنحاول التركيز هنا بإذن الله على طريقتين من هذه الطرق وهي التعقيم وإزالة الحموضة. فما معنى التعقيم وإزالة الحموضة؟ وعلى ما تعتمد هاتان الطريقتان؟

وللإجابة على هذه الإشكالية ارتأينا أولا تعريف المخطوط، والأخطار التي تواجه المخطوط وتؤدي إلى تلفه إما كليا أو جزئيا، وبعد ذلك عرفنا طريقتي التعقيم والتحميض، وأخيرا أنهينا العرض بخاتمة.

تعريف المخطوط:

المخطوط هو ما قابل المطبوع، أي هو كل مؤلف دونه شخص ما بخط يده. ويدخل في إطار المخطوط كذلك: ما يصور منه بآلة تصوير، أو ما كتب الآلة الكاتبة. ولذلك فان أي نوع من هذه الأنواع لا يعتبر مطبوعا في عرف الناس وفي الأوساط العلمية. وليس من الضروري أن يكون المخطوط مدونا بخط مؤلفه؛ بل يندر أن نعثر على مؤلف من هذا اللون، ولكننا نعثر عليه عادة بخط تلميذه أو أحد أصدقائه[1]. ولم يرد هذا المصطلح في المعاجم العربية القديمة، لأنه لم يكن متداولا قبل عصر الطباعة [2]. أما التعريفات غير العربية للمخطوط، فأحدها هو (codex) وتعني الكتابة الأثرية القديمة، أي الكتابة الأثرية القديمة على الألواح (بحسب تعريف قاموس كولبير)، أما الثاني فمعناه كتاب أو مخطوط (بحسب قاموس المورد)، ويوجد تعريف آخر وهو السفر أو الكراس أو الكتاب المخطوط على رق أو ورق بردي، كما أطلق هذا المصطلح على لوحين من الخشب أو المعدن أو العاج مربوطين إلى بعضهما بمفصلة ذات حلقات، وتغطى الجوانب الداخلية للحين بالشمع ليكتب عليهما بعد ذلك وهذه كلها ألفاظ لاتينية [3].

الأخطار التي تواجه المخطوط وتؤدي إلى تلفه:

وتؤثر على المخطوط عوامل كثيرة تؤدي إلى إتلافه بصورة كلية، أو جزئية مما يؤدي إلى تكسره أو تفتته، أو محو جزئي أو كلي للأحرف والكلمات. ويمكن تقسيم هذه الأخطار إلى طبيعية، بيولوجية، وأخيرا كيميائية:

أولا-الأخطار الطبيعية:

1-الهـواء: ويكون أحيانا مكونا من خليط من الغازات. وتنتشر هذه الظاهرة في المدن الصناعية، التي تشهد نسبة عالية من التلوث. ويؤدي ذلك إلى إتلاف الأوراق والجلود [4].

2-تغير درجات الحرارة، ونسب الرطوبة، وتغير الإشعاعات الضوئية (الطبيعية والصناعية)، والتي تسبب تكاثر الجراثيم والفطريات، وبيوض الحشرات [5].

3-الغبار والأتربة: وهذه الذرات الصغيرة يحملها الهواء، وتلتصق بعد ذلك بأغلفة الكتب، ومنها تتسرب إلى داخل الصفحات، مع ما تحمله من فطريات وبيوض تنمو بسرعة كبيرة، وخصوصا إذا ما توفرت الحرارة والرطوبة، وهو ما يسبب الأضرار الكثيرة للمخطوط. ويحدث هذا أيضا إذا احتوى الغبار على نسب من العناصر المعدنية كالحديد والرصاص، فيسبب ذلك انتشار البقع الصفراء على الورق، والتي بدورها تسبب تكسر الأوراق [6].

4-الحرارة والرطوبة: ويعتبر هذان العاملان من أكثر العوامل المسببة لتلف المخطوطات؛ ففي المناطق الجافة ترتفع درجة الحرارة، وذلك يفقد المخطوطات بعضا من خواصها. أما الرطوبة إذا انخفضت عن الحد المطلوب توفره أو انعدمت تماما، يؤدي ذلك إلى تقادم الأوراق والجلود، وتلفها وجفافها، وهشاشتها، وتكسرها بسهولة شديدة [7].

وتتعدد أسباب ارتفاع درجة الحرارة، من مناخ حار في بعض المناطق من العالم، إلى التدفئة المستخدمة في المناطق الباردة في فصل الشتاء، إلى نظام الإضاءة غير المدروس في أحيان كثيرة والمسبب لارتفاع درجات الحرارة، والتي يظهر تأثيرها على المواد اللاصقة المستخدمة في تجليد الكتب كالغراء مثلا، والذي يفقد قوته وتماسكه. ومن ناحية ثانية يؤدي ارتفاع الرطوبة إلى امتصاص الألياف لبخار الماء، فتنتفخ الأوراق بفعل ذلك. هذا إضافة إلى البقع المائية التي إذا أصابت المخطوط تتلف ما عليه من نصوص [8].

5-الضوء: وهو من العوامل المؤثرة على المخطوطات، غير أن تأثيره غالبا اقل من تأثير العوامل السابقة. ومع ذلك يضر المخطوطات، إذا لم يكن بشكل مدروس[9]. وينتج الضوء عن مصدرين رئيسيين: **طبيعي** وهو الناتج عن ضوء الشمس، ويتغير بتعاقب الليل والنهار، وحالة اليوم إذا كان مشمسا، غائما أو ممطرا، واختلاف الفصول. **واصطناعي** وينتج عن المصابيح بمختلف أنواعها. وتنقسم الأشعة الضوئية إلى: أشعة فوق بنفسجية، ضوء مرئي، وأشعة تحت الحمراء [10].

وتعتبر الأشعة فوق البنفسجية أشد أنواع الأشعة الضوئية خطورة، لأنها تؤدي إلى اضمحلال لون الأحبار. ويليها في الخطورة الضوء المرئي الذي يوهن الورق ويتلفه. ولهذا السبب ينصح خبراء المخطوطات بالحد من الإضاءة وخاصة المباشرة منها، وإن كان زجاج النوافذ في العادة يمنع دخول الأشعة البنفسجية، ولكنه لا يوقف التفاعلات الكيميائية للضوء، والذي يسبب ما يعرف بالوهن الضوئي، الذي يضعف الأوراق [11].

ثانيا-العوامل الكيميائية:

1-التلوث الجوي: التلوث مشكلة غير جديدة تطورت على مر الأزمنة، وبفعل النشاطات، التي يقوم بها الإنسان. وهو كل ما يؤثر على العناصر الحيوية بما فيها الإنسان والحيوان والنبات، والعناصر غير الحية مثل التربة والهواء والماء. أما التلوث الجوي فيحدث إذا اختلط الهواء بالعناصر التالية: ثاني أكسيد الكبريت وأكسيد النتروجين وأول أكسيد الكربون، عوادم السيارات، الدخان والشوائب المختلفة، مركبات الكلورفلوروكربون، العناصر الطبيعية مثل البراكين والعواصف وغيرها [12]. أما أهم الملوثات الكيميائية التي تؤثر على المخطوطات، فهي كالآتي:

-**غاز ثاني أكسيد الكبريت**، الذي يتحد مع بخار الماء في وجود الرطوبة، ويكون حامض الكبريتوز، الذي يتحول إلى حمض الكبريتيك المدمر الأوراق والجلود.

-**الأحبار الحديدية** التي تحتوي على كبريت الحديد في تركيبها الأساسي.

-**اللجنين** الموجود في الأوراق والذي يتفاعل مع الضوء ويعطي نواتج حمضية تتلف الأوراق، وكبريتات الألمونيوم (الشبة)، التي تضاف أثناء صناعة الورق بهدف ضم وتقوية الألياف، فتتفاعل مع الرطوبة وتكون حامض الكبريتيك.

-مواد التبييض المستخدمة لتبييض لب الورق، وغالبيتها مواد منتجة للكلور الذري الذي يؤدي إلى تحول بقاياها إلى حمض الايدروكلوريك الضار.

-أكاسيد النتروجين التي تمتصها الأوراق ثم تتحول لحمض النتريك المتلف للأوراق.

-كبريتيد الهيدروجين وهو اقل خطورة من ثاني اكسيد الكبريت وينتج عن النشاط الصناعي والفيسيولوجي للكائنات الحية ولتحلل المطاط الموجود كعازل في الشبابيك والأرضيات والأرفف وتكمن خطورته في تفاعله مع فلزات العناصر الداخلة في زخرفيات بعض المخطوطات –عدا الذهب–مكونا كبريتيدات هذه الفلزات ذات اللون الأسود.

-الأكاسيد النيتروجينية: تعتبر مصدرا للحموضة في الورق حين يتأكسد أكسيد النيتروجين ويتحول فوق إلى أكسيد النيتروجين والذي بدوره يتحول إلى حامض نيتريك، فيؤثر على الأحبار ويترك بقعا سوداء على أفلام الميكروفيلم.

-غاز الأوزون: هو من العناصر قليلة الانتشار، ولكنه خطر على سيليلوز الأوراق، ويعمل على تكسير الروابط بين ذرات الكربون المكونة للروابط السيليلوزية.

-الأدخنة: وتنتج عن الاحتراق غير الكامل لأي مادة تتخلل أرفف المخازن والمخطوطات، وترسب ما بها من مواد عالقة فوق صفحات المخطوطات مسببة تبقعها، اضافة الى احداث تفاعلات غير مرغوبة على صفحات المخطوط.

–الهالوجينات: وهي الكلور والفلور والبروم واليود. وتؤثر هذه المواد وخاصة الكلور والفلور على الأحبار والأوراق [13].

ثالثا-الأخطار البيولوجية:

وتتعرض المخطوطات للهجوم من طرف الكائنات الحية، التي يصل عددها إلى أكثر من سبعين (70) نوعا، منها ما هو مرئي كالحشرات (الصراصير، الأرضة أو النمل الأبيض، دودة الكتب)، القوارض (الجرذان، الفئران)، وغير المرئي كالبكتيريا والفطريات بأنواعها، فتهاجم الكتب والوثائق وتتلفها، وخاصة إذا توفرت الظروف المناسبة لتكاثرها في أماكن حفظ المخطوطات [14]. وتحب هذه الكائنات الأماكن الدافئة، الرطبة والهادئة مع وجود الغذاء، المكون من الأوراق نفسها، أو الغبار، الذي يتراكم في المخازن بفعل إهمالها لفترات طويلة. ويمكن لهذه الكائنات إذا لم يتم تتبعها التسبب في كوارث كبيرة على مستوى المجموعات الوثائقية في وقت قصير نسبيا [15].

ويلعب الإنسان –مع الأسف–دورا كبيرا في إتلاف المخطوطات، إما لجهله بقيمتها، أو بفعل استهتاره. ويظهر ذلك من خلال إمساكه للمخطوط بأيد مبللة أو غير نظيفة مما يؤدي إلى تشكل بقع على صفحات المخطوط، تصيبه فيما بعد بالفطريات للأوراق والجلود. إضافة إلى وضعه لإشارات وعلامات على النص الأصلي. وكذا ثنيه للأوراق لمعرفة الصفحات، التي توقف عندها، وتكون النتيجة تكسر الأوراق، أو فقدانها لبعض أجزائها [16]. كما يضغط القارئ على الكتاب المخطوط أثناء قراءته أو تصويره، مما يتلف كعب الكتاب، أو يقلب صفحات المخطوط بشكل عنيف فيؤدي ذلك إلى تمزقها وتشوه زواياها. ويحدث أن يقوم القارئ أحيانا بالتدخين أو الأكل والشرب أثناء القراءة، مما يؤدي إلى سقوط الدخان أو المأكولات والمشروبات على الصفحات والأغلفة فيسبب ذلك احتراق الأوراق واصفرارها، أو امتصاصها للدخان، الذي يرفع نسبة الأحماض المتلفة للورق. هذا بالإضافة إلى عدم الالتزام ب: وضع المخطوطات في المكان المخصص لها بصورة صحيحة، فيؤدي ذلك إلى تصدرها وتقوسها، وعدم ضبط درجة الحرارة، الرطوبة، والإشعاع الضوئي. وأخيرا عدم محاربة الكائنات المتلفة للمخطوطات، وإهمال رش المخازن بشكل دوري [17].

مظاهر إصابة المخطوط:

–زيادة درجات الحموضة في مكونات المخطوط.

–انتشار البقع والأوساخ بين الصفحات.

–جفاف الأوراق وفقد محتواها المائي وانكماش والتواء الرقوق والجلود.

–التصاق وتحجر صفحات المخطوط.

–انتشار النموات الفطرية، والإصابات الحشرية.

–ضعف عام في الأوراق، وبهتان أحبار الكتابة.

وتختلف درجة إصابة المخطوط بهذه المظاهر؛ فقد يصاب المخطوط بواحد أو أكثر، ويحدث أن تجتمع فيه جميعها [18].

طرق صيانة المخطوط:

أولا- التعقيم:

ويعتبر التعقيم أولى خطوات عملية صيانة المخطوطات. ويعني التعقيم القضاء على كل أشكال الحياة سواء أكانت خلية، جرثومة، بويضة. . . مع الاختيار الدقيق للوسائل، التي تقضي على هذه الكائنات، وتمنع ضرر المخطوطات سواء على المدى القريب أو البعيد. وللتعقيم طريقتان تستخدمان للقضاء على كل ما من شأنه أن ينمو على المخطوط من كائنات دقيقة، وحشرات، إحداهما تتم عن طريق استخدام المواد الكيميائية، والثانية عن طريق استخدام المواد الطبيعية [19].

1-استعمال المبيدات الحشرية:

وهذه الطريقة شائعة لمقاومة الحشرات بصورة عامة، غير أن أمر المخطوطات يختلف، لكونها قديمة وأحبارها حساسة للمبيدات المستخدمة، ولذلك وجب على المختص اختيار المبيدات، التي لا تسبب تلف المخطوط قبل البدء بعملية التعقيم. ولنوعية الكائنات التي تصيب المخطوطات دور في انتقاء المبيدات؛ فإذا كانت الكائنات التي تهاجم المخطوط من نوعية معينة وجب استخدام المبيدات ذات التأثير الفردي، أما إذا كانت متعددة وجب عند ذلك استخدام المبيدات ذات التأثير المشترك [20].

أ-المبيدات فردية التأثير: وتضم أنواعا كثيرة بعضها يمنع نمو الكائنات الدقيقة، وبعضها الآخر يقتل الحشرات بأطوارها المختلفة:

ب-المبيدات الحشرية: وتستخدم في حالة الإصابات الحشرية للمخطوط. وتظهر هذه الإصابات في شكل قطوع أو ثقوب منتشرة على الأوراق، أو على شكل قرض رأسي لكعب الكتاب. ومن أهم هذه المبيدات المستعملة: الأكتيليك (Actellic)، الكلوردان (Chlordan)، البيرثرين (Pyrthrene)، السوميثيون (Sumithion). وتستخدم بتركيزات لا تتجاوز 5% حسب شدة الإصابة مع مراعاة أن يكون المبيد المستخدم غير مضر لأحبار الكتابة. كما يمكن استخدام مبيدات النيوسيدول، الدلدرين، وال. د. ا. ي نيتروكريزول، والميلاثيون بنفس التركيز ولنفس الغرض [21].

ج-مبيدات الكائنات الدقيقة: وتشمل مبيدات الفطريات ومبيدات البكتيريا، وتؤثر بدورها على الأكتينوميسيتات (وهي مجموعة من الكائنات الدقيقة واسعة الانتشار في الطبيعية، وتعتبر حلقة وصل بين الفطريات، والبكتيريا). وتستخدم في حال ظهور البقع اللونية الناتجة عن نمو الكائنات الدقيقة، مع ضعف أماكن الإصابة ولكن بشكل يسهل معه حمل الأوراق دون أن تتكسر. ومن أمثلة هذه المبيدات: ال (White–Zineb)، كاتيكول (Catechol)، اكتيديون (Actidione)، بافيستان (Bavistin)، بليتان (Blitane)، ميلتوكس (Miltox) بتركيز لا يتجاوز 200 ملغ/لتر حسب شدة الإصابة، في حين انه يمكن استخدام مبيدات بينلات (Benlate)، وال ب–كتورو–ام – كريسول (P–chtoro–m–cresol) بتركيز 400 ملغ/لتر حسب شدة الإصابة، في حين يمكن استخدام مبيدات بلانتفاكس (Plantvax)، وثيوريا (Thiourea)، وثيمول (Thymol)، وساليسيلانيليد (Salicylanilide) بتركيز يتجاوز 700 ملغ/لتر. وفي جميع الحالات يراعى استخدام المبيد المناسب للأوراق والأحبار [22].

وتستخدم المبيدات وفقا للطرق التالية:

–الرش الخفيف المتناثر على هيئة رذاذ على صفحات المخطوط.

–غمر الصفحات المصابة بعد فك المخطوط في محلول المبيد، ثم رفعها وتركها تجف في الهواء جفافا طبيعيا.

–استخدام أوراق خاصة تتشرب محلول المبيد وتوضع بين الصفحات مع تغييرها من وقت لآخر. وتصلح هذه الطريقة بالذات مع التيمول فيما يعرف بورق التيمول.

–استخدام طريقة التعقيم الموضعي بأن توضع على هيئة نقط في كعب المخطوط باستخدام قطارة، ولكن هذه الطريقة تصلح فقط في حالة تركز الإصابة في كعب المخطوط.

2-المبيدات ذات التأثير المشترك:

وهذه المبيدات من شأنها أن تمنع نمو الحشرات والفطريات والبكتيريا في آن واحد. كما تقلل من الأخطار المحتملة التي قد تسببها المبيدات للمخطوط (تلف الأحبار مثلا) مع ضمان تعقيمه، وتخليصه من كل ما به من

الفطريات والحشرات في عملية واحدة. وتستخدم هذه المبيدات هي الأخرى بطريقتين:

أ-التدخين (23) والتبخير: وتتمثل هذه الطرق في استخدام مواد كيميائية منتجة لغازات سامة، ولذلك تعتمد هذه الطريقة على وضع المخطوطات مفتوحة على شكل مروحة، ثم تعرض للغازات لمدة تتوقف على شدة الإصابة ومصدر الغاز السام المستخدم في التبخير. وتتم هذه العملية داخل صناديق مغلقة بشكل محكم [24].

ب-التدخين بالبرادكس: وتتم هذه الطريقة بوضع بلورات من البرادكس في صندوق التبخير بتركيز يقدر بـ: ½ كلغ لكل 5م^2 من فراغ الصندوق. وتستمر العملية لمدة 24 ساعة على درجة 16^0. ويمكن استخدام الكلوروفورم بتركيز مشابه للبرادكس على أن تستمر العملية مدة عشرة أيام كاملة [25].

ج-التدخين بالفورمالهيد: وتشبه هذه الطريقة سابقتها، غير أن مدة العملية تصل إلى اثني عشر يوما (12) يوما يمكن اختصارها إلى اثنتي عشرة (12) ساعة عن طريق وضع سخان كهربائي تحت الإناء الحاوي للفورمالين لا انه يجب تحاشي التسخين حماية للمخطوط من اثر الحرارة. وتعتبر هذه الطريقة من أكثر الطرق تأثيرا على جراثيم الفطريات [26].

د-التدخين بالثيمول: والثيمول من المواد الصلبة، التي يمكنها أن تتسامى إلى غاز قاتل للحشرات والفطريات، والتسامي يعني تحول المادة الصلبة إلى غاز مباشرة دون المرور بحالة السيولة. ويتم تسامي الثيمول باستخدام لمبات حرارية أو عادية قوية، ويجري ذلك أيضا في صندوق التبخير لمدة تتحكم فيها شدة إصابة المخطوط [27].

هـ-التبخير باستعمال غاز الإيدروسيانيك: وهو من الغازات السامة الناتجة عن تفاعل سيانيد الصوديوم النقي مع حامض الكبريت المخفف (50%) ونسبة إضافة السيانيد إلى الحامض المخفف كنسبة غرام من السيانيد إلى 11، سم^3 من الحامض، ويلزم لكل م^3 من فراغ الصندوق المستخدم في التبخير من 20-40غ السيانيد إلى 22-، 404 سم^3 من الحامض، ويستمر تبخير المخطوطات المصابة بالغاز الناتج بعد تجفيفه بالسيليكاجيل لمدة 18 ساعة في درجة حرارة الغرفة العادية [28].

ويتميز هذا الغاز بنفاذيته العالية خلال أجسام الحشرات، وأطوارها المختلفة التي تقاوم تأثير المبيدات الأخرى، وبتأثيره على إنزيمات التنفس وبقتله للخلايا الحية. وحتى يتفادى الإنسان خطورة هذا الغاز عليه التخلص من بقاياه في صندوق التبخير بعد الانتهاء من عملية التبخير، وذلك عن طريق تمرير الغاز على محلول الصودا الكاوية (ايدركسيد الصوديوم)، التي تحوله إلى سيانيد الصوديوم مرة أخرى [29].

ويجب الحرص في جميع عمليات التبخير (من طرف القائمين بالعمل) على عدم تسرب الغازات خارج الصندوق حتى لا تحدث تسمما للإنسان والحيوان، واتخاذ كل الاحتياطات كارتداء القفازات والكمامات المزودة بمرشحات خاصة بهذه الغازات [30].

3-استخدام مخلوط المبيدات:

وتعتمد هذه الطريقة على عمل تركيبة من أكثر من مبيد لها القدرة على قتل الحشرات والكائنات الدقيقة في عملية واحدة. وهذا لا يعني زيادة كفاءة المبيدات المخلوطة عن كفاءتها عند استعمالها بمفردها؛ فقد يؤدي الخلط إلى تقليل هذه الكفاءة، لهذا يجب دائما إخضاع النتائج للتجربة قبل تقرير استخدام مخلوط معين من أكثر من مبيد ضمانا للحصول على نتائج أفضل وتعقيم أكفا مع دراسة تأثير المخلوط على خواص الورق الطبيعية [31].

4- استخدام الطرق الطبيعية:

وتعتمد هذه الطرق على استخدام الإشعاعات قصيرة الموجة كالأشعة فوق البنفسجية والأشعة تحت الحمراء والموجات الكهربائية والكهرومغناطيسية. كما يمكن استخدام الهواء الساخن والتردد الصوتي العالي لنفس الغرض [32].

ويجب أن يشمل التنويه من ناحية ثانية المخطوطات السليمة ضمانا لعدم إصابتها، والمخطوطات التي جرى تعقيمها حتى لا تعاودها الإصابة. واستكمالا لسلامة العاملين على صيانة المخطوط، والمخطوط في آن معا يجب إتباع ما يلي: فبالإضافة إلى استعمال الكمامات الخاصة المزودة بمرشحات كربونية، ووضع القفازات الطبية أثناء تجهيز وتداول واستعمال المبيد، الحرص على:

-الالتزام بالتركيزات المطلوبة للمبيد المستخدم.

-تجهيز المبيدات قبل الاستخدام مباشرة.

-تجنب استخدام المبيدات بجانب مصادر حرارية لاحتمال اشتعالها، أو على الأقل فقد مفعولها.

-الحرص الشديد أثناء استخدام الفورمالين لتأثيره على أغشية الأنف والفم والعين.

-ضرورة غلق المخازن المعقمة لمدة أربع وعشرين ساعة بعد الانتهاء من التعقيم.

-غسل الأيدي والوجه والماء بالصابون بعد إنهاء العمل.

-وجود وسيلة اتصال سريعة بمركز طبي لاحتمال حدوث تسمم أو إغماء.

ثانيا-إزالة حموضة الأوراق:

وهي إحدى خطوات المعالجة الكيميائية للمخطوط. وزيادة حموضة الأوراق تعني انخفاض تركيز ايون الإيدروجين وهو ما يعرف بدرجة الحموضة (PH) إلى اقل من 5 PH. ومصادر الحموضة كثيرة، ومنها ما هو مكتسب من ظروف التخزين كالغازات الكبريتية والنيتروجينية، ومنها ما هو داخل في تركيب الورق كاللجنين والشبة ومواد التبييض. وإزالة الزيادة من الحموضة أمر هام لاستدامة المخطوط (أوراق وجلود)، حتى أنها (أي الحموضة) تعمل على استمرار تآكل ودمار المخطوط حتى بعد ترميمه واستكمال صيانته. وانسب درجة حموضة للأوراق والجلود هي PH_{68}[33].

1-اختبار حساسية الأحبار:

ولمعرفة مدى حساسيتها، يجب أن:

-تؤخذ قطعة صغيرة من القطن المعقم وتبلل بالمحلول المطلوب معرفة تأثيره على الأحبار (المحلول المستخدم في المعالجة).

-توضع قطعة القطن فوق حرف أو كلمة من الكتابة ويفضل أن تكون من غير الكلمات المهمة وتترك القطعة فوق الكلمة حوالي الخمس دقائق.

-ترفع قطعة القطن عن الأحرف، والتي تفحص بعد ذلك بعدسات تكبير يدوية. ومن هنا يمكن تحديد انتشار الأحرف أو ثباتها. ويمكن أيضا فحص قطعة القطن المستخدمة في الاختبار لمعرفة مدى تأثرها بلون الحبر، وذلك يمكننا من تحديد مدى صلاحية المحلول في معالجة المخطوط. وان تصادف عدم صلاحية المحلول في المعالجة لتأثيره على الأحبار، وفي نفس الوقت ليس لدينا بديل عنه، وجب في هذه الحالة عزل الأحبار أولا ثم استخدام المحلول. ويكون العزل بدهان الفينيل استيتات إذا كانت الأحبار حساسة للماء أو بالرش بمحلول الجيلاتين نسبة 20% إذا كانت حساسة للمذيبات العضوية. وبعد اتمام المعالجة يمكن إزالة هذه المواد بمخلوط الأسيتون والكحول للفينيل اسيتات، والماء الدافئ للجيلاتين[34].

2-طرق إزالة الحموضة الزائدة:

أ-الأوراق والبرديات:

-الأوراق المكتوبة بأحبار غير حساسة للماء: لكون الأحبار هنا ثابتة مع الماء، يمكن إتباع الكثير من الطرق لتخليص الأوراق من حموضتها الزائدة، واهم هذه الطرق:

1-استخدام الماء: ويتم غمر الأوراق في الماء بدون أي إضافات أخرى لمدة ساعة أو أكثر. وعلى الرغم من أن هذه الطريقة بدائية إلا أنها تزيل نسبة كبيرة من حموضة الأوراق الزائدة.

2-استخدام كربونات الكالسيوم CaCO3: وثبت أن هذه المادة الأفضل في زيادة عمر الأوراق، ولذلك تعتبر مركبات الكالسيوم أحسن المواد، التي تعمل على معادلة الحموضة في الوثائق والمخطوطات.

3-استخدام ايدركسيد الكالسيوم (ماء الجير) Ca(OH)2: ويحضر المحلول بإضافة 2غ من ايدركسيد الكالسيوم لكل 100سم^3 من الماء. وتتم الإذابة مع التدفئة ثم ترشيح المحلول في زجاجات للاستعمال بعد ذلك. ويتمثل تأثير ايدركسيد الكالسيوم عن طريق تكوينه لكبريتات الكالسيوم، التي تترسب على سطح الورق وتحميه من الحموضة، التي يمكن أن تتشكل فيما بعد [35].

4-استخدام ماء الجير متبوعا ببيكربونات الكالسيوم: وهنا يتم غمر الأوراق المصابة بالحموضة في حوضين متتاليين، في الأول منهما ايدركسيد الكالسيوم، وفي الثاني بيكربونات الكالسيوم. والطريقة كالآتي: تغمر الأوراق في محلول يحتوي 15% من ايدركسيد الكالسيوم لمدة 20 دقيقة مما يعادل حموضتها. ثم توضع الأوراق في محولو 15% من بيكربونات الكالسيوم مع الزيادة من ايدركسيد الكالسوم في الورق، ويكون كربونات الكالسيوم التي تترسب في ألياف الورقة كمادة واقية. ثم تجفف الأوراق في الهواء

حيث تتحول البيكربونات الزائدة في الأوراق إلى كربونات الكالسيوم باتحادها مع غاز ثاني أكسيد الكربون من الجو. وتعمل كربونات الكالسيوم المتكونة كمنظم عند زيادة الحموضة في المستقبل باتحادها مع الحامض المحتمل تكوينه. وبشكل عام يمكن زيادة تركيز محاليل ايدركسيد الكالسيوم وبيكربونات الكالسيوم طبقا لحالة الملوحة، التي تعاني منها الأوراق [36].

ب-الأوراق المكتوبة بأحبار حساسة للماء: في هذه الحالة يستبدل الماء بالكحول، ويستخدم ايدركسيد الباريوم وخلات المغنسيوم بدلا من ايدركسيد الكالسيوم وبيكربونات الكالسيوم [37].

1-ايدركسيد الباريوم: ويضاف 2غ من لكل 100سم^3 من الكحول، ويذاب الملح مع التدفئة على حمام مائي ويستمر الذوبان فترة طويلة، ثم يرشح المزيج ويستعمل المحلول الرائق بالرش أو الغمر حسب درجة الحموضة الزائدة [38].

2-خلات المغنسيوم: يحضر محلول الخلات في الكحول بنسبة 4%، ويستعمل لإزالة الحموضة رشا أو غمرا أو باستخدام فرشاة ناعمة. وتأثير خلات المغنسيوم يشبه تأثير ايدركسيد الباريوم؛ حيث تتحد مع الحامض في الورق وتكون كبريتات المغنسيوم غير الذائبة وحامض الخليك. يتطاير حامض الخليك المتكون، وتتحد خلات المغنسيوم مع غاز ثاني أكسيد الكربون من الجو مكونة كربونات مغنسيوم تترسب على الورقة. وتعمل كربونات المغنسيوم المتكونة كمنظم عند زيادة الحموضة باتحادها مع الحامض الذي يتكون في الأوراق. ولكن يجب عدم استخدام هذه الطريقة في حال وجود رسومات أو زخارف في المخطوط حتى لا يتلفها حامض الخليك المتكون. ومن ميزات هاتين الطريقتين (ايدركسيد الباريوم وخلات المغنسيوم) أنه يمكن استخدامهما لإزالة الحموضة بأي من المذيبين الماء أو الكحول حسب حساسية الأحبار المكتوبة [39]. وتوجد طريقة لإزالة الحموضة يمكن إتباعها مع الأحبار، التي يتأثر لونها أو تتشلفط بالمحاليل الكحولية والمائية، وهي طريقة تعفير [40] الأوراق بمادة كربونات كالسيوم غير ذائبة، كما تمنع انتقال الحموضة من صفحة لأخرى بين صفحات المخطوط. ولكنها ليست بنفس كفاءة المحاليل [41].

ثالثا-إزالة الحموضة من الرقوق والجلود:

وإزالة الحموضة من الرقوق والجلود يعتبرا أمرا أكثر سهولة من إزالة الحموضة من الأوراق، وذلك راجع إلى استخدام بعض المواد القلوية أثناء تجهيزها [42].

1-الرقوق: نوع من الجلد الرقيق أو الطبقة الداخلية لجلد الغزال، وهذه الطبقة الرقيقة تعامل بماء الجير (ايدركسيد الكالسيوم) أثناء تجهيزها، وهذه المعاملة تكسب الرق قلوية تجعله مقاوما للإصابة بالحموضة، ولذلك لا يخشى على الرقوق من الحموضة [43].

2-الجلـــود: أي جلود الأغلفة، ويمكن أن تصاب بالحموضة خاصة تلك التي تعامل بحامض التانيك أثناء دباغتها. ومظاهر الحموضة على الجلود هي تشققات، وتصلب الأطراف التي قد تصل إلى التفتت في حالة زيادة الحموضة أكثر من المعتاد. وتستخدم لكتات البوتاسيوم في معادلة حموضة الجلد وفقا للطريقة التالية:

يحضر محلول 7% من لاكتات البوتاسيوم في الماء مع إضافة نسبة من مبيد فطري، 300مللغرام/لتر من مبيد البنليت كمادة واقية. بعد ذلك تشبع قطعة ناعمة بمحلول اللاكتات ثم تعفر نسبيا للتخلص من المحلول الزائد بها ثم تدهن الجلدة الحامضية على أن تكون حركة اليد خفيفة راسية خاصة في حالة الجلود المذهبة؛ حيث أن الحركة الأفقية أثناء دهان الجلد قد تؤثر على تذهيبه وزخارفه. وأخيرا يترك الجلد ليجفف لمدة أربع وعشرين ساعة وهو في وضع راسي بعيدا عن أي أسطح أخرى. ويعادل محلول لاكتات البوتاسيوم الحموضة الزائدة، ويكسب الجلد حماية مستقبلية لأي نسبة حموضة جديدة؛ حيث تتحد لاكتات البوتاسيوم مع حامض الكبريت الموجود في الجلد وتكون كبريتات بوتاسيوم وحامض لاكتيك. وفي حال ترسب كبريتات البوتاسيوم على الجلد وتعطيه دواما أطول. أما الزيادة من لاكتات البوتاسيوم فتتحد مع ثاني اكسيد الكربون من الجو وتكون كربونات بوتاسيوم كمادة واقية طويلة المدى تتحد مع أي نسبة حموضة قد تظهر فيما بعد، وتنتج كبريتات الكالسيوم غير الذائبة. وقد يلاحظ أن بعض الجلود لا تتشرب محلول اللاكتات لكونها مغطاة ببعض الورنيشات أو الشموع، وفي هذه الحالة يجب تجفيف الجلود بسرعة بواسطة قطعة قماش جافة وناعمة حتى لا يتجمع المحلول في صورة قطرات تسبب بقعا على الجلود تصعب إزالتها [44].

الخاتمة:

وبعد هذا العرض الموجز، نستنتج أن لتقنيتي التعقيم والتحميض دور فعال في صيانة المخطوطات وحفظها على مر العصور، رغم كونهما يشكلان في بعض الأحيان خطورة على الإنسان والمخطوط على حد سواء من خلال استخدام بعض المبيدات السامة، ومع ذلك يمكن تفادي خطر هذه المبيدات من خلال بعض الإجراءات الوقائية، التي على الأخصائيين تفاديها. وبما أن الإنسان يلعب الدور الرئيسي في إتلاف المخطوطات عليه أن يكون العامل الأساسي في وصيانتها والحفاظ عليها.

الهوامش:

(1) علي الخطيب: تراثنا المخطوط من التأليف إلى الوراقة، في مجلة الأزمر، ص8

(2) اخترعت آلة الطباعة على يد الألماني يومانس غوتنبرغ سنة 1450م.

(3) عبد العزيز بن محمد المسفر: المخطوط العربي وشيء من قضاياه، دار المريخ للنشر، الرياض 1420هـ/1999م، ص67.

(4) عبد العزيز بن محمد المسفر: نفس المرجع السابق، ص115.

(5) نفسه، ص117.

(6) نفسه، ص116.

(7) نفسه، ص117.

(8) نفسه، ص117.

(9) نفسه، ص118.

(10) بوعكاش حكيم: طرق صيانة وحفظ التحف المودعة في مخازن متحفي باردو وسطيف، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الصيانة والترميم.

(10) بإشراف د/بويحياوي عز الدين، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2007-2008م، ص ص 54-55.

عبد العزيز بن محمد المسفر: نفس المرجع السابق، ص119.

(12) خليف مصطفى غرايبة: التلوث البيئي: مفهومه وأشكاله وكيفية التقليل من خطورته، في مجلة Journal of Environmental Studies، قسم العلوم الإنسانية، جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن، جوان 2010، ع3، ص ص125،122

(13) مصطفى مصطفى السيد يوسف: صيانة المخطوطات علما وعملا، عالم الكتاب للنشر والتوزيع والطباعة، القاهرة 1422هـ/2002م، ص42

(14) عبد العزيز بن محمد المسفر: نفس المرجع السابق، ص ص119-120.

(15) آن سيبرت: اتجاهات جديدة في الصيانة الوقائية ما الذي يمكن القيام به حول المناخ والطوارئ والآفات، صيانة وحفظ المخطوطات الإسلامية، أعمال المؤتمر الثالث لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن 18-19 نوفمبر 1995م ص ص 298-299.

(16) عبد العزيز بن محمد المسفر: نفس المرجع السابق، ص 120.

(17) محمد حدبون: فن صيانة المخطوطات وترميمها، في مجلة الواحات للدراسات والبحوث، جامعة غرداية، ديسمبر 2006م، ع1، ص213.

(18) مصطفى مصطفى السيد يوسف: المرجع السابق، ص 91.

(19) نفسه، ص ص 91-92.

(20) نفسه، ص92.

(21) نفسه.

(22) مصطفى مصطفى السيد يوسف: المرجع السابق، ص 92-93.

(23) هو استعمال غازات سامة لمكافحة الحشرات، ويستعمل فيها مركبات تتبخر على درجات الحرارة الاعتيادية أو بالتسخين. أنظر: إياد يوسف الحاج إسماعيل: الإدارة المتكاملة للآفات الحشرية، قسم علوم الحياة، كلية التربية، جامعة الموصل، 2009م، ص64.

(24) مصطفى مصطفى السيد يوسف: المرجع السابق، ص94.

(25) مصطفى مصطفى السيد يوسف: نفس المرجع السابق، ص94.

(26) نفسه.

(27) نفسه، ص95.

(28) نفسه.

(29) نفسه، ص ص 95-96.

(30) نفسه، ص96.

(31) مصطفى مصطفى السيد يوسف: نفس المرجع السابق، ص96.

(32) نفسه، ص99.

(33) نفسه، ص124.

(34) مصطفى مصطفى السيد يوسف: نفس المرجع السابق، ص125.

(35) نفسه، ص ص 126-127.

(36) مصطفى مصطفى السيد يوسف: نفس المرجع السابق، ص127.

(37) نفسه، ص128.

(38) نفسه.

(39) نفسه، ص ص 129-130.

(40) استخدام المبيدات على شكل صلب بعد طحنها جيدا لتصبح حبيبات صغيرة وناعمة جدا، تضاف إليها مواد أخرى صلبة يسمى بالمواد الحاملة، بغرض تخفيفها وسهولة توزيعها واستعمالها. إياد يوسف الحاج إسماعيل: المرجع السابق، ص 80.

(41) مصطفى مصطفى السيد يوسف: نفس المرجع السابق، ص130.

(42) نفسه، ص 130.

(43) نفسه، ص ص 130-131.

(44) مصطفى مصطفى السيد يوسف: نفس المرجع السابق، ص131.

حج النخب في السودان الغربي ودوره في التواصل الثقافي مع العالم العربي من خلال حجتي منسا موسى وصالح الفلاني

الدكتور محمد المختار ولد السعد
جامعة نواكشوط – موريتانيا

يحتل الحج مكانة كبيرة في نفوس مسلمي غرب إفريقيا الذين تعلقوا –مبكراً –بأداء هذا الركن الإسلامي حتى أصبح لقب "الحاج" من أحظى الألقاب لديهم. وإذا كانت الرغبة في أداء فريضة الحج حاضرة لدى عموم المسلمين، فإنها في هذا الركن القصي من دار الإسلام، لم تكن متاحة إلا لخاصة الخاصة من أهله –أو من سار في ركابهم –لنأي الدار، وقصور ذات اليد، وخوف السبيل... ولذا، كانت ركاب الحج في المنطقة قد تكونت، في بداية أمرها، في أحضان السلط السياسية القائمة، وكان من أشهرها ركب الحج التكروري الذي لعب دوراً أساسياً في استمرار التواصل مع العالم العربي وتوطيد أسس ذلك التواصل. وبلغ هذا الركب أوج تطوره في القرن 14م مع انتقال مركز الثقل إلى المحور الأوسط من محاور التجارة عبر الصحراء في المنطقة [1]، وكانت رحلة حج الملك منسا موسى أشهر رحلة عرفها.

ويسعى هذا البحث إلى إبراز ما للحج وركابه من دور كبير في تواصل مسلمي غرب إفريقيا مع المسلمين في مشرق العالم العربي ومغربه، من خلال نموذجين محددين كان لهما أثرهما البالغ في عملية التواصل الثقافي بوجه خاص. وهذان النموذجان هما حجة ملك مالي منسا موسى الأول (707–733هـ/ 1307–1332م) الشهيرة في نهاية الربع الأول من القرن الثامن الهجري، وحجة العالم المحدث صالح الفلاني (1166–1218هـ/1752–1803م) في تسعينيات القرن الثاني عشر الهجري.

وسنُمحِّض الحديث في الجزء الأول من هذا البحث لرحلة منسا موسى وما امتازت به عن غيرها من رحلات الحج الملكية التي سبقتها في المنطقة، سواء من حيث ضخامتها، وما اشتملت عليه من مظاهر الثراء والأبهة، أو ما تولد عنها من نتائج بوجه عام، وعلى مستوى التواصل الثقافي مع العالم العربي بوجه خاص.

حجة المنسا موسى: رمز تألق مالي وتوسع علاقاتها الخارجية

عرف عن أهل السودان الغربي تعلقهم الشديد بأداء فريضة الحج، وما امتاز به ملوكهم من حرص –عزّ نظيره في الغرب الإسلامي –على أداء هذه الفريضة. وإذا تركنا جانباً حج أميري صنهاجة محمد بن تيفاوت المعروف بتارشني ويحيي بن إبراهيم الكَدالي في الثلث الأول من القرن الخامس الهجري، فإن مسلمي السودان الغربي قد تعاطوا الحج –على ما يبدو مما هو متاح من مصادر –منذ أوائل القرن السادس الهجري على الأقل، حيث يقول الزهري [2]، في أربعينيات هذا القرن، عن أهل "جناوة" (غانة) ما نصه: "وهم اليوم مسلمون وعندهم العلماء والفقهاء والقراء وسادوا في ذلك، وأتي منهم إلى بلاد الأندلس رؤساء من أكابرهم وساروا إلى مكة وحجوا وانصرفوا إلى بلادهم".

وحجَّ العديد من ملوك مالي التي ورثت مملكة غانة، حيث تذكر المصادر أن ثلاثة منهم قد أدوا فريضة الحج قبل الملك منسا موسى. وحسب ما ذكره ابن خلدون [3]، فإن أول هؤلاء هو "برمندانه" الذي يُعتقد أنه تولى الحكم في الربع الأخير من القرن السادس الهجري، ويميل الدارسون المعاصرون [4] إلى أن يكون هو نفسه المانسا باريمون الموجود في قائمة ملوك المانديغ الحديثة.

ثم قفا سبيله في الحجِّ ابن مؤسس إمبراطورية مالي سندياتا[5] كيتا: "منسا ولي" (حكم ما بين 652–669هـ/1255–1270م) الذي حج أيام الظاهر بيبرس (659–675هـ) في مصر، و"ساكورة" الذي حكم من (684–700هـ/ 1285–1300م) بعد فترة اضطراب عرفتها إمبراطورية مالي، وحج في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون (693–741هـ).

وكان ساكورة، وهو أحد موالي الأسرة الحاكمة وقواد سونديانا، قد وضع حداً لفترة اضطراب عرفتها إمبراطورية مالي

بعد منسا ولي، واستعاد هيبتها ووسع حدودها بإحكام سيطرته على الحوض الأوسط لنهر النيجر وأخضع السونغاي لنفوذه. وسافر في آخر عهده إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج، وقتل في مآبه منه سنة (700هـ/1300م) على أيدي قطاع طرق في تاجوراء بالقرب من طرابلس التي كانت من أخطر محطات ركاب الحج المغربية والسودانية [6].

وخلف ساكورة على العرش ملكان ضعيفان، قبل أن ينتقل إلى أحد أبناء إخوة سوندياتا، هو منسا موسى الأول الذي حكم مالي من (707 إلى 733هـ/1307-1332م)، وحج سنة (724هـ/1324م)، وبلغت مالي في عهده أوج عظمتها وتألقها.

1-منسا موسى ورحلته إلى الحج:

هو منسا كانكو موسى بن أبي بكر بن ماغان كيني، أشهر سلاطين مالي، وتاسعهم في الترتيب السلالي، ورابع من يؤدي منهم فريضة الحج. قال ابن فضل الله العمري [7] إنه "أعظمُ ملوك السودان المسلمين وأوسعُهم بلاداً، وأكثرُهم عسكراً، وأشدُّهم بأساً، وأعظمُهم مالاً، وأحسنُهم حالاً، وأقهرُهم للأعداء، وأقدرُهم على إفاضةِ النَّعْمَاءِ". وبالغ فيما له من قوة عسكرية حين قال: "ومقدار عسكره مئة ألف نفرٍ منهم نحوُ عشرةِ آلاف فارس فرسانٍ خيالةٍ، وسائرهم رجَّالة لا خيل لهم ولا مركب..."[8]. ووصفه بأنه كان "متديناً محافظاً على الصلاة والقراءة والذكر"[9].

وقال عنه ابن خلدون [10] إنه "كان رجلاً صالحاً وملكاً عظيماً، له في العدل أخبار تؤثر عنه". ووصفه المقريزي [11] وصفا ماديا -فيما تناهى إليه من أخبار حجته الشهيرة -فقال: "لقد كان شابا أسمر البشرة، جميل المحيى، حسن الهيئة، عالماً بفقه المالكية. وكان يبدو بين صحبه حسن الهندام مطهم الجواد، وفي معيته ما يربو على العشرة آلاف من رعيته، وقد حمل من الهبات والهدايا ما يدهش الرائي لروعته".

وقد عرفت الإمبراطورية في عهده أقصى توسعها، وأوج تألقها وانتشار صيتها على الساحة الدولية والاهتمام بها على ضفتي البحر الأبيض المتوسط، بل اعتبر البعض [12] أن شخصية مانسا موسى البارزة قد سيطرت على القرن الرابع عشر الميلادي.

ويذهب المختصون في تاريخ مالي [13] إلى أن منسا موسي قد بادر بعد توليه العرش إلى توسيع نفوذ الإمبراطورية، وتوطيد أركان السلطة المركزية فيها، وإحكام تنظيم شؤونها السياسية والإدارية. وأعانه على ذلك قائده المحنك "ساران مندیان" الذي وطد هذه السلطة في عموم سهل النيجر، وأخضع البداة الرحل الذين كانوا يشكلون مصدر تمرد وقلق على أمن الطرق الصحراوية؛ ممهداً بذلك الطريق لرحلة الملك إلى الحج في وقت ما يزال صدى اغتيال ساكورة، على يد قطاع طرق صحراويين، عالقا بالأذهان.

وقد أعدَّ منسا موسى رحلته إلى الحجِّ بدقة كبيرة على مدى سنة كاملة، وفق ما تقتضيه مكانة الرجل، وسمعة بلده، وظروف السفر آنذاك عبر المسافات البعيدة. فعمد أولا إلى تهيئة المتطلبات المادية، وطلب لذلك مساهمة خاصة من جميع المدن التجارية والمقاطعات. وفي هذا الصدد يقول صاحب تاريخ الفتاش [14] إن الملك لما عزم على أداء فريضة الحج "قام بجمع المال والجهاز للسفر، ونادي من بأرضه من كل جانب بطلب الزاد والعون...". واتخذ قبل سفره ما يلزم من احتياطات لمواجهة الطوارئ، وكان في مقدمتها استنابة ابنه محمد (منسا ميغا) وتعيينه وَصِياً على العرش إلى حين عودته [15].

وتجمع الروايات التاريخية على أهمية عدد الرفقة التي صاحبت الملك إلى الديار المقدسة، وإن اختلفت بشأن الأرقام أيما اختلاف لا يخلو من مبالغة. فقد عزا ابن خلدون لصاحبه المعمر أبي عبد الله بن خديجة الكومي، الذي لقي منسا موسى بغدامس مُنْصَرَفَه من الحج، قوله إن مَنْ يحملن من الوصائف خاصة آلته وحربته "اثنا عشر ألفاً لابسات أقبية الديباج والحرير اليماني"[16]؛ مع إشارته إلى أن الماليين "إنما يحملون على الوصائف والرجال في أوطانهم فقط، وأما السفر البعيد كالحج فعلى المطايا". ومرّ بنا قول المقريزي إنه كان في "معيته ما يربو على العشرة آلاف من رعيته". أما ابن كثير [17]، الذي تحدث عن قدومه القاهرة برسم الحج في الخامس والعشرين رجب من سنة أربع وعشرين وسبعمائة، فقال إنه "نزل بالقرافة ومعه من المغاربة والخدم نحو من عشرين ألفا، ومعهم ذهب كثير". وعزا محمود كعت (ت. 1002هـ/1596م) [18] للقاضي سيدي

أحمد بن أحمد بن اندغ محمد (ت. 1045هـ/1635م) قوله إن منسا موسى خرج إلى الحج ومعه ثمانية آلاف من قومه.

وذهب صاحب تاريخ السودان [19] إلى القول إنه مشى "في قوة عظيمة وجماعة كثيرة، والجند منهم ستون ألفاً رجالاً، ويسعى بين يديه إذا ركب خمسمائة عبد، وبيد كل واحد منهم عصى من ذهب، في كل منها خمسمائة مثقال ذهب...". وتضيف هذه الرواية اللاحقة للحدث بثلاثة قرون والموظَّفة –على الراجح –للتقاليد المروية في المنطقة، أنه قد تخلف في توات "كثير من أصحابه لوجع رجله أصابه في ذلك المشي، تسمى توات في كلامهم، فانقطعوا بها وتوطنوا فيها...".

ومهما كان التضارب في أرقام من رافقوا منسا موسى في رحلته إلى الحج، فإن الإجماع منعقد على أن أعدادهم كانت كبيرة ولافتة للنظر بمقاييس الوقت. وكان من بين من رافقوه زوجته "أنار كُنت" وخمسمائة من نسوتها وخدمها، وعدداً كبيراً من الأمراء، وحكام الأقاليم، والفقهاء والقضاة، ومئات الجنود لحماية الركب من خطر الاعتداءات المحتملة. وتَوَلَّى قيادة الركب ودلالته أحد خدم الملك يدعى سلمان بن يعت.

وانطلق الركب من عاصمة ملكه "نياني" الواقعة على نهر سونكاراني (أحد روافد نهر النيجر) في موكب مهيب، بلغ من الضخامة حداً جعل محمود كعت [20] يعزو إلى التقاليد المروية قولها إن طلائع القافلة بلغت تنبكتو في حين كان السلطان ما يزال في قصره في نياني. ولم تحدد المصادر متى خرج الركب السلطاني من مالي في اتجاه الحجاز، لكننا نعرف أنه وصل مصر في أواخر سنة (724هـ/1324م)، وتوجه منها إلى الديار المقدسة بعد مقام دام زهاء خمسة أشهر.

كما لم تحدد مصادرُنا بدقة الطريقَ التي سلكها ركب السلطان؛ فنحن وإن كنا نعرف بعض محطاتها الكبرى، إلا أن البعض الآخر غير معروف على وجه التحديد. فقد انطلق هذا الركب من "نياني" إلى "ميمة"، فولاتة، وتغازة، وتوات، وورقلة (واركلان ابن خلدون). أما المحطات السابقة للوصول إلى القاهرة –التي توجه منها موكب السلطان ضمن الركب المصري إلى مكة –من ورقلة فتبقى افتراضية بالأساس، حيث افترض بعض الباحثين [21] أن تكون غدامس، وطرابلس، والأسكندرية؛ بينما رجح البعض الآخر [22] أن يكون الركب قد اتجه من ورقلة إلى الساحل التونسي مما مكن التجار الأوربيين المبادلين في الأسواق التونسية من مشاهدة الموكب السلطاني. ومن هناك، فالطريق إلى طرابلس مألوف في رحلات الحج البرية.

أما في طريق العودة، فإن الركب السوداني قد انطلق بمفرده من مكة وتاه في صحراء الحجاز، "فهلك الكثير من أصحابه وجماله بالبرد حتى لم يصل معه [إلى مصر] إلا نحو الثلث منهم"، حسب تعبير المقريزي [23]. أما ابن خلدون [24] فقد قال إن موكب منسا موسى "رجع فأصابته في طريقه بالحجاز نكبة تخلصه منها أجله، وذلك أنه ضل في الطريق عن المحمل والركب وانفرد بقومه عن العرب، وهي كلها مجاهل لهم، فلم يهتدوا إلى عمران ولا وقفوا على مورد، وساروا على السمت إلى أن نفذوا عند السويس... والأعراب تتخطفهم من أطرافهم إلى أن خلصوا". ومن القاهرة سار الركب باتجاه غدامس، ثم كوكو، فتنبكتو، ونياني.

وقد حظيت محطة القاهرة، في الذهاب والإياب، باهتمام كبير سواء من قبل سلطات المماليك أو كبار مؤرخي الفترة وأصحاب كتب التراجم. فقد كلف الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب تشريفاته المهمندار باستقبال منسا موسى وإنزاله وحاشيته بقصر عند القرافة الكبرى أقطعه إياه. ونوهت المصادر بضخامة الثروة التي جاء بها الرجل، وما أفاض من نعمائه على أهل مصر. فقد جاء معه ب "مائة حمل من التبر، كل حمل ثلاثة قناطير"[25]؛ وهو ما قدره ريموه موني R.Mauny[26] بـ 10.200 إلى 12.750 كلغم من الذهب. وتحدث العمري [27]، عن محطته القاهرية، فقال إنه كان "مدة مقامه بمصرَ، قبل توجهه إلى الحجاز الشريف وبعده، على نمط واحد من العبادة والتوجه إلى الله عزّ وجلَّ كأنه بين يديه لكثرة حضوره، وكان هو ومن معه على مثل هذا مع حسن الزي في الملبس والسكينة والوقار. وكان كريما جواداً كثير الصدقة والبر"، حيث أهدى للملك الناصر هدية عظيمة "يقال إن فيها خمسين ألف دينار"، وقدم لخزينة الدولة المصرية أحمالاً كثيرة من التبر غير هدية الملك، وأفاض "بمصر فيض الإحسان، لم يدع أميراً مُقرباً ولا رب وظيفة سلطانية حتى وصله بجملة من الذهب"؛ مثل مستقبِله الْمِهْمَنْدَار، ووالي مصر والقرافة علي بن أمير حاجب الذي وصله بخمسمائة مثقال، ودليل الركب السلطاني من مصر إلى الحجاز مهنا بن عبد الباقي العجرمي الذي أعطاه منسا موسى مائتي مثقال، "وبالغ مهنا في وصف ما رآه منه من الكرم وسعة النفس ورفاهية الحال" حسب تعبير

العمري. "وكسب أهلُ مصر عليه وعلى أصحابه في البيع والشراء، والأخذ والعطاء ما لا يحصر، وبذلوا الذهب حتى أهانوا في مصر قَدْرَهُ، وأَرْخَصُوا سعره" على حدِّ قول العمري [28]. وقال العجرمي إن الملك "أفاض على الحجيج وأهل الحرمين سجال الإحسان...، وتصدق بمالٍ كثيرٍ"، فضلاً عما بذل من عطاءات للقبائل التي مرَّ بها في طريقه من مالي إلى الحجاز.

وبدوره، أجزل الملك الناصر الهدية لضيفه السوداني وأكرم وفادته، "فلما آن أوان الحج بعث إليه دراهم كثيرة وجمالاً وهجناً خاصة كاملات الأكوار والعُدَدِ لمراكبه، وهجناً أتباعاً لأصحابه ومن حضر معه، وأزواداً جمةً، وركز له العليق في الطريق، ورسم لأمراء الركب بإكرامه واحترامه..."[29].

وقد تحدث العمري [30] عما أعَدَّ هذا الملك من مال لأداء فريضة الحج، وما كان عليه من كرم وجود اضطر معه للاستدانة، فقال: "... وكان كريماً جواداً كثير الصدقة والبرِّ، خرج من بلده بمائة وسق جملٍ من الذهب أنفقها في حجته على القبائل بطريقه من بلاده إلى مصر، ثم بمصر، ثم من مصر إلى الحجاز الشريف، في التوجه والعودة، حتى احتاج إلى القرض، فاستدان على ذمته من التجار بمكاسب كثيرةٍ جعلها لهم بحيث حصل لهم في ثلاثمائة دينار سبع مائة دينار ربحاً، ثم بعثها إليهم بالراجح".

وأكد ابن خلدون[31] تلك المعلومات، وقال إن ما أعد الملك لنفقته من قناطير مقنطرة قد "نفدت كلها وأعجزته النفقة فاقترض من أعيان التجار، وكان في صحبته منهم بنو الكويك فاقرضوه خمسين ألف دينار، وابتاع منهم القصر الذي أقطعه السلطان وأمضى له ذلك". وهذا كله، ما جعل أهل مصر يعيشون على ذكرى حَجّة هذا السلطان الإفريقي لسنوات عديدة، وجعل صداها يتردد في كتابات مؤرخي القرن الثامن الهجري ومن قفوهم.

غير أن بَذْلَ الرجل وسعة إنفاقه لم يكونا وحدهما المسئولَيْنِ عن نفاد الأموال الضخمة التي أعد لرحلته، وإنما لعب غش تجار مصر له وتحايلهم عليه –وعلى أصحابه – دوراً في نفاد أمواله والاضطرار لبيع القصر الذي أهداه الملك الناصر والاستدانة من التجار لتغطية نفقات العودة من مصر إلى مالي.

وقد انتبه العمري [32] إلى ذلك السلوك وإلى ما خلقه من انطباع سيء لدى الحجاج الماليين في روايته لما حَدَّثَهُ به "خلق من تجار مصر والقاهرة عما حصل لهم من المكاسب والربح عليهم [33]، فإن الرجل منهم كان يشتري القميصَ أو الثوبَ أو الإزارَ وغيرَ ذلك بخمسة دنانير وهو لا يساوي ديناراً واحداً، وكانوا في غاية سلامة الصَّدْرِ والطمأنينةِ يُجَوَّزُ عليهم مهما جُوِّزَ عليهم، ويأخذون كلَّ قول يقال لهم بالقبول والصدق. ثم ساءت ظنونهم بأهل مصرَ غاية الإساءة لما ظهر لهم من غشهم لهم في كل قول، وفي تزاحمهم المفرط عليهم في أثمان ما يباع عليهم من الأطعمة والسلع حتى لو رأوا اليوم أكبرَ أئمة العلم والدين، وقال لهم إنه مصريٌّ امتهنوه، وأساءوا به الظنَّ لما رأوا من سوء معاملتهم لهم".

ومهما يكن من أمر، فقد كان هم الرجل الأساس هو أداء مناسكه على الوجه الأكمل ولم يقبل أن يشغله عنه شاغل. فقد رغب طويلا في القاهرة عن الاجتماع بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون، رغم إلحاح المهمندار، وقال: "أنا جئت لأحجَّ لا لشيءٍ آخر، وما أريد أن أخلط حجي بغيره"[34]. وهذا ما يفسر –جزئياً –شحَّ المعلومات عن محطته الحجازية التي انشغل فيها بأداء مناسكه، ولم يقم بما يسترعي انتباه المؤرخين الذين اهتموا كثيراً بمحطته القاهرية... فلم يصلنا من أخبار مقامه في الديار المقدسة سوى أداء مناسك الحج والعمرة، وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وما أنفق من أموال على الحجيج وأهل الحجاز، وما قام به من اتصالات وبذل من مال لاستمالة بعض العلماء وأصحاب الخبرة والجاه لإقناعهم بمرافقته في رحلة العودة إلى بلاده. وهذا ما يقودنا إلى الحديث عن أثر هذه الرحلة في تواصل أهل السودان الغربي مع المسلمين في مشرق دار الإسلام ومغربها.

2-رحلة منسا موسى ودورها في التواصل الثقافي:

عرفت علاقات السودان الغربي مع المشرق والمغرب العربيين تطوراً ملحوظا إثر حجة ملك مالي منسا موسى التي زادت من تألق هذا البلد ونقلت إشعاعه إلى أبعد من حدوده بكثير. وكان لتلك الرحلة أثرها الإيجابي على عملية التواصل بين المنطقتين على الأصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية. وسيقتصر حديثنا هنا على مظاهر التواصل الثقافي الذي تم خلال هذه الرحلة، وما كان له من دور في رفد

المنطقة ببعض العوامل التي ساهمت فيما ستعرفه لاحقا من نهضة عمرانية وثقافية متميزة جنت تنبكتو ونياني وغاوه أفضل ثمارها.

وبحكم طبيعة الرحلة الإيمانية ونزعة صاحبها الدينية القوية، فقد تأثر بما شاهد في الحرمين الشريفين من أحوال ربانية عزَّ عليه فراقها حتى عزا العمري [35] لابن أمير حاجب (ت. 739هـ/1339م) قوله إن منسا موسى كان ينوى عند العودة من الحج إلى بلاده أن "يقرر لابنه الملك، ويتركه له بالكُلِّيَّة"، ويعود إلى مكة لجوار بيت الله الحرام.

وقد استغل الملك موسم الحج لاقتناء عدد من الكتب وربط الصلة ببعض رجال العلم، وأقنعهم بمرافقته إلى بلاد السودان حيث لعبوا دوراً مشهوداً فيما عرفته المنطقة من تطور عمراني وثقافي. ونخص بالذكر من هؤلاء:

-أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن الطويجن[36] الساحلي الأندلسي الغرناطي، الشاعر وصاحب الخبرة المعمارية الكبيرة الذي لقيه منسا موسى في موسم الحج وحرص على اصطحابه معه إلى مالي لِيُشَيِّدَ بها مشاريع عمرانية شعر بالحاجة إليها بعد ما شاهد من معمار القاهرة والحرمين الشريفين. وكان الطويجن من أحظي الناس عند الملك، وبنى له المسجد الجامع في غاوه، والجامع الكبير والقصر الملكي في تنبكتو، وقاعة مجلس الملك الشهيرة في العاصمة نياني التي أودعها الطويجن خلاصة خبرته الفنية وتجربته المهنية؛ "فجاءت من أتقن المباني، ووقعت من السلطان موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم، ووصله باثني عشر ألفا من مثاقيل التبر مبثوثة عليها، إلى ما كان له من الأثرة والميل إليه والصلات السنية"، حسب تعبير ابن خلدون [37].

-عبد الرحمن التميمي الذي قال السعدي [38] إنه جاء مع السلطان منسا موسى من أرض الحجاز حين رجع من الحج، فسكن تنبكتو، ولاحظ تفوق علمائها عليه في الفقه؛ فرحل إلى فاس وتفقه فيها، ثم رجع إلى تنبكتو فتوطن فيها. وأصبح على درجة من العلم جعلت الشيخ الرباني سيدي يحيي التادلي (ت. 866هـ/1461م) يقول لطلبة جامع سنكري إذا جاءوه لأخذ العلم: "يا أهل سنكري كفاكم سيدي عبد الرحمن التميمي". ومع أننا لا نتوفر على تاريخ وفاة التميمي الذي جاء إلى المنطقة سنة 725هـ، فربما كان من عناه التادلي هنا -في رواية السعدي التي نقلها عنه كذلك صاحب فتح الشكور (ص. 313) -هو حفيد التميمي قاضي تنبكتو حبيب بن محمد الصالح بن عبد الرحمن التميمي (ت. 904هـ) الذي أخذ عنه عالم التكرور والقاضي من بعده محمود بن عمر بن محمد أقيت (ت. 955هـ).

ويبدو من رواية تاريخ الفتاش [39] أن اهتمام منسا موسى في الحجاز، لم ينصب فقط على اقتناء الكتب وربط الصلة ببعض أهل العلم، وإنما سعى كذلك إلى جلب بعض الأشراف القرشيين إلى بلاده للتبرك بهم[40] وإضفاء مزيد من الشرعية عليه وعلى سلطته. وقد قيل إنه قد تقدم بذلك الطلب إلى شيخ مكة [41] الذي رفضه رفضاً باتا. وبعد أن اشتد إلحاح الملك قال له الشيخ: "لا أفعل ولا آمر ولا أنهى، ومن شاء فليتبعك، فَأَمْرُهُ بيده، فأنا بريء". فأمر ملك مالي "مُناديا في الجوامع: من أراد ألف مثقال من الذهب فليتبعني إلى أرضي، فله ألف حاضر. وجمع عليه أربعة رجال من قريش، قيل إنهم كانوا من موالي قريش وليسوا من أنفس قريش، وأعطاهم أربعة آلاف، كل واحد منهم ألف، وتبعوه بأهليهم راحلين إلى بلده".

وإذا صحت هذه الرواية، فإنه ينبغي النظر إليها من زاوية نزعة التعلق بآل البيت وادعاء الانتساب إليهم الحاضرة بقوة في بلاد السودان منذ منتصف القرن السادس الهجري - على الأقل -حيث ادعى حكام التكرور النسب العلوي [42]، وتجدد هذا الادعاء مع أكثر من أصحاب سلطة في المنطقة أو طامحين إليها. كما قد تكون رجع صدى، في الطرف الآخر من الصحراء، لإيديولوجية الشرف التي ترسخت بالمغرب الأقصى منذ العهد المريني لحل أزمة الشرعية السياسية في ذلك البلد [43].

وكانت معلوماتنا عن صلات الركب السوداني الثقافية في مصر أكثر دقة وثراء حيث وجدت متسعاً من الوقت في الذهاب، واستكملت في رحلة الإياب. ففي بداية وجوده، بحث منسا موسى عن فقهاء المالكية في مصر للاسترشاد بنصائحهم والاستفادة من علمهم، لاسيما أن السودانيين -عموماً -قد عرف عنهم تعلقهم بمذهب الإمام مالك، رضي الله عنه، وتشوفهم لتحصيل علوم الشريعة على أساسه، وأن الرجل كان له حظ من الثقافة العربية الإسلامية يمكنه من محاورة هؤلاء العلماء. فهو وإن كان لا يكلم المهندار وغيره من أمراء

المماليك إلا بترجمان "مع إجادته للتكلم باللسان العربي"[44]؛ فإنه كان يتحدث مباشرة وبدون ترجمان مع كل من أبي إسحاق الساحلي والمعمر أبي عبد الله بن خديجة حسب قول ابن خلدون [45]. واكتفت مصادرنا بالقول إنه عقد لقاءات مع هؤلاء الفقهاء دون تفصيل بشأنهم، وأومأت إلى أنه قد ارتبط بعلاقات خاصة مع بعضهم مثل الفقيه المالكي البجائي الأصل: القاضي شرف الدين عيسى الزواوي [46] الذي يبدو أنه جالس منسا موسى كثيراً في قصره بالقرافة [47]. وحدثنا أحمد بابا التنبكتي[48]، نقلا عن ابن مرزوق الخطيب (710-781هـ)، عن تأليف شيخه القاضي ومدرس المالكية بمصر: محمد بن أحمد بن ثعلب المصري المعروف بابن كشتغدي[49]، شرحا لمختصر أبي الحسن الطليطلي[50] بطلب من سلطان مالي منسا موسى.

وجملة القول إن الرجل استغل رحلته إلى الحج عموما، ومقامه بالقاهرة على وجه الخصوص، للتعرف على الفقهاء المالكيين والاستفادة منهم، والسعي لاستصحاب بعضهم إلى بلاده، واقتناء الكتب. فقد ذكر العمري أن منسا موسى "جلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب مالك رضي الله عنه"، في حين قال المقريزي[51] إنه قد "اشترى عدة كتب من فقه المالكية" خلال إقامته بالقاهرة.

وفضلا عما كان للعلماء والكتب من دور في التواصل الثقافي بين المنطقتين، فقد كان للاحتكاك الحضاري أثره البالغ على هذا الصعيد، أيضاً، حيث تؤكد المصادر عمق تأثر منسا موسى بالمناخ الروحي الذي عاشه في الحرمين الشريفين خلال موسم الحج أو في لقاءاته بالعلماء في القاهرة، فأولى عناية كبيرة – بعد عودته من الحج – لتشييد المدارس، وابتعاث الطلاب للدراسة في حواضر المغرب الثقافية[52]، وبناء المساجد حتى قال السعدي[53] إن "عادته رحمه الله في كل موضع أخذته الجمعة" فيه أن يبتني مسجداً ومحراباً كما فعل في جاوه وتنبكتو وغيرهما.

وكان لذلك كله أثره على واقع الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في المنطقة الذي حدثنا ابن فضل الله العمري [54] عن بعض مظاهره، في معرض حديثه عن مملكة مالي وما ورثه الملك سليمان عن أخيه السلطان منسا موسى، فقال إن "بيده ما كان قد جمعه أخوه مما فتحه من بلاد السودان، وأضافه إلى يد الإسلام، وبَنَي به المساجدَ والجوامعَ والمواذنَ، وأقام به الجمع والجماعاتِ والآذان، وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وبقي بها سلطانُ المسلمين، وتفقه في الدين".

وساهم هذا المناخ الديني والثقافي في عملية التراكم المعرفي الذي عرفته المنطقة لاحقاً وما تولد عنه من إشعاع ثقافي شكلت تنبكتو –وجامعتها المتمثلة في معهد مسجد سنكري –مركز إشعاعه الأساس الذي أضاء منطقة السودان الغربي وأحوازها ردحاً طويلاً من الزمن.

وكان حجُّ علماء السودان الغربي أكثرَ اطراداً من حجِّ الملوك والأمراء، وأبلغ أثراً ثقافياً في التواصل مع الساحة العربية الإسلامية. وهذا ما يقودنا إلى الحديث عن حجة العالم المحدِّث صالح الفلاني.

حجة صالح الفلاني وَرَفْدُ الأطراف للمركز

اعتنى العلماء الأفارقة أكثر من غيرهم من بني جلدتهم بأداء فريضة الحجِّ، وكانت رحلة الحج لديهم من أهم قنوات التواصل مع محيطهم العربي الإسلامي، وخصوصا على الصعيد المعرفي. وكانت رحلة صالح الفلاني بالغة الدلالة في هذا الصدد لاسيما أن صاحبها استفاد منها وأفاد، وشمل إشعاعه العلمي الساحة الإسلامية من الهند إلى موريتانيا، مروراً بالحجاز، واليمن، فالشام، وتركيا، ومصر والمغرب... وسنُعرِّفُ بالرجل ورحلته في طلب العلم وأداء مناسك الحج، قبل الحديث عن عطائه العلمي في أرض الحجاز وما منح فيها من إجازات عالية السند لم تكن معروفة في المشرق العربي.

1-صالح الفلاني ورحلته العلمية من فوتا ادجالُّون إلى المدينة المنورة:

ولد العالم المحدث الحافظ صالح بن محمد بن نوح بن عبد الله بن عُمر، العُمري المسوفي الفلاني، في منطقة فوتا ادجالُّون (غينيا كناكري حاليا) سنة 1166هـ/1753م، وتلقى معارفه الأولى فيها، وأخذ بالأساس عن خاله عثمان بن عبد الله الفلاني. ثم ارتحل سنة 1178هـ لطلب العلم وعمره لم يتجاوز اثني عشر عاما، فدخل بلاد "القبلة"، في جنوب غربي موريتانيا، حيث أخذ عن العالم اللغوي والمتكلم الأشعري الشهير المختار بن بونه الجكني (ت. 1220هـ/1805م)، قبل أن يشد الرحال إلى الشرق الموريتاني ويلازم على مدى ست سنوات [55] الشيخ محمد بن

سِنَّة الفلاني الولاتي (1042–1186هـ/1632–1772م)[56] الذي انتفع به أكثر من غيره من أشياخه الكثر واعتبره أجلَّهم على الإطلاق، وأحفظهم، وأنصحهم للطلبة [57]. ثم ارتحل إلى تنبكتو ولازم فيها نحو العام الشيخ محمد الزين، وانتقل منها إلى وادي درعة حيث مكث في الزاوية الناصرية بتمكروت سنة، وغادرها إلى مراكش التي أمضى بها ستة أشهر وأجازه قاضيها عبد العزيز بن حمزة المطاعي (ت. 1205هـ/1790م). وتوجه من المغرب الأقصى إلى تونس وأخذ عن علمائها مثل الغرياني[58]، والكواشي[59]، والسوسي[60] وغيرهم. وزار طرابلس الغرب وقال إنه لقي فيها التاودي بن سودة (ت. 1209هـ/1795م)[61] في مآبه من الحجِّ، فأخذ عنه وأجازه إجازة عامة؛ وإن شكك عبد الحفيظ الفاسي (ت. 1383هـ/1963م) [62] في أن يكون هذا اللقاء قد تم في التاريخ الذي توجه فيه الفلاني إلى الحج. أما في مصر، فقد أقام ثلاثة أشهر ملازماً علماءها كأبي الحسن الصعيدي[63] ومحمد مرتضى الزبيدي (ت. 1212هـ/1797م)، ومحمد المصيلحي (ت. 1201هـ/1786م)، قبل أن يشد الرحال إلى الديار المقدسة فيؤدي فريضة الحج سنة 1187هـ/1773م، ويزور قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، ويعيش في جواره بالمدينة المنورة حتى وفاته سنة 1218هـ/1803م. وقد أمضى في الحجاز أكثر من نصف عمره القصير، وأخذ عن عدد من علمائها وزوارها مثل الأمير إبراهيم بن محمد بن إسماعيل الصنعاني (ت.1213هـ/1799م)، ومصطفي الرحمتي الدمشقي المدني (ت.1205هـ/1790م)، وعبد الله المرغني الطائفي، ومحمد بن محمد بن عبد الله المغربي الزواوي (ت. 1201هـ/1786م)، والشيخ الدردير (ت.1201هـ/ 1786م)، ومحمد بن عبد الكريم السمان (ت. 1189هـ/1775م)، وإبراهيم الرئيس بن محمد الزمزمي المكي، وعبد الملك بن عبد المنعم القلعي (ت. 1229هـ/1814م)، وسليمان بن محمد الدراودي، وأبو الحسن ابن محمد صادق السندي المدني، ومحمد بن عبد السلام الناصري الدرعي (ت. 1239هـ/1822م)، والعالم الجليل محمد سعيد سفر (ت. 1192هـ/1778م)، وزوجه أم الزين المدنية، وغيرهم. وقال الفلاني إن محمد سعيد سفر هو أجلُّ شيوخه بالمدينة المنورة، ولازمه ست سنين. وقد حلاه في ثبته الكبير ب "جامع أشتات علوم الخبر، وبدر خفايا لطائف علم الأثر، محيي رسوم الرواية بعدما عفت آثارها، ومُشيِّد مبانيها بعدما انهدَّ منارها، خاتمة الحفاظ الأعلام، جهبذ أهل الرواية والإسناد"[64]. وأختلف في أخذه عن الحافظين محمد بن حبيب الله المجيدري الشنجيطي (1204هـ/ 1789م) والجيلالي بن المختار السباعي (ت. 1233هـ/1817م) الذيْن نقل الكتاني [65] من خط صالح الفلاني ما يؤكد إعجابه بهما حين قال: "ورد علينا من المغرب حافظان: محمد المجيدري من آل بارك الله والسباعي، أحدهما يبقى ما في حفظه ستة أشهر، والآخر يبقى ما في حفظه عاماً".

وبذا يكون الرجل قد أعمل الرحلة مبكراً في طلب العلم وكرَّس وقته وجهده لتحصيله، فانتقل في ريعان شبابه من هضاب فوتا ادجلُّون، إلى موريتانيا، وتنقل في أرجائها حتى ظفر بمبتغاه من الإجازات وهو ما يزال في مقتبل العمر؛ ثم شد الرحال إلى المغرب وتونس ومصر والحجاز، فأضاف إجازات علمائها إلى إجازاته الشنجيطية العالية السند.

2-صالح الفلاني منهجه ومكانته العلمية، وإجازاته العالية السند:

أنهى صالح الفلاني رحلته العلمية بأرض الحجاز حيث أدَّى مناسكه، وحطّ عصى الترحال بالمدينة المنورة التي طاب له المقام فيها ابتداء من 1187هـ/1773م. وخلال هذا المقام الممتد زهاء ثلث قرن من الزمن، اشتد إقبال الناس على الفلاني وقام بنشاط معرفي متميز. وإذا كان المقام يضيق عن تتبع مختلف أوجه عطاء الرجل المعرفي، فإننا سنكتفي بإعطاء لمحة عامة عن مكانته العلمية وأهم آثاره، وإجازاته العالية السند، وأمثلة ممن أخذوا عنه.

–مكانته العلمية وآثاره: يعتبر صالح الفلاني وعاء من أوعية العلم الذي كرَّس حياته له، فتلقاه من أفواه الرجال، وبالمطالعة والدراسة والتدريس، والجِدِّ والمثابرة، والورع والتواضع العلمي، حتى تبوأ مكانة بارزة بين علماء المدينة المنورة في ملتقى القرنين 12 و13 الهجريين، وأصبح قبلة لطالبي العلم، والمستجيزين من أهله. وكان مالكي المذهب، متبحراً في الحديث والتفسير، نابذاً الجمود والتخندق المذهبي، حريصا على ألا يقلد في دينه؛ فأخذ يستنبط الأحكام من أدلتها، ويحرر ويؤلف، ويدعو للتجديد والوقوف عند الدليل. وعرف عنه كرهه التقليد ونفوره منه حيث قال في مقدمة كتاب: إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار ما نصه: "فأقول: كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ متظاهران على الحثِّ على العمل بالكتاب والسنة، وقضايا الصحابة والتابعين كاشفة عن ذلك كلّ دُجَنَّةٍ، وكلام الأئمة الأربعة وغيرهم مصرح به وكاشف عن قلوب مُتبعيهم

الأكِنَّة، بل في كلامهم التصريح بتحريم تقليدهم بعد ورود نص يخالفهم من كتاب أو سنة، وأنَّ تقليد المتعصبين بعد ذلك ضلال وجِنَّة، وأنه ليس لغير العاميِّ تقليدٌ بغير برهان وحجة"[66].

وأكد هذا الرأي في أكثر من مكان من هذا الكتاب، واعتبر التقليد تعطيلاً للعقل ولضرورة التأمل؛ وانتقد مسلك فقهاء عصره في عدم الاعتماد على الكتاب والسنة في استنباط الأحكام من خلال تعليقه على قول أبي السمح [67]: "يأتي على الناس زمان، يسمِّن الرجل راحلته، حتى يقعد شحماً، ثم يسير عليها في الأمصار، حتى تسير نقضاً يلتمس من يُفْتِيهِ بسّنَّة قد عمل بها، فلا يجد إلا من يفتيه بالظن"، فقال:

"قلت: ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكل ذلك قد وقع لأن اسم الفقيه عند السلف... إنما يقع على من علم الكتاب والسنة وآثار الصحابة ومن بعدهم من علماء الأمة، وأما من اشتغل بآراء الرجال واتخذه ديناً ومذهباً ونبذ كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وقضايا الصحابة والتابعين وآثارهم من ورائه، فلا يطلق عليه اسم الفقيه بل هو باسم الهوى والعصبية أولى وأحرى. ولقد شاهدنا في زماننا هذا مما قاله أبو السمح؛ فلقد طُفْتُ من أقصى المغرب ومن أقصى السودان إلى الحرمين الشريفين، فلم ألقَ أحداً يسأل عن نازلة فيرجع إلى كتاب رب العالمين وسنة سيد المرسلين وآثار الصحابة والتابعين إلا ثلاثة رجال، وكل واحد منهم مقموع محسودٌ يُبغضه جميع من في بلده من المتفقهين وغالب من فيه من العوام والمتسمين باسم الصالحين، وموجب العداوة والحسد تمسّكهم بالكتاب وسنة إمام المتقين صلى الله عليه وسلم، ورفضهم كلام الطائفة العصبية والمقلدين"[68].

وأنكر على معاصريه من العلماء المنحازين إلى جانب السلطة العثمانية الذين أصبح "القضاء والفتوى عندهم بلبس الكوربان الغراء"، وشَغَلُوا أنفسهم بالاستكتاب عن التدبر والاعتبار؛ "فألسنتهم تروي العلم وقلوبهم قد خلت من الفهم، غاية معرفة أحدهم، معرفة الكتب الغريبة والاسم الغريب، والحديث المنكر، وتجده قد جهل ما لا يسع أحداً جهله من علم صلاته وحجه وزكاته..."[69].

ورَغِبَ عن منهج المختصرات الفقهية وتدريسها، واعتبر أن "الاشتغال بالكتب المختصرات والمعقدات ليس يجدي نفعاً، وإنما هو جهل مركب". وعارض التزام متأخرى أهل كل مذهب من المذاهب الأربعة بمتن فقهي خاص بهم، لما ينجر عن ذلك من حمية وتعصب؛ فقال: "فما بالك برأي أهل القرن الثالث عشر الهجري الذين جعلوا دينهم الحمية والعصبية، وانحصروا على طوائف: فطائفة خليليون [70]، ادعوا أن ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم محصور في مختصر خليل، وأنزلوه منزلة كتاب الله العزيز الجليل، فصاروا يتبعون مفهومه ومنطوقه، كل دقيق فيه وجليل؛ وطائفة كنزيون أو دريون[71] ادعوا أن ما في هذين هو العلم، فالعمدة على ما في الأسعدية والخيرية [72]. وكان يطغي عليهم اعتقادهم أن العمل بما في هذه المصنفات مقدم على ما نزل به جبريل على خير البرية عليه الصلوات والتسليمات وعلى من تبعهم. وطائفة منهم منهجيون أو منهاجيون[73]، فيبحثون عن منطوقها ومفهومها، وبما فيها يتعبدون، فإنا لله وإنا له راجعون"[74].

وأكد نبذه للتقليد وتشبثه بالدليل الذي نبذه متأخرو المذاهب، فقال: "... أن تتأمل مذهب مالك، فترى كتب علمائهم المتقدمين قد مُلئت بالأدلة، وحُشيّت بذمِّ المقلدين، كالمبسوط للقاضي إسماعيل، والمجموعة لابن عبدوس، والتمهيد لابن عبد البر، والطراز لسند بن عنان؛ وقد نبذها المتأخرون وراء ظهورهم، وأقبلوا كل الإقبال على ما ابتدعه المتأخرون من حذف الدليل من مختصراتهم، وأولعوا بالتقليد بلا دليل، لاعتقادهم أن الاشتغال به عناء وتطويل، إنا لله وإنا إليه راجعون"[75].

وعُرِفَ الفلاني، في مقارباته المنهجية، بالأمانة والدقة في العزو كما يتجلى من حديثه عن منهجه في "إيقاظ الهمم" حيث يقول: "واعلم أيها الناظر فيما جمعناه أن جميع ما ذكرناه من الآثار، من أول المقدمة إلى آخرها، كلها مروي بأسانيد جياد حذفناها اختصاراً، وجلها لحافظ المغرب أبي عمرو بن عبد البر من كتاب العلم، والتمهيد، والاستذكار، والاستيعاب كلها له، وما عداه فمن كلام حافظ المشرق أبي بكر البيهقي، وقليل نقلته من سنده عن علامة المجتهدين محمد بن إدريس الشافعي، والله الموفق للصواب"[76].

وقد أثنى عليه كبار العلماء ووصفوه بالعلم والعمل والاجتهاد، فقد وصفه تلميذه العالم المحقق، وشيخ الجماعة بفاس في عهده: عبد الرحمن بن أحمد الشنجيطي (ت. 1224هـ/1809م) ب "الفقيه المحدث النحوي البياني العالم بجميع فنون المعقول والمنقول"[77]، ونوَّه تلميذه الشيخ محمد صالح الرَّيّس الزمزمي المكي (ت. 1240هـ/1824م) برسوخه العلمي وعلو أسانيده [78]، وقال عنه محدث الشام الوجيه الكزبري (1221هـ/1806م) إنه "الإمام المشهور بالإسناد العالي ذو الذهن الوقاد المتلالي". وحلاّه الشيخ عابد السندي المكي (ت. 1275هـ/1840م) بـ "الإمام الذي لا يجارى، والفهامة الذي لا يماري، ملحق الأصاغر بالأكابر"، واعتبره البيطار الحنبلي (ت. 1335هـ/ 1916م): "عالم المدينة المنورة، وفاضل البقعة الحجازية، وعمدة الأفراد والأعيان، ونخبة الأمجاد الذين يشار إليهم بالبنان، الجامع بين العلم والعمل فوق ما يتعلق به الأمل"، وقال عالم الحديث الشمس القاوقجي (ت. 1305هـ/1888م) إنه كاد أن يكون مجتهداً، في حين جزم صاحب "الدين الخالص"[79] ببلوغه رتبة الاجتهاد. أما صاحب "عون المعبود على سنن أبي داود"[80]، فقد عَدَّه "من المجددين على رأس المائة الثالثة عشر".

وعقد له عبد الحي الكتاني ترجمة حافلة قال في مستهلها: "هو الإمام المحدث الحافظ المسند الأصولي الأثري فخر المالكية..."[81]، بل اعتبره "مسند الحجاز والمالكية في أول القرن المنصرم [13هـ] [82]"، وأحال إليه 73 مرة.

وقد ترك صالح الفلاني آثارًا تعكس اهتماماته المعرفية ومنهجه الأصولي الذي جعل البعض [83] يتحدث عن جهوده السلفية وعن تأسيسه "مدرسة إصلاحية في المدينة المنورة مع كوكبة مهمة من أساتذته وتلاميذه". ومن أهم تلك الآثار:

– إيقاظ همم أولى الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار وتحذيرهم عن الابتداع الشائع في القرى والأمصار من تقليد المذاهب مع الحمية والعصبية بين فقهاء الأعصار، وهو أهم تلك المصنفات، إذ عرض فيه منهجه في استنباط الأحكام من الكتاب والسنة، ومن آراء السلف الصالح، ومدلول التقليد عند العلماء وغير ذلك.

– جمع الأحاديث القدسية.

– تحفة الأكياس بأجوبة الإمام خير الدين إلياس، مفتي المدينة.

– الأجوبة المصرية عما استعجم من الأسئلة الواردة على حروف المعجم.

– الثبت الكبير المسمى الثمار اليانع في رفع طرق المسلسلات والمسانيد والأجزاء والجوامع، وذكر طرق التصوف وما لها من التوابع أو إحياء مراسم الأسانيد العالية بعد اندراسها، وتوثيق عُرى المسلسلات السامية بعد انفصامها، وإيضاح الطرق الهادية بعد خفاء أعلامها؛ وقد تحدث في هذا الكتاب عن مشايخه في السودان، ومراكش، وفاس، وتونس، ومصر، والحجاز، واليمن، والشام، وما سمعه على كل واحد منهم، وعن فضائل علوِّ الإسناد، واشتمل على أسانيد الكتب الستة والموطأ فقط، وخصّ طرق الصوفية ووصايا الأنبياء والعلماء والحكماء بملحق.

– الثبت الصغير المسمى قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر [84] الذي اختصر به الثمار اليانع، وهو ثبت حافل قيِّم يشتمل على أسانيد عالية جعلت الكتاني [85] يقول إنه "مهم جداً جامع لأسانيد وكتب أهل المشرق والمغرب".

وكان أكثر ما امتاز به الفلاني هو علو الإسناد [86].

– الفلاني وإحياء إجازات الحديث العالية السند في الحجاز:

يعتبر الإسناد من خصائص هذه الأمة، وقد اعتز المسلمون بعلوه ورغبوا فيه منذ عهد الصحابة والتابعين. ولا يختص الإسناد بالحديث النبوي الشريف وكتبه، وإنما يشمل مختلف كتب المعرفة في الثقافة العربية الإسلامية. ولذا، اهتم علماء المسلمين بوضع أثبات وفهارس لأشياخهم ومروياتهم، يتتبعون فيها حلقات السند، ويضبطون تواريخ الوفيات، ويعرِّفون بالمصنفات ومجالات الاهتمام المعرفي.

وكان أهم ما امتاز به نشاط صالح الفلاني المعرفي في مهجره، هو إحياء إجازات الحديث في الحجاز الذي كثر الآخذون عنه من أهله، ومن الوافدين عليه من أهل الهند، والشام، وتركيا، ومصر، والمغرب، وموريتانيا وغيرها من أصقاع العالم الإسلامي. وبذلك، يمكن القول إن الفلاني قد

أحدث نقلة نوعية في علاقة أهل السودان الغربي الفكرية بالمشرق العربي، حيث لم يعودوا مجرد متلقين وطلاب زاد معرفي، بل أصبحوا –كغيرهم –أصحاب بذل وعطاء علمي.

فقد نشر الفلاني بالمشرق إجازات عالية السند كان قد تلقاها من شيخه ابن سنّة الفلاني، عن مولاي محمد الشريف الولاتي الشنجيطي (ت. 1101هـ/1689م) [87] الآخذ لها عن عدد من محدثي وفقهاء مصر وغيرها من بلاد المشرق خلال رحلات حجه وحج والده. وكان هذا السند أعلى الأسانيد المعروفة في المنطقة حينها وأقلها شيوعاً، مما زاد من إقبال الناس على الرجل وطلب إجازته، واستجازة الآخذين عنه.

وأعلى الأسانيد التي نشرها صالح الفلاني هي روايته للموطأ – برواية يحيي بن يحيي الليثي (ت.234هـ/849م) – عن شيخه "محمد بن سنة عالياً، عن مولاي الشريف محمد، عن محمد بن خليل عرف بابن أركماش الحنفي، عن الحافظ بن حجر العسقلاني، عن محمد بن عبد اللطيف بن الكويك، عن الحافظ الذهبي، عن عبد الله بن هارون بسنده"[88]... كما امتازت روايته لصحيح البخاري بعلو سندها، إذ يرويه عن شيخه "محمد بن سنة، عن مولاي الشريف إجازة، عن محمد بن محمد بن أركماش اليشبكي الظاهري الفقيه الشهير بالجبقاني، عن الحافظ بن حجر" بسنده إلى البخاري[89].

وتجدر الإشارة إلى أن روايات الفلاني عن ابن سنة عن الشريف الولاتي، أعلاها محمد بن أركماش (توفي بعد 960هـ/1552م) تلميذ ابن حجر (ت. 852هـ/1449م)، وأدناها على القاري (1014هـ/1606م) وعلى الأجهوري (1066هـ/1655م) وطبقتهما من المشارقة والمغاربة.

وقد طعن المحدثان المغاربيان عبد الحفيظ الفاسي (ت. 1383هـ/1963م)، وأحمد بن الصديق الغماري (ت. 1380هـ/1960م)، في رواية صالح الفلاني عن شيخه ابن سنة، بل شككا في وجود ابن سنة نفسه ووجود شيخه الولاتي.

فقد أشرنا في حديثنا عن أخذ الفلاني عن التاودي بن سودة إلى تشكيك الفاسي في لقاء الرجلين، بل في سند الفلاني عموما الذي خصص ست صفحات من معجمه لنقده وتمحيصه [90]. وقد أجمل الفاسي مآخذه على رواية الفلاني –في بداية حديثه عنها –بقوله: "ولصالح الفلاني هذا رواية واسعة لولا ما شانها من الروايات التي أغرب بها على أهل المشرق، وعند فحصها تبيَّن لنا أنها مزيفة كروايته عن الشيخ التاودي ابن سودة، وكروايته عن المسمى محمد بن سنة عن المسمى محمد بن عبد الله الولاتي المدعو بمولاي الشريف..."[91]. وتتبع الفاسي كل واحدة من تلك النقاط بالبحث والمحاجة المنطقية كحديثة عن رواية الولاتي عن عدة طبقات من أهل المشرق والمغرب أعلاها ابن أركماش وشيخه ابن حجر، وأدناها علي القاري والأجهوري من جهة، والعارف الفاسي والمقري وابن عاشر وطبقتهم وطبقة تلامذتهم من جهة أخرى؛ وصعوبة تحقق ذلك زمنيا، فضلا عن تهافت رواية الفلاني لتاريخ ميلاد الولاتي... واعتبر أن رواية صالح الفلاني ورواية ابن سنة عن الولاتي، عن أكثر من تسعمائة شيخ من أهل المشرق والمغرب؛ يصبان "في قالب واحد ليغرب بذلك على أهل المشرق بانفراده بالرواية عن ابن سنة عن الولاتي المعمرين حتى صار بذلك مسند عصره وراويته". ورغم اعترافه بأن "صالح الفلاني لم ينفرد بالرواية عن ابن سنة عن الولاتي، بل روى عنه كثيرون ورفعوا أسانيدهم بواسطتهما من غير طريقه"، كرواية الوناني، والأهدل، ومحمد العطوشي، وبعض الدمشقيين عن الشيخ عبد الرحمن الكزبري عن ابن سنة؛ فإن الفاسي يعتبر "أن كل من روى عن ابن سنة أو عن الولاتي من غير طريق صالح الفلاني، إنما اعتمد في ذلك عليه"[92]. ويخلص إلى أن رواية الفلاني عن شيوخ الولاتي مزورة ومنقولة عن مصادر أخرى لم يطالعها الولاتي نفسه بدليل أنه ذكر أولئك الشيوخ بترتيبهم وأوصافهم وحُلاهم كما ذكرهم غيره من أصحاب الفهارس.

أما اللقاء مع ابن سودة في طرابلس حين مآبه من الحج والأخذ عنه، فهي في نظر الفاسي "الطامة الكبرى والفرية الملعونة التي هدَّت مجد [الفلاني] وأبانت كذبه بصراحة لم يبق معها أدنى ارتياب، فقد كذَّب نفسه بنفسه" لأن ابن سودة دخل مصر راجعاً من الحج في جمادى الآخرة عام 1182هـ في وقت لم يخرج فيه صالح الفلاني بعد من بلاد السودان برسم الحج. وإذا صحت المعلومات التي تتحدث عن حجة أخرى للتاودي في 1191هـ، فلا يمكن الحديث عن لقياه له لأن وصول الفلاني إلى المدينة كان في 1187هـ.

وسبق للدكتور حماه الله بن السالم [93] أن تتبع مطاعن الفاسي هذه في رواية الفلاني لسنده، وقبول الكتاني بذلك السند واعتماده إياه من خلال ترجمته للولاتي وابن سنة وتلميذهما صالح الفلاني، "وأوغل في تزكية رواياتهم والتأكيد على صحة وجودهم التي شكك فيها الفاسي في معجمه"[94]، وأتي بقائمة طويلة ممن ترجموا لابن سنة عن غير طريق صالح الفلاني. وبعد محاجّة الآراء المشككة في رواية الفلاني، خلص الكتاني إلى القول: "فعلي هذا نكف عن الخوض في ذلك بأزيد مما ذكر، مع كون الفلاني إن ذكر أنه قرأ وسمع على شيخه ابن سنة ما يستغرب من الكتب والمصنفات، فكتابه: "إيقاظ الهمم" ينم عن اطلاع كبير ووقوف على أكثر من تلك الكتب وأغرب، ولا نُحب أن نكون كصاحب الفار في القصة التي ساقها ابن خلدون لأجل ابن بطوطة وغرائبه، فكن على بال من كلامه، والله أعلم بالحقيقة"[95].

وكان نشر معجم الفاسي سنة 1350هـ/1931م وما جاء فيه من نقد "ادعاء صالح الفلاني الرواية عن التاودي بن سودة"، أحد بواعث تأليف الغماري كتابه المسمى: "العتب الإعلاني لمن وثَّق صالحاً الفلاني"[96]، بطلب من شيخه محدث الحرمين عمر بن حمدان المحرسي(ت. 1368هـ/1949م) الذي التمس من الغماري "الدفاع عن صالح الفلاني وإبطال تكذيب الفاسي إياه". وقال الغماري إنه بعد أن قرأ كتاب صالح: "قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات والأثر" ليستخرج منه ما يمكن أن يعتمد عليه في الدفاع عنه، خلص إلى أن الفلاني "كذاب فشار، وأننا بالرواية عنه قد وقعنا في شبكة كذبه وشراك فشره، لاسيما وقد أسندت من طريقه أحاديث في كتب قد طبعت وانتشرت"[97]. وقد اقتصر الأمر في البداية على كتابته ترجمة للفلاني من أربع صفحات تبين رأيه الجديد فيه ضمن كتاب: "مجمع فضلاء البشر من أهل القرن الثالث عشر"، إلى أن لاحظ في حوار مع عبد الرحمن بن زيدان (1365هـ/1946م) ميله إلى توثيق صالح الفلاني واستهجانه تكذيب الفاسي له في معجمه، ودعوته للدفاع عنه. فعنَّ للغماري أن يفرد "بيان حاله في جزء مخصوص يكون أسهل للنشر وأقرب للتناول حتى لا يبقى أهل العلم في جهل بشأنه واغترار من باطله ولاسيما أهل الحديث"[98]. وأدرج في بداية تأليفه تراجم الكتاني لصالح الفلاني وشيخيْه ابن سنة والولاتي، وقال إن عبد الحي الكتاني "قد تعب في غير فائدة، وأطال في غير طائل، وأتى بما حط به من قدره وبرهن به على ضعفه واستسلامه لأغراضه وأهوائه، فإن حبه لأسانيد الكتب العالية هو الذي دفعه لمجابهة الحقيقة الناصعة التي سطرها بيده وصار بعد ذلك يغالط نفسه في المحسوس الملموس الظاهر ظهور الشمس في رابعة النهار على أن ما حذفه ولم يذكره هو أعظم وأطم وأجلى وأوضح في كذب الفلاني..."[99].

وقد استغل الغماري فرصة الطعن في رواية الفلاني للتهجم على الكتاني نفسه والتشكيك فيه هو الآخر باعتباره "ناصر الفلاني والمدافع عنه" والْمُثْبِتَ لصدق روايته، بل وصلت به محاولة دحض حججه التهجم على ابن خلدون واتهامه "بالغباوة والجهل" بسبب استشهاد الكتاني بانتصاره لابن بطوطة؛ فقال:

"وابن بطوطة سلف الفلاني في الكذب الواضح والدعاوى العريضة والفشر الممقوت، ولئن انتصر له ابن خلدون، فإنما أسقط بذلك قدره وأبان عن غباوته وجهله، إذ أكاذيب ابن بطوطة لا يستريب فيها عاقل، وقد أكذبه الأوربيون فيما أخبر به عن الصين.."[100].

وقد تمحورت مآخذ الغماري على الفلاني حول التشكيك في عدد الأساتذة الذين أخذ عنهم، والكم الهائل من المصنفات التي رجع إليها وقرأها قراءة بحث وتحقيق في سنوات معدودة رغم صعوبتها. كما شكك في وجود شيخه ابن سنة، وفي عمره الطويل، وعدد شيوخه، وحجم مكتبته، ومستوى ثقافته العربية الإسلامية، وفي قدرته على إقراء "هذه الكتب العويصة لفظاً ومعنىً في سنِّ الأربعين بعد المائة، وهو سوداني الأصل والدار، مع أن السوداني لا يكاد يفهم الأجرومية وهو في مقتبل العمر وعنفوان الشباب، فكيف بمختصر ابن عرفة في المنطق، ومختصر ابن الحاجب في الأصول..."[101].

ويبدو أن تصوراته الذاتية عن مستوى الثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي خلال القرنين 12 و 13 الهجريين، قد طبعت موقفه من الفلاني وسنده المعرفي. ففي معرض طعنه في عدد شيوخ ابن سنة، تعجَّب الغمَّاري كيف يزيد شيوخه على شيوخ الحافظ ابن حجر بأكثر من ثلاثمائة شيخ وهو في بلاد السودان؟ وعلى شيوخ تلميذه الفلاني الذي

لم يستطع نفي مكانته العلمية الكبيرة، وتطوافه في البلدان لتحصيلها، ونبوغه وذكائه؛ فقال:

"فها هو تلميذه صالح الفلاني، الحافظ الذكي النابغة الراوية الفشار، قد رحل ودخل فيما يزعم بلاد السودان، وشنقيط، والسوس والمغرب الأقصى، والجزائر وتونس، وطرابلس، ومصر، والشام، والحجاز، وأقام بالمدينة المنورة موضع وجود المسلمين من مشرق الشمس إلى مغربها؛ هل استطاع أن يجمع من الأشياخ عشر هذا العدد ولا نصف عشره..."[102].

ويبدو جليا من قراءة مجمل مآخذ الغماري على الفلاني، غلبة طابع الحجاج الانطباعي غير المؤسس معرفياً عليها مع شخص توفي قبل ولادة المحاج بفترة طويلة من الزمن، وصدورها عن ذات مركزية لا تُقِرُّ بالفضل لغيرها، وتنظر إلى مسلمي جنوب الصحراء نظرة دونية، وافتقارها إلى معطيات موضوعية تعزز رأي صاحبها، فضلاً عن اتخاذه نقد الفلاني قنطرة للنيل من مُسندين معاصرين له من أمثال الكتاني...

إن النقد ضروري ومفيد لتطور المعرفة البشرية، لكن شريطة ممارسته وفق آليات وقواعد منهجية سليمة تعصمه من الأهواء والمنزلقات الذاتية البعيدة عن المقاربات الموضوعية والاستدلالات المنطقية، وتوجهه نحو الحقيقة العلمية القائمة على "معرفة الأشياء بأسبابها" وماهيتها. والأسانيد هي جزء من الكتابة المناقبية التي لها آلياتها وأساليبها ومنطقها الداخلي وسياقات إنتاجها التاريخي التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار والتعامل معها بنوع من الاحتراز المنهجي يميز بين تاريخية صاحب المناقب وتاريخية مادة النموذج المنقبي.

ومهما يكن من أمر، فإن التشكيك في سند الفلاني جاء بعد وفاته بقرن وربع القرن، وكان من باب الشاذ الذي يحفظ ولا يقاس عليه. فالانطباعات التي تركها الفلاني في نفوس فطاحلة العلماء وطلاب العلم الذين التقوا به وأخذوا عنه، أو سمعوا به واستجازوه، وما ترك من آثار وصدى طيب في مهجره الحجازي؛ تعلي من شأن الرجل وما كان له من دور باق مع الزمن في عملية التواصل المعرفي بين مشرق الإسلام ومغربه. وهذا ما يقودنا إلى الحديث عمن أخذوا عنه.

تلاميذ الفلاني وأهم الآخذين عنه:

شكلت الفترة الحجازية من حياة صالح الفلاني، أوجَ عطائه المعرفي سواء في مجال التصنيف أو التدريس وإجازة المستجيزين. وبحكم تمركزه في المدينة المنورة، محط رحال المسلمين من مختلف أصقاع العالم، ذهب محقق كتابه: "إيقاظ همم أولى الأبصار" إلى القول إنه "قلَّ أن تخلوّ بلدة من بلاد الإسلام، في وقته، إلا وله منها عدة من التلاميذ كما يعلم ذلك من عني بالأثبات ومطالعة طبقات الرجال"[103].

ومع أن هذا الرأي لا يخلو من مبالغة، فإنه مما لا جدال فيه أن الآخذين عن الفلاني كانوا كُثْراً، ومن بلاد إسلامية شتى مما أعطاه صدى كبيراً على الساحة الإسلامية. ومن أشهر من آخذوا عنه ممن تلقوا آراءه بالرضا والقبول وعملوا على نشرها: محدث الحجاز محمد عابد السندي (ت. 1257هـ/1841م)، وعالم مكة ومسندها عمر بن عبد الكريم بن عبد الرسول (ت. 1249هـ/1833م)، وإسماعيل بن زين العابدين البرزنجي المدني(ت. 1250هـ/1834م)، ومحمد ابن العربي البناني المكي المغربي (ت. 1245هـ/1829م)، والشيخ محمد الحافظ بن المختار بن حبيب العلوي الشنجيطي (ت. 1247هـ/1831م)، وشيخ فاس عبد الرحمن بن أحمد الصديقي الشنجيطي (ت. 1224هـ/1809م)، وحمدون بن الحاج الفاسي (ت. 1232هـ/1823م)، ومسند المدينة المنورة زين العابدين محمد صالح بن علوي جمل الليل (ت. 1235هـ/1820م)، ومحمد صالح بن إبراهيم الريس الزمزمي المكي (ت. 1240هـ/1824م)، وعبد الرحمن الكزبري (ت. 1262هـ/1845م)، ووجيه الدين عبد الرحمن الكزبري (1221هـ/ 1806م)، ومحمد ياسين المرغيني (1255هـ/1839م)، ومسند مصر علي بن عبد البر الونائي (ت. 1211هـ/ 1796م)، وأبو الحسن علي بن محمد الباعلوي (كان حيا في 1250هـ/1834م)، ومفتي الشام عبد العزيز ابن عابدين الدمشقي (ت. 1252هـ/1836م)، ومحمد بن صالح الشعاب المدني (1240هـ/1824م)، وقاضي مكة المكرمة عبد الحفيظ العجيمي (1246هـ/1830م)، وقاضي دمشق أحمد بن عبد اللطيف البربير (ت. 1195هـ/1780م)، وإسماعيل بن إدريس الرومي، ومحمد بن هاشم

الفلاني، وأحمد بن محمد الكردي الاصطنبولي، ومحمد أمين حسن الزيلة لي وغير هؤلاء من العلماء الأعلام الذين شكلوا قنوات تواصل ثقافي مثمر ومتجدد مع الأيام من خلال المؤلفات والأسانيد.

الخاتمة:

ويستخلص مما تقدم، أن نأي الدار وخوف السبيل لم يمنعا أهل السودان الغربي من التواصل مع دار الإسلام بفضل ركاب الحج التي شكلت قنوات تواصل دائم عبر الزمن الطويل، تنوعت أشكاله ووسائله والقائمون عليه. فإذا كانت السلط السياسية المسلمة في السودان الغربي سباقة إلى تنظيم رحلات الحج وتحمل أعبائها المادية والمعنوية، فإن حجَّ الخاصة من العلماء والوجهاء قد تزايد مع الزمن وأصبح أكثر اطراداً وأبلغ أثراً في عملية التواصل الثقافي التي شملت المنطقة الممتدة من أعالي نهر السينغال إلى شواطئ البحر الأحمر، مروراً بالصحراء الكبرى والضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط. والمتتبع لرحلة الفلاني وما أسالت من حبر على مدى القرون الثلاثة الماضية، يدرك ما لتلك الرحلات من أهمية في عملية التواصل الثقافي.

الهوامش:

(1) شكلت الفترة الممتدة من القرن 14 إلى القرن 16م فترة ازدهار المحور الأوسط في التجارة عبر الصحراء المتجه من منحنى النيجر إلى تلمسان عبر توات. وزادت النهضة الحفصية ابتداء من أواسط ذلك القرن من حظوة قطاع تمبكتو في هذا المحور.

(2) أبو عبيد الله محمد بن أبي بكر الزمري: **كتاب الجغرافيا**، تحقيق محمد حاج صادق، دمشق، نشر:

Bulletin d'études orientales (Institut Français de Damas), T.XXXI, 1968, p. 125

(3) **تاريخ ابن خلدون** أو **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الأردن (د.ت.)، ص. 1655.

(4) راجع: جبريل ت. نياني: "مالي والتوسع الثاني للماندينغ"، ضمن **تاريخ إفريقيا العام**، المجلد الرابع، اليونسكو، باريس 1988 (129-182)، ص. 140.

(5) يسميه ابن خلدون ومن نقلوا عنه: "ماري جاطة".

(6) انظر: **رحلة العبدري** المسماة **الرحلة المغربية**، تحقيق محمد الفاسي، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، الرباط 1968، ص. 83، و**رحلة ابن بطوطة** المسماة: **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، مراجعة د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت 2005، ج1/23-24.

(7) **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، السفر الرابع: ممالك اليمن والمغرب الإسلامي وقبائل العرب، تحقيق د. حمزة أحمد عباس، المجمع الثقافي، أبو ظبي 2002، ص. 108.

(8) المصدر نفسه، ص. 116.

(9) نفسه، ص. 119.

(10) **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، م. س.، ص. 1656.

(11) المقريزي ضمن: Cuoq, Josef: Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du VIIIe au XVIe siècle (Bilad Al-Sudan), traduction et notes, Paris, C.N.R.S., 1975, p. 91-92.

(12) مادينا لي تال: "تدمور إمبراطورية مالي"، ضمن: **تاريخ إفريقيا العام**، المجلد الرابع، اليونسكو، باريس 1988 (183-197)، ص.183.

(13) راجع على سبيل المثال لا الحصر: نياني: "مالي والتوسع الثاني للماندينغ"، م.س.، ص.160، وأحمد الشكري: **الإسلام والمجتمع السوداني: إمبراطورية مالي**، المجمع الثقافي، أبوظبي 1999، ص. 187-194...

(14) **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، تحقيق وترجمة هوداس ودلافوس، باريس 1913، ص. 33.

(15) ابن فضل الله العمري: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، م.س، ص. 120.

(16) **العبر...**، م.س.، ص. 1656.

(17) **البداية والنهاية**، تحقيق ومراجعة دار أبي حيان، القامرة 1996، الجزء الرابع عشر، ص. 142.

(18) **تاريخ الفتاش**، م.س.، ص. 34.

(19) عبد الرحمن السعدي: **تاريخ السودان**، دراسة وتحقيق عبد النعيم ضيفي عثمان، دار الرشاد، القامرة 2010، ص. 23.

(20) **تاريخ الفتاش**، م.س.، ص. 33.

(21) أحمد الشكري: **الإسلام والمجتمع السوداني**، م.س.، ص. 243.

(22) د. حماه الله ولد السالم: **موريتانيا في الذاكرة العربية**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2005، ص. 83.

(23) **الذهب المسبوك في ذكر من حج من الملوك**، تحقيق د. جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافية الدينية، القامرة 2000، ص. 143.

(24) **العبر**، م.س.، ص. 1485.

(25) المصدر والصفحة نفسها.

(26) R. Mauny: Tableau géographique de l'ouest Africain au moyen âge, Mem.de l'IFAN, serie B, n°61, Dakar, 1961, p. 426.

(27) **مسالك الأبصار**، م.س.، ص. 121.

(28) **مسالك الأبصار**، ص. 122-125.

(29) المصدر نفسه، ص. 124

(30) نفسه، ص. 121-122.

(31) **العبر**، م.س.، ص. 1485.

(32) المصدر نفسه، ص. 124-125.

(33) يعني حجاج مالي في ركب منسا موسي.

(34) **مسالك الأبصار**، م.س.، ص. 122.

(35) **مسالك الأبصار**، م.س.، ص. 120.

(36) ترجمته في **نفح الطيب**، ج.194/2 حيث وصفه المقري ب "العالم المشهور والصالح المشكور والشاعر المذكور من أمل غرناطة من بيت صلاح وثروة وأمانة". تأدب وكان في صغره موثقا بغرناطة، ثم ارتحل إلى المشرق، فحج ولقي السلطان منسا موسى في موسم 724هـ فصحبه إلى بلاده واستوطنها ونال جاها مكيناً من السلطان، وتوطّن تنبكتو التي توفي بها سنة 747هـ/1346م.

(37) **العبر**، م.س.، ص. 1656.

(38) **تاريخ السودان**، م.س.، ص. 65.

(39) محمود كعت: **تاريخ الفتاش**، م.س.، ص.37

(40) لم يكن مسعى منسا موسى هذا الأول من نوعه في منطقة الغرب الإسلامي؛ فقبله بحوالي نصف قرن، قام أمل سجلماسة بجلب الأشراف العلويين من الحجاز وأوطنوهم ببلدتهم قصد التبرك بهم والاستفادة من جاههم.

(41) لم تحدد مصادرنا من هو هذا الشيخ ولا منزلته في السلطة في مكة التي كانت وقتها لبني قتادة من بني مطاعن الهاشميين.

(42) راجع: القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، تحقيق د. يوسف على طويل، دار الفكر، دمشق 1987، ج.286/5.

(43) لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى محمد القبلي: "مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين" ضمن: **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء 1987(79-126)، الصفحة 87 وما بعدها.

(44) **مسالك الأبصار**، م.س.، ص. 122.

(45) **العبر**، م.س.، ص. 1656.

(46) **عيسى الزواوي**: هو شرف الدين أبو الروح عيسى بن مسعود بن منصور الزواوي (نسبة إلى زواوة بالمغرب)، الفقيه العالم المتفنن الذي "انتهت إليه رئاسة المالكية بالديار المصرية والشامية. فقد تفقه ببجاية والإسكندرية، ورجع إلى فاس فولي قضاءها. ثم انتقل إلى مصر فدرّس في الأزهر وناب في الحكم بدمشق ثم بالقامرة قبل أن ينقطع للتأليف. من مؤلفاته: إكمال الإكمال، وشرح جامع الأمهات لابن الحاجب، وشرح على المدونة، وتاريخ ومناقب مالك، ولد سنة 664هـ/1265م، وتوفى بالقامرة سنة 743هـ/1343م. ترجمته في: ابن حجر: **الدرر الكامنة** 289/3-291، السيوطي: **حسن المحاضرة** 354/1، الزركلي: **الأعلام** 109/5...

(47) العمري: **مسالك الأبصار**، م.س.، ص. 126.

(48) **نيل الابتهاج في التطريز على الديباج**، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس1989، ص. 396.

(49) **ابن كشتغدي**: هو تاج الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن ثعلب المصري مدرس المالكية في عهده.

(50) **أبو الحسن الطليطلي**: هو أبو الحسن علي بن عيسى بن عبيد الطليطلي، أخذ بقرطبة عن عدد من علماء قرطبة وطليطلة، وكان فقيهاً وعالماً مشهوراً، روي عنه شكور بن حبيب وغيره. وذكر ابن الفرضي (**تاريخ علماء الأندلس**/251، و**بغية الملتمس**/373) أن له مختصراً "في المسائل أخذه الناس عنه وانْتُفِعَ به"، وهو المشار إليه هنا.

(51) **الذهب المسبوك**، م.س.، ص. 143.

(52) مثل ما كان الحال بالنسبة لإمام المسجد الجامع في تنبكتو سيدي أحمد وكاتب موسى الذين رحلا إلى فاس للتعلم بأمر السلطان منسا موسى.

(53) **تاريخ السودان**، م.س.، ص. 23.

(54) **مسالك الأبصار**، م.س.، ص. 107.

(55) جاء هذا التحديد لفترة مقام الفلاني عند شيخه ابن سنة في ترجمة الكتاني (**فهرس الفهارس**.902/2) للفلاني، بينما ذكر في ترجمته لابن سنة (ج.1027/2) أن الفلاني مكث معه أربع سنين، عازيا هذا الرأي إلى الفلاني نفسه في ثبته الكبير. فتأمل!

(56) **ابن سنه**: هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن سِنَّة الفلاني العمري (1042-1186هـ)، عالم بالحديث معمر، واسع الرواية، له فهرسة لشيوخه الكثر رواها عنه تلميذه الفلاني الذي شهر أسانيده وعرّف الناس بها. وكان ابن سنة قد تنقل في طلب العلم بين بوادي وحواضر بلاد السودان والصحراء والمغرب مثل شنجيطي، وتوات، وتنبكتو، وأزواد، وولاتة، وتيشيت، وفاس، ومراكش، وسجلماسة.. ولازم محمد بن أحمد بن محمود بن أبي بكر بغيغ الونكري التنبكتي وأجازه إجازة عامة ودعا له أن يرزقه الله العلم النافع وطول العمر في طاعة الله، وبعد وفاته، رحل إلى ولاتة حيث لازم أبا عبد الله مولاي محمد الشريف الولاتي (ت. 1101هـ/1689م) اثنين وثلاثين سنة، واستخلفه في التدريس والإمامة لما حج، وأشركه في إجازات العلماء له.

(57) عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني: **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، باعتناء الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط.1982/2، ج.1026/2.

(58) **الغرياني**: هو أبو عبد الله محمد بن علي الغرياني (ت. 1195هـ/1781م)، التونسي الطرابلسي، أمام محدث وصاحب تصانيف.

(59) **الكوشي**: هو أبو الفلاح صالح بن حسين الكواشي (1138-1218هـ/1736-1804م)، فقيه وأصولي تونسي...

(60) **السوسي**: لعله محمد بن أحمد السوسي التونسي الذي تفقه بالأزهر، وتصدر للتدريس والقضاء في بلدته سوسة ثم في مدينة تونس، أو أبو محمد حسن بن

محمد الهدة السوسي، رئيس المفتين بتونس في عهده وفقيهها المتفنن المتوفى عن عمر مديد سنة 1248هـ/1838م.

(61) **التاودي بن سودة**: هو محمد بن الطالب بن علي بن سودة التاودي المري الفاسي، الفقيه المغربي الشهير وشيخ الجماعة بفاس، له: زاد المجد الساري على صحيح البخاري، وحاشية على صحيح مسلم، توفي 1209هـ/1795م.

(62) **معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة أو المدمش المطرب**، صححه وخرج حواشيه عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت 2003، ص. 205-206.

(63) الصعيدي: هو علي بن أحمد بن مكرم الله المنسفيسي العدوي المالكي الأزمري الشهير بالصعيدي (1112-1189هـ)، فقيه مالكي محقق، وأصولي متكلم، له عدد من التصانيف.

(64) **راجع: فهرس الفهارس والأثبات**، م.س.، ج.2/986.

(65) **فهرس الفهارس والأثبات**، م.س.، **ج.1/298.**

(66) صالح بن محمد الفلاني: **إيقاظ همم أولى الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار وتحذيرهم عن الابتداع الشائع في القرى والأمصار من تقليد المذاهب مع الحمية والعصبية بين فقهاء الأعصار**، تحقيق أبي عماد السخاوي، دار الفتح، الشارقة 1997، ص. 14.

(67) لعله يقصد مالك بن أبي السمح (ت. 85هـ/704م)، الذي عده السيوطي من الأئمة المجتهدين، وولي قضاء مصر سنة 83-84 هـ في عهد عبد العزيز بن مروان الذي كان يجله ويبعث إليه بالهدايا سنويا.

(68) **إيقاظ همم أولى الأبصار**، م.س.، ص. 92.

(69) نفسه، ص. 214.

(70) نسبة إلى خليل بن إسحاق المالكي صاحب **المختصر** المعروف باسمه.

(71) نسبة إلى كتاب **كنز الدر** في الفقه الحنفي.

(72) نسبة إلى كتابي أسعد أفندي، مفتي المدينة المنورة، وخير الدين إلياس، في الفقه الحنفي.

(73) نسبة إلى كتاب: **منهاج الطالبين** للإمام النووي.

(74) **إيقاظ همم أولى الأبصار**، م.س.، ص.85-86.

(75) **المصدر نفسه**، م.س.، ص.208-209.

(76) نفسه، ص. 148.

(77) **فهرس الفهارس والأثبات**...، م.س.، ج.2/901.

(78) الحبيب عيدروس بن عمر الحبشي: **عقد اليواقيت الجومرية وسمط العين الذهبية بذكر طريق السادات العلوية وما لهم من الإسنادات القوية وما أُثر عن بعضهم من إجازة ووصية**، تحقيق، دار، ج.1/330-331.

(79) هو محمود خطاب السبكي (ت. 1352هـ/1932م).

(80) هذا الكتاب لشرف الحق العظيم آبادي المتوفى بعد 1310هـ/1892م.

(81) **فهرس الفهارس والأثبات**...، م.س.، ج.2/901-906.

(82) المصدر نفسه، ج. 1/288.

(83) د. محمد علي فهيم بيومي: "العالم الأثري الشيخ صالح الفلاني وجهوده السلفية في المدينة المنورة"، **مجلة الدارة**، العدد 2/1427هـ(9-58)، ص. 9.

(84) عدنا لطبعة دار الشروق، جدة 1405هـ من هذا المصنف بتحقيق عامر حسن صبري.

(85) **فهرس الفهارس والأثبات**، م.س.، ج. 2/975.

(86) **علو السَّند**: هو قلة رجال سند الحديث بالنسبة إلى سند آخر يرد به ذلك الحديث بعينه. فالسند الأول يسمى عاليا، والثاني يسمى نازلا. فكلُّ ما قلّتْ رجَالُهُ "عَلا"، وكل ما كثرت "نَزَل". والعلو نوعان: **علو عدد**، وهو ما قلّ رجاله؛ و**علو صفة**، وهو أن يكون رجال السند أثبت في الحفظ والعدالة من السند الآخر.

(87) **مولاي الشريف**: هو أبو عبد الله مولاي محمد الشريف الولاتي الذي حجَّ مع والده سنة 975هـ/1567م ولم يتجاوز عمره 15 عاما، وزار معه بغداد ودمشق، وحلب، واستجاز له ممن لقي من العلماء والمحدثين. راجع عنه الكتاني: فهرس الفهارس، ج.2/1073-1076.

(88) الفلاني: **قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر**، م.ي، ص. 24-25.

(89) نفسه، ص. 44.

(90) وردت مآخذ الفاسي على صالح الفلاني وسنده في الصفحات 202-207 ضمن ترجمة عبد الله السنوسي وسند والده من **معجم شيوخ الفاسي** المسمى: **رياض الجنة أو المدمش المطرب**، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت 2003.

(91) **رياض الجنة**، م.س.، ص. 202.

(92) نفسه، ص. 204.

(93) **موريتانيا في الذاكرة العربية**، م.س.، ص. 151-157.

(94) المرجع نفسه، ص. 157.

(95) **فهرس الفهارس والإثبات**، م.س.، ج.2/1029.

(96) رجعنا إلى نسخة الإلكترونية من **العتب الإعلاني لمن وثّق صالحاً الفلاني**، مؤلفة من 29 صفحة بخط مغربي جميل ولا تحمل رقما. وهي بخط محمد بن الأمين بو خبزة الحسني الناقل لها عن نسخة المؤلف، وكان الفراغ منها ضحى يوم السبت رابع وعشر محرم الحرام عام ستة وسبعين وثلاثمائة.

(97) **العتب الإعلاني**، ص. 1.

(98) نفسه، ص.2.

(99) نفسه، ص. 5.

(100) **العتب الإعلاني**، ص. 27.

(101) المصدر نفسه، ص. 9.

(102) نفسه، ص. 15.

(103) **إيقاظ همم أولى الأبصار**، م.س.، مقدمة التحقيق، ص. 13.

مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات العلمية

حي ماكودي 02 رقم 13 واد السمار – الجزائر
ها: 023.75.75.81 **النقال:** 0550.54.83.05
البريد الالكتروني: markaz_bassira@yahoo.fr / bacera.studies@gmail.com الموقع الالكتروني: www. elbasseera.net

دفعا لعملية البحث على مستوى المركز والتواصل العلمي مع مختلف المؤسسات البحثية والباحثين، يفتح المركز فضاءه العلمي، أمام كل القدرات العلمية الجادة من خلال الاشتراك أو الكتابة في دورياته المتخصصة: دراسات اقتصادية، دراسات استراتيجية، دراسات إسلامية ودراسات أدبية، ودراسات قانونية ودراسات اجتماعية ودراسات نفسية أو من خلال التواصل العلمي مع المركز.

- تصدر الدوريات سداسيا، أي عددين في السنة لكل دورية.
- الاشتراك السنوي في الدورية الواحدة للأفراد: 1200 دج لكل دورية، وخارج الوطن: 15 دولار. للمؤسسات في الجزائر: 150دج وخارج الوطن: 20 دولار.

قسيمة الاشتراك السنوي

دورية دراسات إسلامية ودراسات استراتيجية ودراسات اقتصادية ودراسات قانونية ودراسات أدبية ودراسات اجتماعية ونفسية، تاريخية، الطفولة والأرطفونية.
تصدر أربع مرات في السنة

الاسم واللقب أو المؤسسة.....الهاتف.....
العنوان.....

الاشتراك في الدوريات: 1- دراسات أدبية من العدد ☐ 2- دراسات إستراتيجية من العدد ☐
3- دراسات إسلامية من العدد ☐ 4- دراسات قانونية من العدد ☐
5- دراسات اقتصادية من العدد ☐ 6- دراسات اجتماعية من العدد ☐
7- دراسات نفسية من العدد ☐ 8- دراسات تاريخية من العدد ☐
9- دراسات الطفولة من العدد ☐ 10- دراسات أرطفونية من العدد ☐

يُرسل الاشتراك إلى رقم الحساب الجاري: مؤسسة دار الخلدونية Ccp: 7625589 clé 81

ملاحظة: ترسل قسيمة الاشتراك وصورة الحوالة البريدية يمكن تسديد المباشر **والاست**لام المباشر على مستوى المركز.

تكاليف البريد مقدرة ضمن سعر المجلة